موسوعة

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب السابع



تأليف
علي باپير

الطبعة الثانية

دار الحكمة
لندن

هذا الكتاب

هو الكتاب السابع من موسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله) والتي يسر الله الوهاب الكريم لي تأليفها في ضوء أنوار كتابه المبارك، في غضون (22) شهراً، التي أمضيتها في سجن: (كروبر الأمريكي) من: (2003/7/10 الى: 2005/4/28م).

وخصّصنا هذا الكتاب بالحديث عن خاتم النّبيّين وسيّد المرسلين: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلّب صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله أجمعين، من الصّحب والأزواج والقرابة، والتابعين لهم بإحسانٍ الى يوم الدين. وذلك تحت أربعة عناوين كليّة:

- إسم خاتم النّبيّين، ونَسَبُهُ، وموجزُ سيرته.
- براهين نبُوّة (محمد) نبيّ الله الخاتم، ورسوله الأعظم، ونوره الأتم.
- مقام خاتم النّبيّين الرفيع وخُصوصيّاته.
- ما يجبُ علينا تِجاهَ خاتم النبيّين وسيّد المرسلين محمد (صلى الله عليه وسلّم).

وميزَةُ هذا الكتاب «كبقيّة كتب هذه الموسوعة» في خِضَمّ المصادر والمؤلّفات الكثيرة، في مجال السِيرة النّبويّة، هي اعتمادُهُ الأساسيُ على كتاب الله المبارك. وأرجو أن أكونَ قد وُفِّقتُ «بتأليفي هذا الكتاب» لأداءِ بعض حق نبيّ الله الخاتم محمدٍ (صلى الله عليه وسلم) عليّ..



DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037

Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

ISBN
978 1 78481 086 3

موسوعة

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب السابع

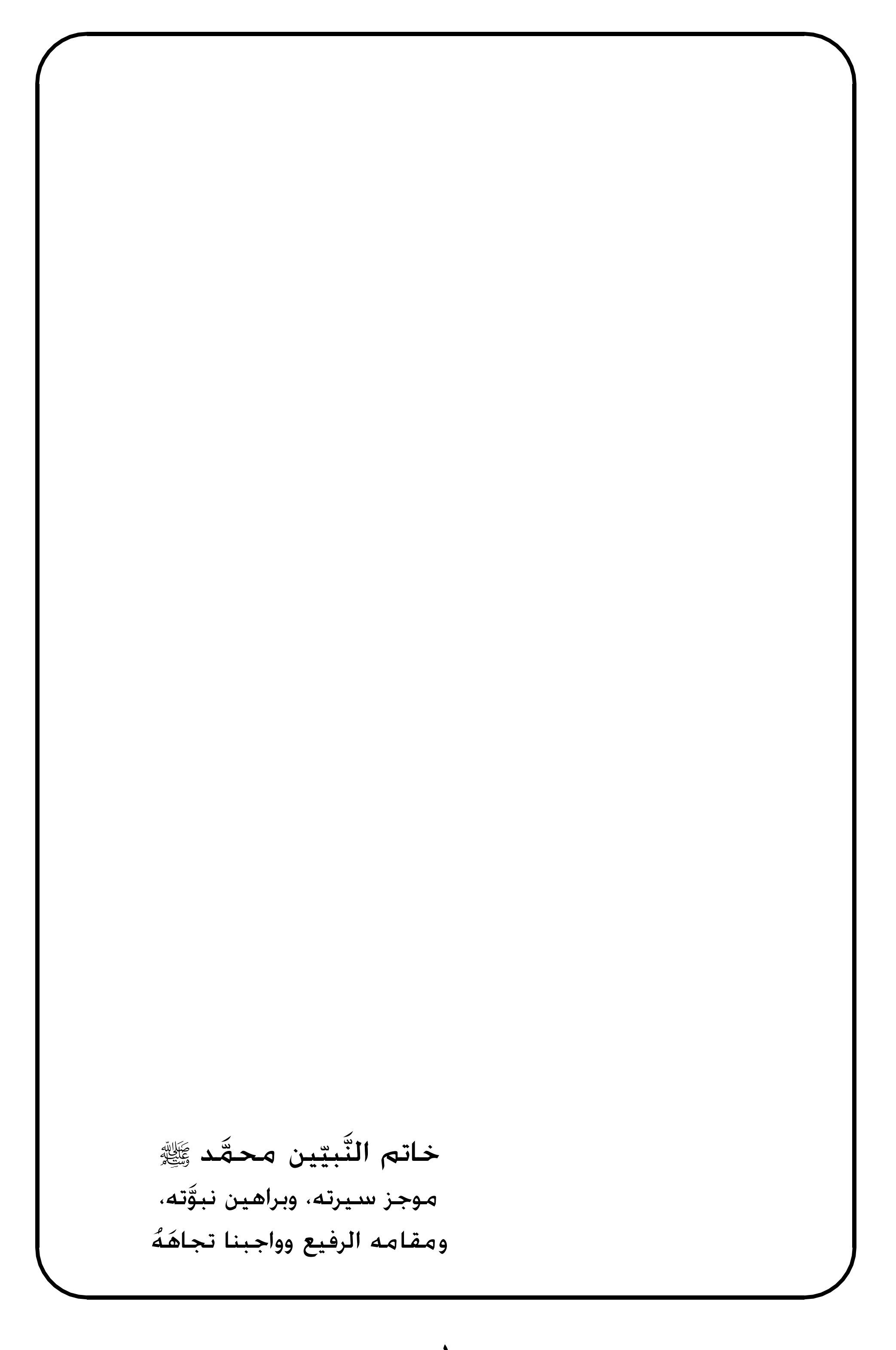
خاتم النبيين محمد ﷺ

موجز سيرته، وبراهين نبوته، ومقامه الرفيع، وواجبنا تجاهه

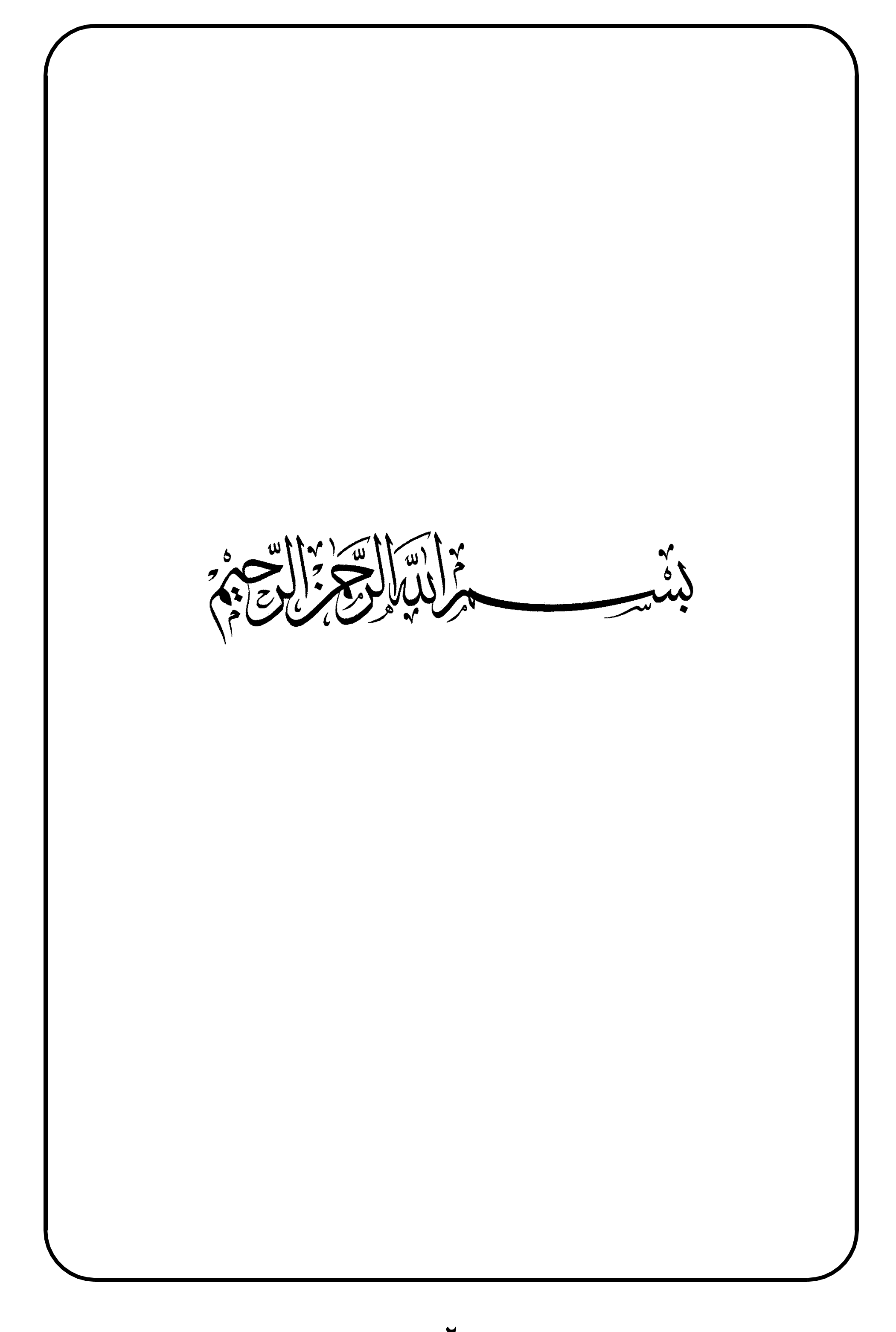
تأليف

علي باپير

دار الحكمة



خاتم النَّبيّين محمَّد ﷺ
موجز سيرته، وبراهين نبوَّته،
ومقامه الرفيع وواجبنا تجاهَهُ


بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب السابع

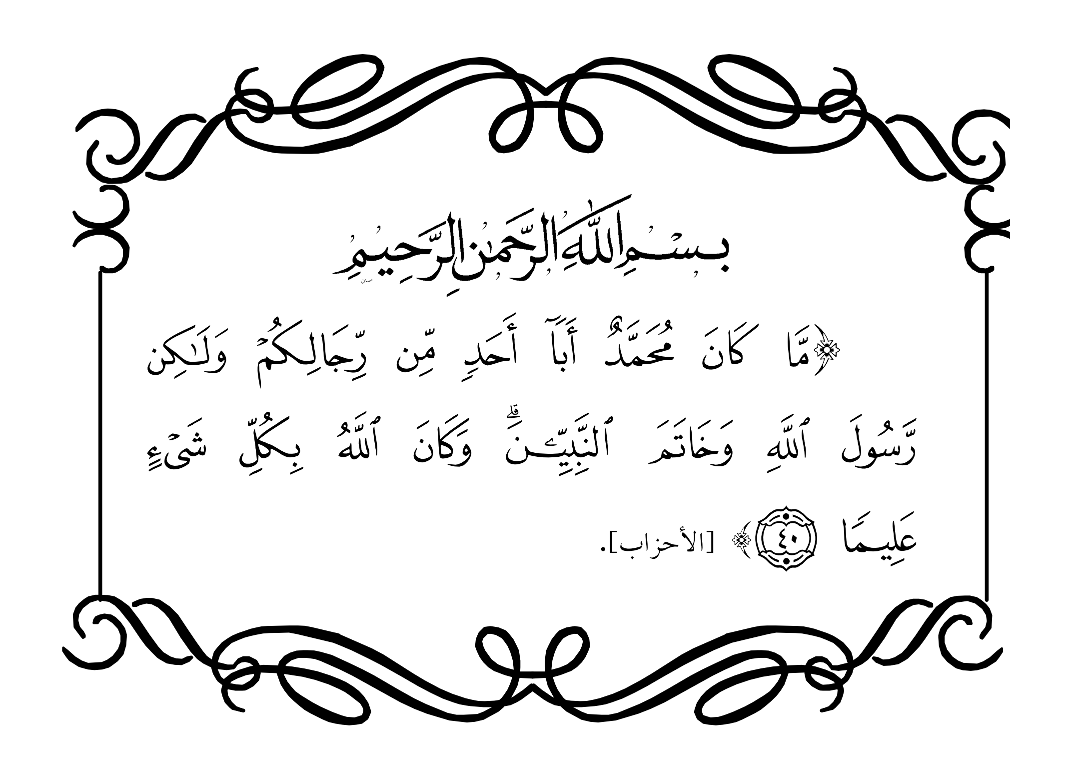
خاتم النَّبيّين محمَّد ﷺ

موجز سيرته، وبراهين نبوَّته، ومقامه الرفيع، وواجبنا تجاهَهُ

تأليف
علي باپير

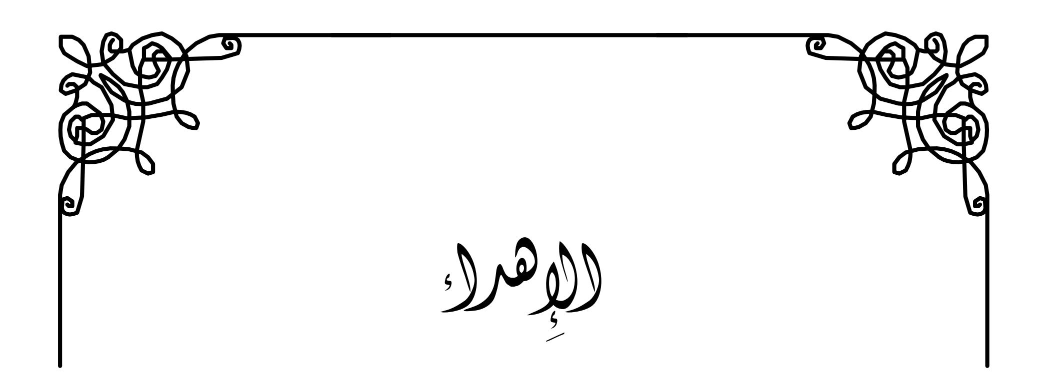
الطبعة الثانية

١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

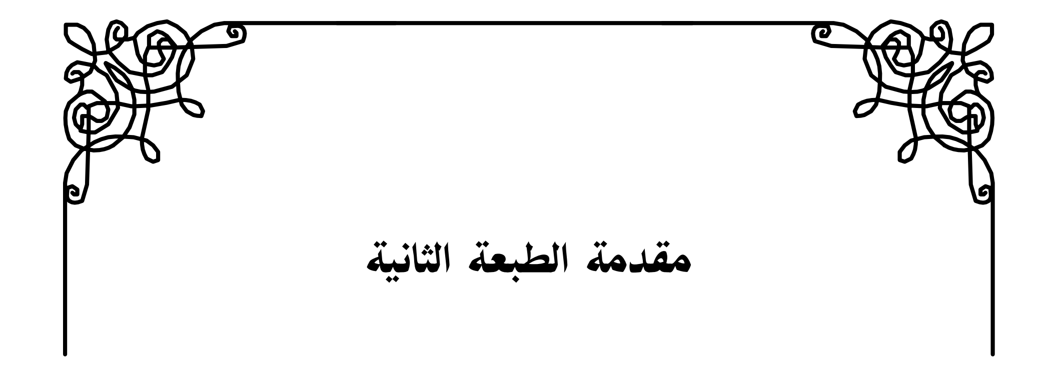
﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾ [الأحزاب].



الإِهداء

إلى الذين يبتغون فقه الإِسلام بعمقٍ وشمولٍ، كما في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ لِيُجَسِّدُوه في حياتهم الشخصية والأُسَريَّة والعامة، ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبيِّ البشير النذير، محمد وآله الكرام «صحباً وأزواجاً وقرابةً» الذين هم جديرون بكل تكريم وتقدير.

وبعد، فقد ارتأينا إعادة طبع هذه الموسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعد طبعتها الأولى، (**في صورة كتاب في ثمانية مجلدات** «**موزَّع على أربعة أبواب وسبعة عشر فصلاً**») في سلسلة كتب مجموعها: اثنا عشر كتاباً، كل كتاب يحتوي على موضوع رئيسي.

والنتيجة:

أصبح توزيع مواضيع الكتاب على الكتب الإثني عشر، في هذه الموسوعة، على الشكل الثاني:

الباب الأول بفصوله الأربعة، والمعنون: (**الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق**) بقي كما هو، وصار:

الكتاب الأول، في هذه الموسوعة.

الباب الثاني بفصوله الستة، والمعنون: (**الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**) تحول في هذه الموسوعة الى سبعة كتب، كل كتاب مُخصَّصٌ لبحث موضوع أساس من مواضيع الإيمان، وذلك بعد أن جعلنا الفصل الخامس: (**الإيمان برسل الله وأنبيائه**) فصلين، ففي الأول

منهما: بحثنا موضوع الإيمان بالرسل والأنبياء «عليهم السلام» عموماً، وفي الثاني منهما، تحدَّثنا عن خاتم النبيين «ﷺ» خصوصاً، فصار الباب الثاني في هذه الموسوعة بهذه الصورة:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر...

الكتاب الثالث: الإيمان بالله سبحانه وتعالى...

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه «عليهم الصلاة والسلام».

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد «ﷺ».

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

الباب الثالث بفصوله الثلاثة، والمعنون: **(الإسلام: إلتزام جادّ بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي)** تحول في هذه الموسوعة الى ثلاثة كتب، بالصورة التالية:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهدى الله تعالى..

الكتاب العاشر: إلتزامُ المجتمع بدين الله تعالى...

الكتاب الحادي عشر: تطبيق المجتمع للشريعة...

الباب الرابع بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم)** بقي على حالِهِ، وصار الكتاب الثاني عشر والأخير، في هذه الموسوعة بالشكل التالي:

الكتاب الثاني عشر: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

وقد راعينا في ترتيب هذه الكتب الإثني عشر «في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً» التسلسل المنطقي المتدرج: إذ الإنسان يحتاج قبل كل شيءٍ، المعرفة

بهذا الوجود، ومحلِّهِ هو في إعرابهِ، فجاء الكتاب الأول: بعنوان: (الإسلام: معرفةٌ صحيحة بالخالق والخلق) تلبيةً لهذا المطلبِ الفطريِّ الأول.

ثم تُنْتِجُ المعرفةُ الصحيحة بالوجود ـ طالما التزم صاحِبُها بمقضياتها المنطقية ـ الإيمان بالله الخالق الرب المالك، وببقية أركان الإيمان الخمسة، فجاءت الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، تحت عنوان: (الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) تحقيقاً لهذا المقصد العظيم، وبياناً لتلك الحقائق الكبرى، التي وضعَ فيها كتاب الله الحكيم النقاط على الحروف، ولم يُحْوِجْنا في إدراكها الى غيره.

ثم ان الإيمان الصحيح بالله تبارك وتعالى، وببقيَّةِ أركان الإيمان الأساسية، يدفعنا الى الإلتزام بدين الله القيِّم، وشريعته الحكيمة، فجاءت الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر، تحت العنوان العام: (الإسلام: إلتزامٌ جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع) لتوضيح كيفية التزام الفرد والمجتمع والدولة بالشريعة السّمحاء، بهذه العناوين الثلاثة، للكتب الثلاثة:

١ ـ الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى.

٢ ـ إظهار الدين الحق، أو التزام المجتمع بدين الله تعالى: فكراً وشعائرُ وآداباً.

٣ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

ثم أخيراً: بعد المعرفة الصحيحة، والإيمان الراسخ، والإلتزام الجاد بالشريعة، بإمكان المسلمين: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، أن يتعاملوا مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، على أساس النظرة السَّديدة إليهم، بصورة شرعية صحيحة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، وبيان هذا الموضوع تكفّل به الكتاب الأخير، الثاني عشر، والذي جاء بعنوان: (الإسلام نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

وفي المُحَصِّلة: بيّنا من خلال هذه الموسوعة ـ بِكُتُبِها الإثني عشر ـ تجلية كتاب الله الحكيم المبارك للإسلام:

١ ـ معرفةً صحيحة بالوجود (الخالق والخلق).

٢ ـ وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ ـ والتزاماً بالشريعة على المستويات الثلاثة: فرداً ومجتمعاً ودولةً.

٤ ـ وتعاملاً صحيحاً مع الناس، على أساس نظرة سديدة تجاههم.

والهدف الأساس من هذا العمل «طبع هذه الموسوعة بهذه الصورة» هو تسهيل وصولها الى القراء، وتيسير حصولهم على أي موضوع يرغبون فيه منها.

وجديرٌ بالذكر أننا أبقينا «في هذه الطبعة» على أكثرية الإحالات الى الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، على حالها الذي كانت عليها في الطبعة الأولى.

وكذلك أبقينا على كل من هذه العناوين الثلاثة:

١ ـ (مُبَشِّرة حول هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: (مُبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة).

٢ ـ (قصة تأليف هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: **(قصّة تأليف هذه الموسوعة)** والتي شرحنا فيها: كيفية الشروع بهذا العمل في السجن الأمريكي، وكيفية انبثاق خطة الكتاب في خطوطها العريضة، من آيات سورة الفاتحة السبع المباركات، وسبب تقسيمه الى أربعة أبواب في سبعة عشر فصلاً.

٣ ـ (المقدمة) والتي غيَّرناها الى: (مقدمة هذه الموسوعة).

وسَنُدْرِجُها في بداية الكتاب الأول من هذه الموسوعة، لارتباطها بكل الكتب الأخرى المضمَّنة لها، ونكتفي بهذا عن تكرار إدراجها في بداية الكتب الأخرى.

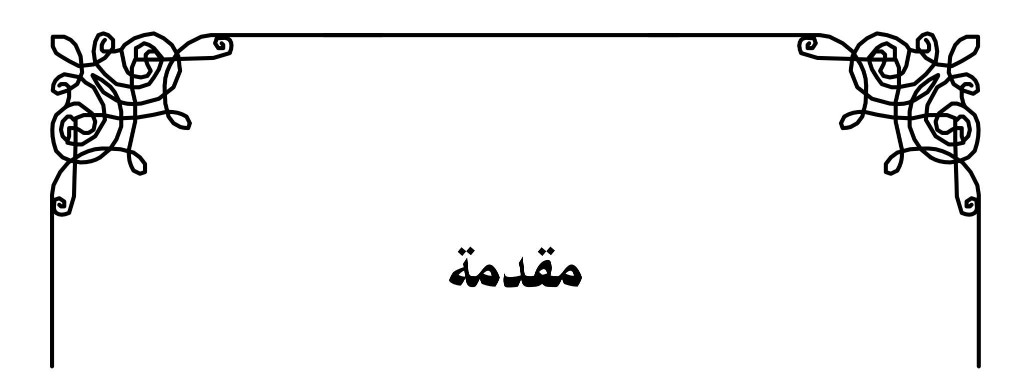
وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يَسُدَّ بهذا الجهد، ثغراتٍ كثيرة، في فهم كثير من المسلمين لدينهم القيِّم، وأرجو أن تَحْظى هذه الموسوعة، بأن تكون لبنة في بناء صرح المشروع الإسلامي المنشود.

وآمل ألّا يَبْخَل عليَّ القرّاء الكرام، بملاحظاتهم وتنبيهاتهم، وأشكرهم جزيل الشكر مسبقاً.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

/١ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٠ نيسان ٢٠١٥م
أربيل /كوردستان ـ العراق

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



مقدمة

إنّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْـتَعِينُهُ، وَنَسْـتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شرُورِ أَنْفُسِـنَا، وَمِنْ سَيئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْده اللهُ فَلاَ مُضِـلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَن لاَ إِلَهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أَمَّا بَعْدُ: فإِنَّ أَصْدَقَ الحَديث كَلامُ الله وَخَيْرَ الْهَدِي هدْيُ مُحَمَّد وَشرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُـلَّ بِدْعَةٍ ضَـلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَـلاَلَةٍ فِي النَّار.

لا يتـم الإيمان برسـل الله وأنبياء الكـرام «عليهم الصلاة والسلام والبركات» بدون الإيمان بخاتمهم وسيدهم: أفضلهم شأناً وأرفعهم مقاماً، (محمد) عليه أفضل الصلوات، وأتم التسليمات، وأكمل البركات.

وذلك لأن الأنبياء الكرام ورُسُلُ الله العظام، هم كحلقات سلسلة يُكْمِلُ بعضها بعضاً، أو كلبنات بناءٍ، يكتمل بها البناء جميعاً، كما قال رسول الله الخاتم ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله، الاّ موضعَ لَبِنَةٍ من زاوية من زواياه، فجعل الناسُ يطوفون به ويتعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللَّبِنة! فأنا اللَّبِنَةُ وأنا خاتم النبيين**»[1].

بل الكفر بالنبي الأمي (محمد) ﷺ يُعَدُّ كفراً بالأنبياء الذين سبقوه جميعاً، وذلك من وجهين:

أولاً: لأن الله تعالى أخذ الميثاق من جميع أنبيائه ورسله أن يؤمنوا «أي يوصوا أممهم بذلك» بالنبي الخاتم، والرسول الأعظم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

ولا شكَّ أن الأنبياء التزموا هذا الميثاق، ووفوا بعهدهم، ووصّوا أتباعهم وأممهم بذلك.

وعليه:

كل من لم يؤمن بالنبي الخاتم ﷺ فهو لم يُنَفِّذْ وصية نبيِّه الذي يَحْسِبُ نَفْسَهُ من أتباعه، وبالتالي: انتقض إيمانه، والتزامُهُ بتعاليم نبيه.

ثانياً: إن النبي الخاتم (محمد) ﷺ مصدق لكل الأنبياء السابقين، إذ كل الأنبياء صدَّق لاحقُهُم سابِقَهم، قال الله تعالى معرِّفاً بالنبي الخاتم، ومخاطباً كل الأنبياء: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، وعليه: فمن لم يؤمن «من أهل

(١) رواه البخاري: ٣٥٣٥.

الكتب السابقة» بالنبي الخاتم ﷺ فقد أفقد نفسه ومِلَّتَه، تصديقَ وتأييد النبي الخاتم وكتابه الأعظم: القرآن الكريم.

ثم من جانب آخر:

إن عدم إيمان أهل الكتاب برسول الله (محمد) ﷺ يوقعهم في تناقض شديد: إذ هم إنما آمنوا بالأنبياء السابقين، على أساس المعجزات التي أتوا بها لإثبات نُبوَّتهِم، إذن: لم التفرقة بينهم وبين سيدهم وخاتمهم، في: الإيمان، والإيمان بهم، وعدم الإيمان به، على الرغم من أن معجزته وبينته، أعظم المعجزات والبينات وأدومها؟! كما قال رسول الله ﷺ في هذا المجال:

«ما من الأنبياء من نبي، الاّ قد أُعطي من الآيات مامثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

إذاً:

من يؤمن بالنبي الخاتم محمد ﷺ يكتسب الإيمان بجميع الأنبياء الكرام عليهم السلام، ومن لم يؤمن به «من أتباع الشرائع السابقة» يفقد الإيمان بجميعهم، إذ الكفر به، يتناقض مع الإيمان بأي منهم.

وهذا الكتاب السابع خصّصناه بالحديث عن سيد الأنبياء والمرسلين (محمد) ﷺ:

اسمه، ونسبه، وموجز سيرته، وبراهين نبوته ورسالته، ومقامه الرفيع وخصوصياته، وواجبنا تجاههُ.

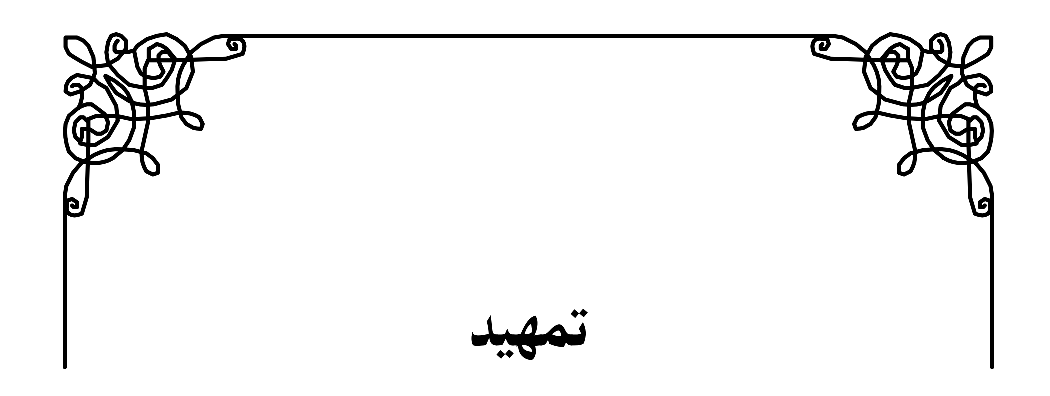
وأرجو أن أكون بهذا الكتاب، قد وفَّيتُ بعض حق نبيِّنا الخاتم، ورسولنا الأعظم، وسيد ولد آدم (محمد) ﷺ.

٥/رجب/١٤٣٦ هـ

٢٤/نيسان/٢٠١٥م

أربيل/ كوردستان العراق

(١) البخاري: ٤٦٩٦، ومسلم: ٤٠٢.



تمهيد

يتكوَّن هذا الكتاب المُخَصَّص للحديث عن كيفية الإيمان برسول الله الأعظم، ونَبِيِّه الخاتم، سَيِّدنا (محمَّد) ﷺ، من أربعة فصول، بهذه العناوين:

١) **إِسم خاتم النبيين، ونَسَبُهُ، وموجَزُ سيرته.**

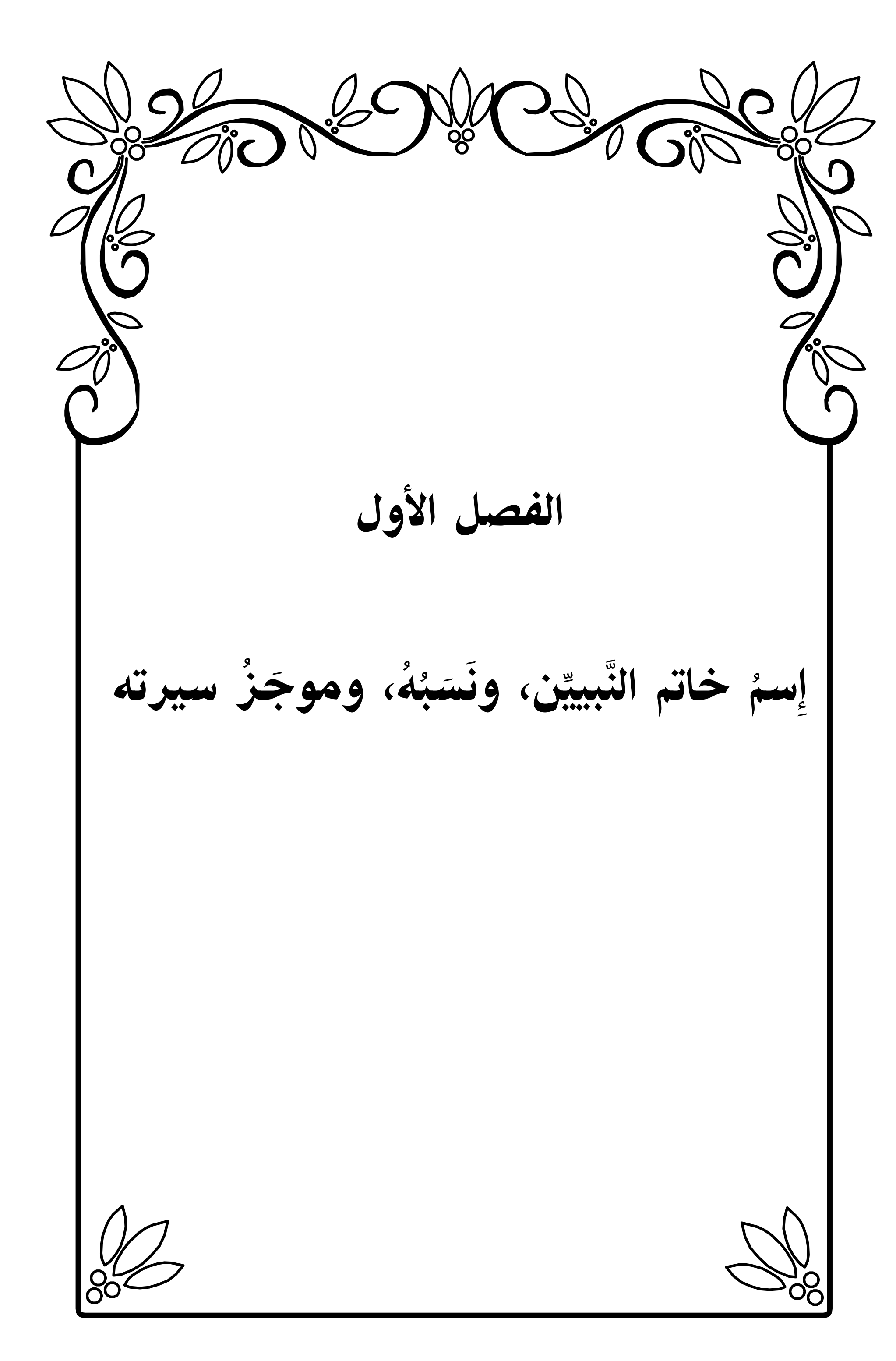
٢) **براهينُ نبوَّةِ (محمَّدٍ) خاتم النبيين ﷺ.**

٣) **مقام خاتمِ النبيين ﷺ الرَّفيعُ، وخصوصيّاتُه.**

٤) **ما يجبُ علينا تِجاهَ خاتم النبيين وسيِّد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين.**

ونبدأ بتوفيق الله الوهَّاب بالفصل الأول:

❋ ❋ ❋



الفصل الأول

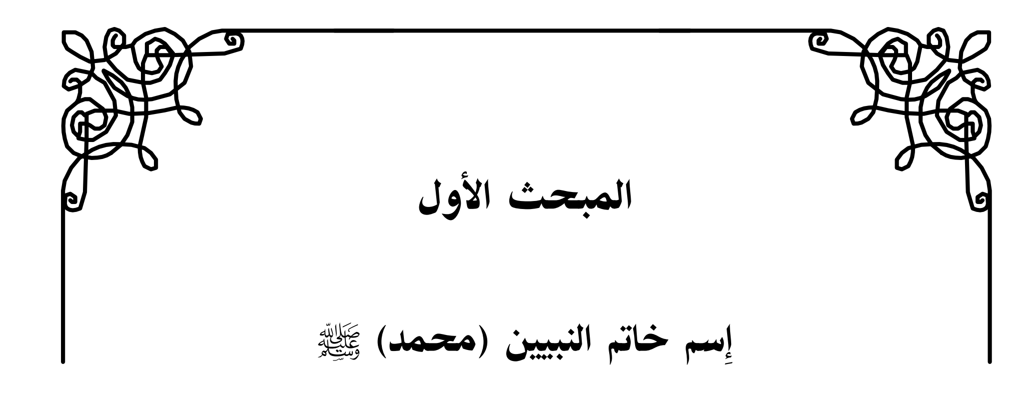
إِسمُ خاتم النَّبييِّن، ونَسَبُهُ، وموجَزُ سيرته

سنبحث كلاً من: اسم خاتم النبيين ﷺ، ونسبه، وموجز سيرته، في مبحث خاص:

المبحث الأول: إِسم خاتم النبيين (محمد) ﷺ.

المبحث الثاني: نَسَبُ خاتم النَّبيين (محمد) ﷺ.

المبحث الثالث: موجز سيرة خاتم النبيين (محمد) ﷺ.



المبحث الأول

إسم خاتم النبيين (محمد) ﷺ

لقد أطلق كتابُ الله المبين على خاتم النبيين وسيِّد المرسلين، كِلا اسمي: (محمَّد) و(أحمد)، وهذه هي الآيات التي ورد فيها أسماه المباركان:

١) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

٢) ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب].

٣) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد].

٤) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ . . .﴾ [الفتح: ٢٩].

٥) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

إذاً:

ورد اسمه المبارك (محمَّد) في أربع آيات، واسمه (أَحمد) في آية

واحدة فقط، وعلى لسان (عيسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُبشِّراً به بني إسرائيل الذين بعث فيهم وإليهم.

ومعنى الإسمين واحد وهو: المحمود كثيراً من قبل الناس، والكثير: الخصال الحميدة[1]، واسماه مُطابِقان مع مُسمّاه، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله أجمعين، من الصّحب والأزواج والقرابة والتابعين لهم بإحسان.

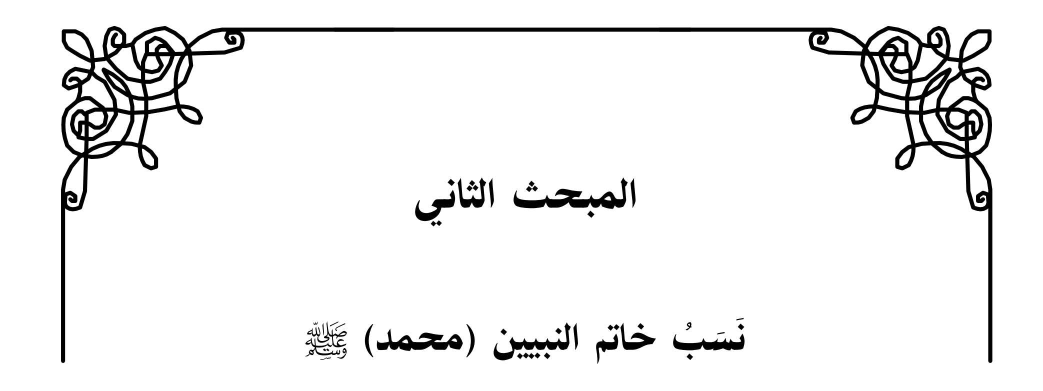
وقد سمّاه بهذا الإِسم ـ أي: (محمَّد) ـ جَدُّهُ (عَبْدُ المطلب) كما سنذكره بعد قليل.

هذا بالنسبة لاسم خاتم النبيين في القرآن الحكيم، وأما في السنة النبوية فقد ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ أن له خمسةَ أسماء، حيث قال:

(لي خمسةُ أسماءٍ: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدمي، وأنا العاقب) رواه البخاري: ٤٨٩٦ ومسلمٌ: ٦٠٥٩، عن جُبَير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنهما، وهذا لفظ مسلم.

---

(١) مختار الصحاح، لفظ ح م د، ص١٤٦، والمعجم الوسيط، ص١٩٦، والمنجد، ص١٥٣، ط١٧.



المبحث الثاني

نَسَبُ خاتم النبيين (محمد) ﷺ

نَسَبُ رسول الله الخاتم ﷺ منه ما هو متفق عليه بين أهل السِّير والأنساب، ومنه ما هو مختلف فيه.

أمّا المقدار المتفق عليه، فهو ما يبدأ به وينتهي إلى (عَدْنان) و(عدنان) من ولد (إسماعيل) عليه السلام، وأما المختلف فيه، فهو من (عدنان) إلى (إسماعيل) بن (إبراهيم) عليهما السلام.

والآن نَسْرُدُ المِقدارَ المتفق عليه(١):

«محمَّد بن عبدالله بن عبد المطلب (واسمه شَيْبَة) بن هاشم و(اسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمه المغيرة) بن قُصَيْ (واسمه زَيدْ) بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَيْ بن غالب بن فِهْر (وهو الملقّب بقريش وإليه تنتسب قبيلة قريش) بن مالك بن النَّضْر (واسمه قَيس) بن كنانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكة (واسمه عامر) بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان. . .».

ومن الواضح أن خاتم النبيين (عَرَبيٌّ)، إذْ هو من الشعب العربي الساكن في الجزيرة العربية، منذ قرون طويلة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ بعد رقم: ٣٨٥٠، ص٦٩٧.

وقد قسّم المؤرِّخون الشَّعْبَ العربيَّ عموماً، بحسب السُّلالات التي ينحدر منها إلى ثلاثة أقسام:

١) العرب البائدة:

وهم العرب القدامى الذين انقرضوا تماماً، ولا يمكن الحصول على تفاصيل كافية من تاريخهم، مثل: عاد، ثمود، طَسْم، جَديس، حضرموت... إلخ.

٢) العَرَبُ العاربة:

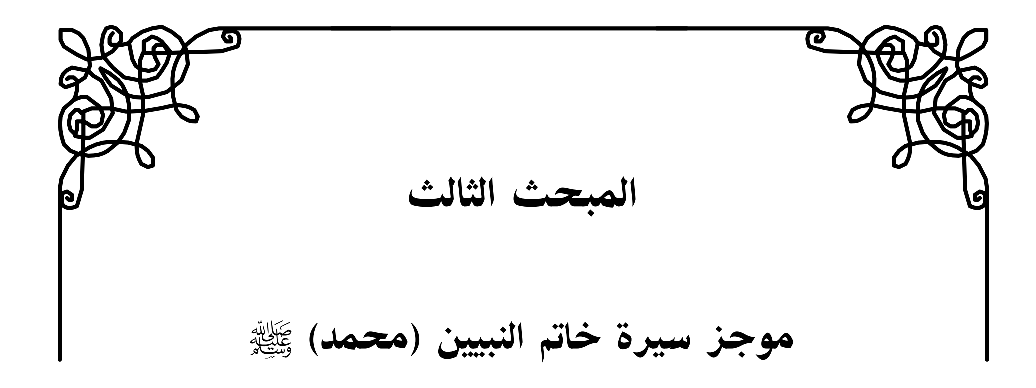
وهم العرب المنحدرون من صُلْبِ (يَشْجُبْ بن يَعْرُب بن قَحْطان) ويُسمَّون: العَرب القحطانية.

٣) العرب المُسْتَعْرَبة:

وهم العرب المنحدرون من صُلْب (إسماعيل) عليه السلام، ويُسَمَّوْنَ: العرب العَدْنانية، وإنّما سُمُّوا بهذا الإسم (أي المُسْتَعْرَبة) لأنَّ جَدَّهم الأعلى هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام من (هاجر) المصرية، وبما أن كلاًّ من (إبراهيم) و(هاجر) لم يكن عربياً، وكذلك ابنهما إسماعيل، الذي تعلَّم اللغة العربية، من قبيلة (جُرْهم) العربية وتَزوَّج منهم، لِذا سُمِّيَ نَسْلُهُ المتولِّدون منه بـ(العرب المستعربة)[1]، وبناءً عليه: فالنبي الخاتم في أصله البعيد ليس عربياً.



(١) انظر: الموسوعة العربية، ج١٣ ص٨٧ ـ ٨٩، لفظ (العرب).



المبحث الثالث

موجز سيرة خاتم النبيين (محمد) ﷺ

ونحاول أن نُوجِزَ سيرته العطرة من خلال الحوادث البارزة والمواقف المهمة، في المطالب الواحد والعشرين الآتية، وسنشير إلى الآيات المباركة التي لها ارتباط بتلك الحوادث والمواقف، التي تعتبر معالم أساسية وبارزة، في السّيرة النَّبوية[1]، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والبركات والتحيّة.

وهذه هي عناوين تلك الحوادث والمواقف:

١ ـ مولده وحياته قبل النبوَّة.

٢ ـ بداية الوحي والنّبوّة والرسالة.

٣ ـ الدعوة السِّرِّية.

٤ ـ الدعوة العَلَنيَّة وبَدْءُ المعاناة والإِضطهاد، وهجرة بعض الصَّحابة إلى الحبشة.

٥ ـ إسلام حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، وخروج المسلمين في مظاهرة سلمية عزيزة.

---

(١) ملاحظة: إعتمدت في النقول التي أقْتَبِسُها في هذا الموضوع كله، على: (السيرة النبويّة) لابن هشام، و(صحيح البخاري) و(صحيح مسلم). وقد أستفيدُ جزئياً من بعض المصادر الأخرى، والتي سَأُشير إليها عند اقتباس شيءٍ منها.

٦ ـ بَدْءُ قريش بالمفاوضات مع رسول الله ﷺ.

٧ ـ المقاطعة العامة طيلة ثلاث سنوات، ثم نقضُ الميثاق الظالم وفَكُّ الحصار.

٨ ـ عام الحزن: وفاة كل من أبي طالب، وخديجة الكبرى رضي الله عنها.

٩ ـ السَّعي للخروج بالدعوة من جوِّ مكة الخانِق، وعرض الإسلام على القبائل، والذَّهاب للطائف والرجوع مكسور الخاطر.

١٠ ـ الإسراء إلى المسجد الأقصى، والعروج إلى السَموات العُلى.

١١ ـ أخذ البيعة من مُمثِّلي الأوس والخزرجْ، تمهيداً للهجرة وتأسيس الدَّولة الإسلامية.

١٢ ـ الهجرة إلى يثرب، والشروع ببناء الدولة الإسلامية بـ: بناءِ المسجد، والتآخي بين المهاجرين والأنصار، وكتابة (الوثيقة) والتحالف مع اليهود.

١٣ ـ الإِذن بالقتال، ثم إيجابه دفاعاً عن الكيان الإسلامي، وتمهيداً لطريق الدعوة، بإزالة العقبات.

١٤ ـ إِخراجُ القبائل اليهودية الثلاث من المدينة: بني قينقاع، وبني النَّضير، وبني قريظة، بعد الخيانة ونقض العهد.

١٥ ـ صلح الحديبية (الفتح المبين)، وفتح حصون خيبر.

١٦ ـ مكاتبة رؤساء الدول والملوك، ودعوتهم إلى الإسلام.

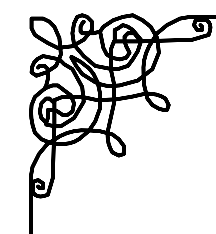
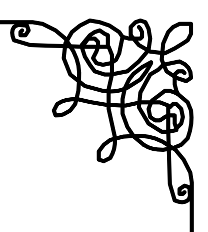
١٧ ـ فتح مكة وغَزْوة حنين، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

١٨ ـ خروج الرسول ﷺ إلى (تبوك) لمواجهة الروم، ونكوص الروم.

١٩ ـ إعلان منع المشركين من المسجد الحرام، وحَجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنّاس.

٢٠ ـ حجَّة الوِداع وإِكمال الدِّين.

٢١ ـ الوفاة والإِلتحاق بالرفيق الأعلى.

١ ـ مولده وحياته ﷺ قبل النّبوّة

ولِدَ رسولُ الله وخاتم النبيين (محمد بن عبدالله بن عبد المطلب) ﷺ بـ(شِعَبِ بني هاشم) بـ(مكة) في صبيحة يوم الإثنين (١٢ ربيع الأول) لأول عام من حادثة الفيل، التي تتحدّث عنها سورة (الفيل):

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

ويوافق ذلك (٢٠ أو٢٢/إبريل/٥٧١م).

ولما وَلَدَتْهُ أمُّهُ (آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب) أَرسلَتْ إلى جَدِّه عبد المطلب تُبشِّره بحفيده، فجاء مُسْتَبْشِراً ودخل به الكعبَةَ، ودعا الله وشكر له، واختار له اسم (محمَّد) وهذا الإسم لم يكن معروفاً في العرب، وخَتَنَهُ يوم سابِعهِ كعادة العرب[١].

والتمس له عبد المُطَّلِبُ المراضِعَ، فكان ﷺ من نصيبِ (حليمة بنت أبي ذؤيب عبدالله بن الحارث) وزوجها: (الحارث بن عبد العُزّى المكنَّى بأبي كبشة)، وكلاهما من قبيلة (بني سعد بن بكر).

وقد أَصاب حليمة السّعدية وزوجها خيْرٌ كثيرٌ ببركته ﷺ، كما روت

(١) (الرحيق المختوم) ص:٦١، وكذلك ابن هشام يقول: وُلِدَ رسولُ الله ﷺ يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خَلَتْ من شهر ربيع الأول، عام الفيل، (السيرة)، ج١، ص١٦٧.

عنها كتب السّيرة ذلك بالتفصيل[١].

وفي السنّة الرابعة من عمره وقع له حادث (شَقّ الصَّدْر) وبهذا الصّدد روى (مسلم) عن (أنس) رضي الله عنه:

(أن رسول الله أتاه جبريلُ وهو يلعب مع الغِلْمان، فأخذه فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عن قَلْبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غَسَلَهُ في طست من ذهبٍ بماءِ زَمْزَم ثم لأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاءَ الغلمان يسعون إلى أمِّه (يعني ظئره) فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللّون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره)[٢].

وخشيت عليه حليمةُ فردَّته إلى أمِّه، فكان عندها إلى أن بَلَغ ست سنين.

وفي تلك الآونة ذهبت (آمنة) لتزور قبر زوجها (عبدالله) الذي مات بـ(يثرب)، قبل أن يولد ابنه (محمَّد) ﷺ، وفي العودة مَرِضَتْ هي أيضاً وماتت بـ(أَبْواء) بين (مكة) و(يثرب)، فرجع به جدّه عبد المطلب الذي كان مع (آمنة) في سفرها، إلى مكة[٣].

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ، تُوُفِّي جَدُّه عبد المطلب بِمكّة، وعهد بكفالته إلى عمِّه (أبي طالب)[٤].

وفي السنة العشرين من عمره وقعت في سوق (عكاظ) حَرْبٌ بين (قريش) ومعهم (كِنانة)، وبين (قَيْس عَيْلان) تعرف بحرب الفجار، وسُمِّيت بذلك لانتهاك حُرْمَة الشهر الحرام فيها، وقد حضر رسولُ الله ﷺ هذه الحرب وكان يجهِّز النَّبْلَ لأعمامِهِ، حيث قال بِهذا الصّدد: (كنتُ أُنَبِّلُ على أعمامي)[٥].

---

(١) (سيرة ابن هشام)، ج١، (١٦٨، ١٦٩)، و(تاريخ الطبري)، ج٢، ص(١٥٦، ١٥٧).
(٢) (صحيح مسلم) كتاب الإيمان، باب الإسراء رقم: ٢٦١.
(٣) (سيرة ابن هشام)، ج١، ص(١٦٩ ـ ١٧٣)، و(الطبري)، ج٢، ص(١٥٨، ١٥٩).
(٤) (سيرة ابن هشام)، ج١، ص:١٧٧.
(٥) (سيرة ابن هشام)، ج١، ص: ١٧٨.

وعلى أثر هذه الحرب وقع (حِلْف الفضول) الذي تداعت إليه قبائل (قريش): بنو هاشم، بنو المطلب، أسد بن عبد العُزّى، زهرة بن كلاب، تَيْم ابن مُرة، فاجتمعوا في دار (عبدالله بن جُدْعان) التَّيمي، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألّا يجدوا بمكة مظلوماً، سواء كان من أهلها أو من سائر الناس، إلّا قاموا معه، حتى تُرَدَّ عليه مَظْلَمتُهُ، وقد شهِدَ ﷺ هذا الحِلْفَ، وقال عنه بعد النبوّة: **(لقد شهدتُ في دار عبدالله بن جُدْعان حِلْفاً، ما أُحِبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبتُ)**[1].

وفي الخامسة والعشرين من سِنِّه خَرَجَ تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها، مع غلام لها اسمه (مَيْسَرة)، وبعد رجوعه من سفر الشام بنجاحٍ باهرٍ، تزوَّج (خديجة بنت خويلد) رضي الله عنها بعد اقتراح منها له وقبولِهِ، وكانتْ يومئذٍ أفضل نساءٍ قومها نَسَباً وعقلاً وثروة[2].

وكل أولاده ﷺ منها سوى (إبراهيم)، إذْ هو من (مارية) المصرية، وأولاده منها، هم:

(قاسم) وكان به يُكنَّى، ثم (زينب) و(رقية) و(أم كلثوم) و(فاطمة) و(عبدالله)، وكان عبدالله يلقب بالطيِّب والطاهر، ومات بنوه كلهم صِغاراً، أما البنات فكلّهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن، وتوفيَّنَ في حياته سوى (فاطمة) التي توفيت بعده بستة أشهر، رضي الله عنهن جميعاً[3].

وكان في عامه الخامسة والثلاثين من عمره عندما قامت قريش بتجديد بناءِ الكعبة، ولكن لما بلغ البنيانُ موضِعَ الحَجَرِ الأسود، اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، حتى كاد أن ينشب بينهم قتال في ذلك، ثم اتفقوا بينهم على أن يُحَكِّموا فيما بينهم أوَّلَ داخلٍ عليهم من باب المسجد، وكان ذلك من نصيبه ﷺ، فلمّا رأوه هتفوا هذا الأمين رضيناه، فلمّا أخبروه الخَبَرَ

(١) (سيرة ابن هشام)، ج١، ص(١٩٥،١٩٨).
(٢) (سيرة بن هشام)، ج١، ص(١٤١،١٤٢).
(٣) (سيرة ابن هشام)، ج١، ص(١٩٨، ٢٠١).

بَسَط ثَوْباً، ووضَعَ الحَجَر الأسودَ فيه، ثم طلب من رؤساء القبائل المتنازعين أَنْ يُمْسِكوا بأطراف الرداء ويرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذ الحجر بيده ووضعه في مكانه، ورضي الجميع بهذا الحَلِّ الحكيم[1].

وكان صلوات الله وسلامه عليه قبل نبوَّته متحلياً بالفضائل النفسيَّة والأخلاق الحسنة، التي تقتضيها فطرته السليمة ومعدنه النَّقِيُّ، وكان يبغض الأصنام بُغْضاً شديداً ويتجنَّبُها كلياً، وكذلك كان مجانباً لكل ما كان عليه الناس من السوءِ من كل النواحي.

وكان يزاول العَمَلَ والكَسْبَ كي لا يكون عِبْئاً على غيره، إذ كان بالإضافة إلى التجارة، يقوم برعي الغَنَم، كما جاء في (صحيح البخاري) أنه قال: **(ما بعث الله نبياً إلّا رَعى الغَنَمَ، فقال أصحابه: وأنت؟! فقال نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكَة)**[2] ويبدو أن هذا كان قبل قيامه بالتجارة، أي في سن المراهقة وبعدها.

وقد حكى عن نفسه أنه لم يهمّ بِفعل ما كان عليه الناس، من أمور الجاهلية سوى مَرَّتين، حيث طلب من الغلام الذي كان يرعى معه الغنم بأعلى مكة، أن يرعى له غَنَمَهُ كي يذهب إلى مكه، ويَسْمُرَ كما يسمر الشباب، ولكن عندما وصل إلى أول بيتٍ وسمع عَزْفاً، وسأل ما هذا؟! وأجيب بأنه عِرْسُ فلانٍ بفلانة، ضرب الله النوم عليه، ولم يستيقظْ إلّا بحرِّ الشمس! حدث له ذلك في ليلتين، ويقول: **(فما هَمَمْتُ بعدهما بِسوء)**[3].

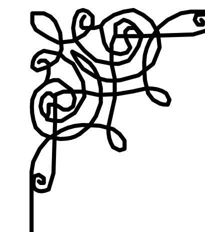
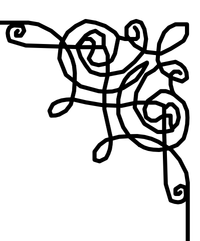
وبثلاث سنين قبل النبوَّة حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، فكان يتزوَّدُ من بيته ويذهب إلى (غارِ حِراء) ويُمضي شهراً كاملاً هناك وهو شهر رمضان، وذلك للتعبُّد والتأمّل.

---

(١) (ابن هشام)، ج١، ص٢٠٠.

(٢) (سيرة ابن هشام)، ج١، ص(٢٠٩، ٢١٠)، و(فتح الباري)، ج٢، ص: ١٠٥.

(٣) رواه الطبراني وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حِبّان في صحيحه والبَزّار في مُسْنَدِهِ والبيهقي في (دلائل النبوَّة).

٢ ـ بداية الوحي والنّبوّة والرسالة

بعد أن أكمل ﷺ أربعين سنة قمرية، جاءه جبريل، وهو في (غار حِراء) في ليلة الإِثنين (٢١ رمضان) الموافق لـ(١٠/أغسطس/٦١٠م) وكان قبل ذلك لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فَلَقِ الصبح[١]:

ولنستمع إلى (عائشة) رضي الله عنها، كيف تحكي لنا ذلك الحدث العظيم (بداية الوحي):

قالت[٢]:

«أول ما بديء به رسول الله من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث ـ وهو التعبد ـ فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: إقرأ، قال: ما أنا بقاريء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ، قلت: ما أنا بقاريء، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ

---

(١) (صحيح البخاري): ٢٢٦٢.

(٢) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج١، ص٢٤٩، و(صحيح البخاري) كتاب بدء الوحي: ٣.

﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق]، فرجع بها رسولُ الله ﷺ يَرجُفُ فؤادُهُ، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال زَمِّلوني زَمِّلوني، فَزَمَّلوهُ حتى ذَهَب عَنْهُ الرَّوْعُ، فقال لِخَديجة ما لي؟ فأخبرها الخَبَرَ: (لقد خشيتُ على نفسي) فقالت خديجة: كلّا والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المُعْدوم، وتُقْري الضَّيف، وتُعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أَتَتْ به (ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى)، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانيَّ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمعْ من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسولُ الله ﷺ خَبَرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حيّاً إذْ يخرِجُكَ قومُك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجيَّ هُمْ؟!» قال: نعم، لم يأت رجلٌ قَطُّ بمثل ما جئت به إلّا عُودي، وإنْ يُدْرِكْني يومَك، أنصرك نَصْراً مؤزّراً، ثم لم ينشَبْ ورقة أَن توفّي وفَتَرَ الوحيُ»[1].

فترة الوحي وحُزْنُهُ ﷺ:

قال (البخاري) عن فترة الوحي:

(وفَتَر الوحيُ فترةً حَزِن النبيُّ ﷺ فيما بَلَغَنا حُزْناً غَدا مِنْهُ مِراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلّما أوفى بِذروة جبلٍ لكي يُلْقي منه نَفْسَه، تبدَّى له جبريلُ، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جَأْشُه وتَقِرُّ نَفْسُه، فَيَرْجِعُ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جَبلٍ، تبدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك)[2].

---

(١) كما رواه عنها البخاري ومسلم، (صحيح البخاري): ٣، و(صحيح مسلم): ٢٥٢.

(٢) (صحيح البخاري): ٦٩٨٢ .**ملاحظة**: لكني الآن: ٥ رجب ١٤٣٦هـ ٢٠١٥/٤/٢٤م، أرى أن هذا الخبر غير صحيح، ولا يمكن أن يفكر رسول الله الأعظم بالانتحار! هذا مُسْتَبْعَدٌ جداً، وتكذيب هذا الخبر أولىٰ من اتهام النبي بأنه كان قد فَكَّرَ في الإنتحار!

وعلَّل (ابن حجر العسقلاني) فترة الوحي قائلاً:

«وكان ذلك أياماً ليذهب ما كان وجده من الرَّوع وليحصل له التَشَوّفُ إلى العَوْد»[1].

وقد تحدَّث علماء السّيرة عن مدة فترة الوحي بين مُقَلِّلٍ ومُكَثِّرٍ، ولكن الصحيح كما قاله (ابن حجر) هو أنّها كانت أياماً فقط، وإذا دقَّقنا النظر وجمعنا وقارنّا بين الأحاديث في هذا المجال، تبيَّن لنا بما لا يَدَعُ مجالاً للشك، أن مدة انقطاع أو انحباس الوحي عن رسول الله ﷺ في بداية أمره وبعد أن أنبأَهُ الله تعالى بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ...﴾ كانت بالضبط عشرة أيّام من الحادي والعشرين إلى تمام شهر رمضان، وهذا هو التوضيح:

١) كما قلنا في السابق كان ﷺ من ثلاث سنوات قبل النبوّة يَخْلو في (غار حِراء) شهراً وهو شهر رمضان، وكان ينزل من الغار ويُنْهي خَلْوَتَهُ بعد تمام الشهر في (١ شوال).

٢) وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم، أنَّ جبريل عاد إليه ثانية ـ أي بعد الفترة ـ بعد أن أكمل خلوته، ونزل من الجبل، كما قال ﷺ:

«جاورتُ بِحِراء شهراً، فلمّا قضيتُ جواري هَبَطْتُ (فلما استبطنت الوادي) فنوديتُ فنظرتُ عن يميني فلم أرَ شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خَلْفي فلم أرَ شيئاً، فَرَفَعْتُ رأسي فرأيتُ شيئاً، فإذا المَلَكُ الذي جاءَني بحراء جالِسٌ على كُرسيٍّ بين السماءِ والأرض، فَجُئِثْتُ منه رُعْباً حتى هَوَيتُ إلى الأرض، فأتيتُ خديجة فَقُلْتُ: دَثِّروني وصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً، قال: فَدَثَّروني وصَبُّوا عليَّ ماءً بارداً، فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾﴾ [المدثر]، وذلك قبل أنْ تُفْرَض الصلاة ثم حمي الوحي وتتابع» متفق عليه[2].

---

(١) (فتح الباري)، ج١، ص٢٧.

(٢) (صحيح البخاري): (٤٩٢٢ و٤٩٢٣ و٤٩٢٤ و٤٩٢٥)، و(صحيح مسلم): ٢٥٧.

٣) وأما دليل كون نزول الوحي بدأ في (٢١ رمضان)، فهو:

أن (أبا قتادة) ﷺ روى أنه سُئِل رسول الله ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال: **(ذاك يومٌ وُلِدْتُ فيه ويومٌ بُعِثْتُ (أو أُنْزِلَ عليَّ فيه)** رواه مسلم[١] وأحمد والبيهقي والحاكم.

ويوم الإثنين في رمضان تلك السنة لا يوافق إلّا:

(٧، ١٧، ٢١، ٢٨)[٢]، وقد دلَّت الروايات الصّحيحة عن رسول الله ﷺ على أنَّ (ليلة القدر) إنما تكون في وَتْرٍ من اللّيالي العشر الأواخر من رمضان، حيث قال: (إنِّي أُريت ليلة القَدْر وإني نَسيتُها (أو أُنسيتُهُ) فالتَمِسوها في العَشْر الأَواخر من كلِّ وِتْرٍ...) متفق عليه[٣] فإذا قارنّا بين:

أ - قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر].

ب - وبين حديث: (ذاك يومٌ ولدت فيه، ويومٌ بُعثت) - أي في الإثنين -.

ج - وبين حساب التقويم الفلكي في وقوع أيام الإثنين من رمضان تلك السنة.

تعيَّن لنا أَنَّ نزولُ الوحي وبَدْءَهُ، كان في ليلة (٢١ رمضان).

وهنا يمكننا القول:

أن النبي الخاتم ﷺ وسيِّد ولد آدم، قد نُبِّيءَ بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]، ثم فتر عنه الوحي مدة عَشْرَةِ أيام، وبعد ذلك أرسل - أي أُعْطِيَ الرسالة بعد النبوة -، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر].

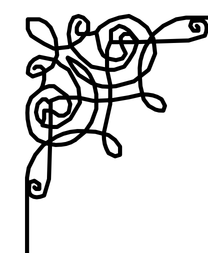
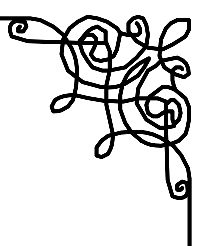
إذن: كان الفاصِلُ الزمَنِيُّ بين نبوَّتِهِ ورسالته، مدة عشرة أيام فقط.

---

(١) صحيح مسلم: ١١٦٢.

(٢) (الرحيق المختوم)، ص: ٧٥.

(٣) صحيح البخاري: ٢٠١٦، وصحيح مسلم: ١١٦٧ (٢١٦)، عن أبي سعيد الخدري.

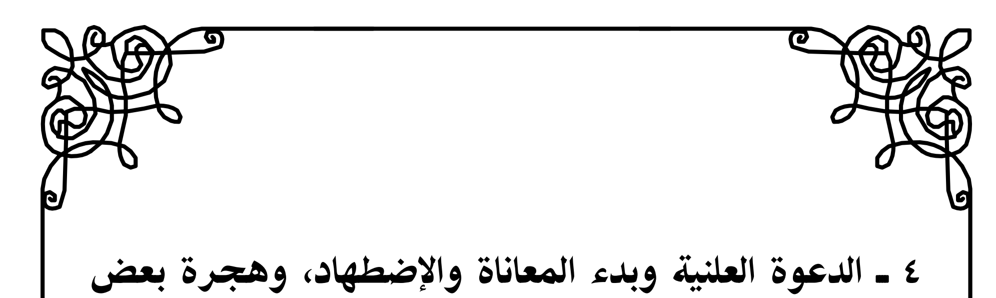
٣ ـ الدّعوة السِرِّية

وقد دعا رسولُ الله ﷺ الناسَ إلى توحيد الله ودينه الحق، مدة ثلاث سنوات سِرّاً[١]، أي لم يجهر بالدعوة في المجالس العامة، وفي هذه الفترة فاتَحَ مُقَرَّبيه ومَن يثق بهم، وفي مقدِّمتهم: زوجَتَهُ الوفية (خديجة) رضي الله عنها[٢]، وصديقه الحميم (أبا بكر الصديق) رضي الله عنه[٣]، وربيبه وابن عمِّه (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه، وكان صبياً في العاشرة من عمره حينذاك[٤]، ومُتبنّاه (زيد بن حارثة) رضي الله عنه[٥]، فهؤلاء الأربعة هم أوَّل مَنْ أسلم، وكوَّنوا مع رسول الله الأعظم ﷺ أول خليةٍ تنظيمية، والتي سرعان ما تكاثرت لتكوِّن فيما بعد نواة الجماعة الإسلامية الأولى، ثم المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، بقيادة رسول الله ﷺ المباركة الرشيدة، وتدبيره الحكيم المؤيَّد بالوحي وتوجيهاته السّديدة.

ومِمَّن أسلم مبكِّراً وفي فترة الدعوة السرِّية، كان كل من:

عثمان بن عفّان، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمٰن بن عوف، والزبير بن عوّام، وطلحة بن عبدالله، وذلك بعد أن كلَّمهم أبو بكر رضي الله عنهم جميعاً، وأتى بهم إلى رسول الله ﷺ[٦].

(١) (السيرة النَّبوية)، لابن هشام، ج١، ص٢٨٠.
(٢) المصدر السابق ج١، ص٢٥٧.
(٣) المصدر السابق ج١، ص٢٦٦.
(٤) المصدر السابق ج١، ص٢٦٢.
(٥) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٤.
(٦) المصدر السابق، ج١، ص٢٦٧، ٢٦٩.



٤ ـ الدعوة العلنية وبدء المعاناة والإضطهاد، وهجرة بعض الصحابة إلى الحبشة

وفي السنة الرابعة[١] من البعثة، أعلنَ رسولُ الله ﷺ دعوته المباركة وجَهَرَ بها، بدءاً بأَقاربه تنفيذاً لأمر الله:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء].

فجمع أقاربه، وبلَّغهم دينَ الله تعالى بوضوح وأنذرهم من مغبَّة الكفر، وبشّرهم بعاقبة الإيمان الحميدة.

وحينذاك آلى أبو لهب (عَمُّهُ) على نفسه أن يُعاديَهُ أبداً، ولكن قرّر عَمُّه الآخَرُ (أبو طالب) أن يَحْمِيَهُ ويدافِعَ عنه، بالرغم من عدم إيمانه به.

روى البخاريُّ أنه لما أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٨٠.

صَعِدَ رسول الله ﷺ على الصّفا ـ وهو جبل صغير قرب البيت ـ يوماً، ودعا قبائل قريش وبطونها كُلَّها، ثم لما اجتمعوا إليه وسألوه الخبر، قال: **أَرأيتكم لو أخبرتكم أَن خَيْلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدّقيَّ؟** قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلاَّ صدقاً، قال: **(فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد)**، فقال له عمّه (أبو لهب) عند ذاك: (تبّاً لك سائر اليوم، ألِهذا جمعتنا)[1]، وكان (أبو لهب) يتبعه في المجالس والمحافل والمناسبات التي يدعو فيها رسولُ الله إلى الله، فيردُّ عليه ويكذّبه، ويقول للناس: لا تُصدِّقوه، وكذلك كانت زوجته تؤذيه أشدَّ الأذى، فأنزل الله تعالى ردّاً على (أبي لهب) وتوبيخاً له ولِزَوجته:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد]. (رواه البخاري: ٤٩٧١).

وبعد الجهر بالدعوة ازداد عَدَدُ المؤمنين، وخاصة من الأرقاء والفقراء ـ رجالاً ونساءً ـ وكذلك بدأ المشركون بإيذاءِ رسول الله ﷺ نفسياً وجسدياً، واضطهاد المؤمنين والمؤمنات وتعذيبهم ليفتنوهم عن الدين الحق[2].

ومن الذين اشتهروا بتعذيب المشركين إياهم:

عثمان بن عفّان، ومصعب بن عُمَير، وبلال الحبشي، وياسر وزوجته سُمَيّة، واللّذين قُتِلا تحت التعذيب، وابنهما عمّار، وخبّاب بن الأرت، وأبو

(١) أنظر (صحيح البخاري) رقم (٤٧٧٠ و٤٧٧١). وقد أورد النّيسابوري في (أسباب النزول) ص٢٦٨، هذه القصة في سبب نزول سورة (تبَّتْ)، بسنده إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ذات يوم (الصفا) فقال: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش فقالوا ما لك؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدوَّ مُصَبِّحُكُم أو مُمَسِّيكم أما كنتم تُصَدِّقون؟ قالوا: بلى، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد) فقال له أبو لهب: تبّاً لك لهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١...﴾ إلى آخر السورة». .

(٢) (السيرة النبوية)، لإبن هشام، ج١، ص٢٨٧.

فكيهة (أفلح)، وزِنيرة، وأم عُبَيْس، والنهدية وابنتها، وعامر بن فُهَيرة.

وكذلك أوذي أذىً شديداً: أبو بكر الصديق[1]، وعبد الله بن مسعود[2]، وبلال الحبشي[3] رضي الله عنهم جميعاً.

وقد أعْتق أبو بكر ﷺ كلاً من: بلال، وعامر بن فهيرة، وأم عُبَيْس، وزنيرة، والنَّهدية وابنتها، وجارية بني مؤمَّل، بعد أن اشتراهم من أصحابهم، إنجاءً لهم من التعذيب[4].

وأما رسول الله ﷺ وإن كان لم يبلغ أذى المشركين له حَدَّ التعذيب الجسدي بمعناه المعروف، ولكنه كان يتعرَّض للإهانات التي كانت أشدَّ عليه من الأذى الجسدي، كاتِّهامهم له بالسِّحر والكهانة والشعر والجنون والكذب، كما قال تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء].

وبالإضافة إلى هذا، فقد وضعوا على ظهره وهو ساجدٌ سَلا الجزور (أي أحشاء الحيوان وأوساخه التي في بطنه بعد ذبحه) مرة أو أكثر[5]، وكذلك خَنَقُوه بِثَوْبِهِ[6]، وحاول أبو جهل أن يقتله برضِّ رأسه بصخرة عظيمة عند سجوده، ولكن حيل بينه وبين ذلك، وحَفِظَ الله تعالى نَبِيَّه[7].

(١) المصدر السابق، ج١، ص٣١٠.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص٣٣٦.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص٣٣٩، ٣٤٠.
(٤) المصدر السابق، ج١، ص٣٤٠، ٣٤١.
(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٥٧، و(صحيح مسلم) رقم: ١٧٩٤.
(٦) المصدر السابق، ج١، ص٣١٠.
(٧) المصدر السابق، ج١، ص٣١٠.

وفي هذا الجوّ الخانق أَذِنَ رسولُ الله ﷺ لبعض الصحابة بالهجرة إلى الحبشة، قائِلاً لهم ومُشَجِّعاً إياهم: **(لو خرجتم إلى أرض الحَبَشة فإن بها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهي أرض صدقٍ. حتى يجعل الله لكم فَرَجاً مما أنتم فيه)**[1] فهاجروا إليها مرتين: الأولى في رجب سنة (٥) من البعثة، وكان عددهم (١٢) رجلاً و(٤) امرأة، والهجرة الثانية كان عدد المهاجرين (٨٣) رجلاً و(١٨) أو (١٩) امرأة.

وقد أرسلت قريشٌ وفداً إلى النَّجَاشي لإرجاع المهاجرين مع هدايا ثمينة، ولكنهم فَشِلوا في مسعاهم ذلك، بعد أن شرح (جعفر ابن أبي طالب) رضي الله عنه، مُمَثِّلُ المسلمين المهاجرين، الوضْعَ للنجاشي وقَرأَ عليه القرآن، فبكى هو ومن حوله من القسيسين والرهبان، مُتأثِّرين بكلام الله المبارك، ومطابقته لما عندهم من بقايا كتبهم[2].

ويبدو أن سورة (العنكبوت) من السور التي نزلت في تلك الفترة الحالكة، حيث تبدأ بهذه الآيات التي تُشَجِّعُ المسلمين على الصّبر والثبات في المحن والشدائد:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ...﴾ [العنكبوت].

---

(١) المصدر السابق، ج١ ص١٦٢، ط١، دار ابن الهيثم ١٤٢٧هـ.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٣١٩، ٣٢٠.

ثم يشيرُ فيها سبحانه بإيجاز إلى قصة (نوح) عليه السلام، مع قومه الكفار وصبره الطويل المُرِّ معهم، ثم بالنتيجة مجيء الفَرَج والنجاة، وهلاك الكفار، كما يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت].

ثم يشير سبحانه باختصار إلى قصة (إبراهيم) عليه السلام، مع قومه المشركين، وكيف أنكر عليهم الشِّركَ وعبادَةَ الأوثان، ومن جرّاء ذلك أوقدوا له النّار وأَلْقَوْهُ فيها، ولكنَّ الله تعالى بَرَّد عليه النارَ وأنجاه منها، ثم رزقه الذرية الصالحة والأجر الدنيوي، علاوةً على أجره الأخروي، كما قال تعالى:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ... ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾... ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت].

ثم يشيرُ إلى قصة (لوط) عليه السلام، مع قومه الأشرار المفسدين، وكيف أَنَّ الله تعالى نجّاه هو وأهله المؤمنين، ثم دمَّر قومه الكافرين وجعلهم عبرة للمعتبرين، (الآيات: ٢٨ إلى ٣٥).

ثم يشير إشارةً عابرةً إلى مصائر كل من: (مدين) و(عاد) و(ثمود) الذين أَرسل إليهم رُسُلَه: (شعيب وهود وصالح) عليهم السلام، وكذلك المصير المشؤوم للثالُوث النّجس (قارون وفرعون وهامان)، الذين استكبروا على موسى عليه السلام وآياته البيِّنات، فكان مصيرُهم الهَلاك والبوار، الآيات: (٣٦ إلى ٤٠).

وقُبيل نهاية السورة يُخاطب الله تعالى أهل الإيمان ويشجِّعهم على

الهجرة، مُزيْحاً من أمام أعينهم الموانعَ التي تُثَبِّطُهم عنها، وذلك بعد أن ذكر سابقاً هجرة كل من: (إبراهيم ولوط) عليهما السلام:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت].

وبعد أن يبيِّن لهم سبحانه تَفاهَةَ الحياة الدنيا، وعَظَمَة الحياة الطيِّبة الأخروية:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت].

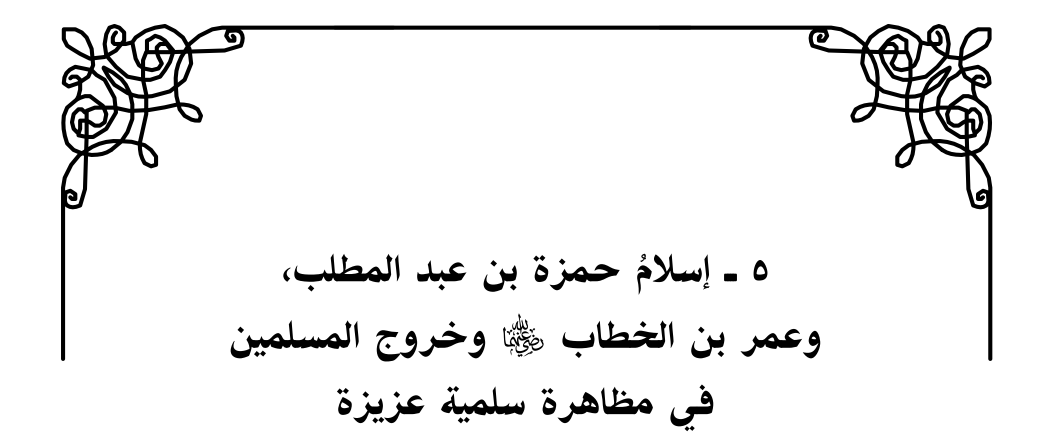
يختم السورة المباركة بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

وبعد تأَمُّل هذه السورة المباركة التي هي مثال للسور المكية الكثيرة، نُدرِك المنهجَ الذي كان رسولُ الله ﷺ يُربِّي عليه الثُّلَّة المؤمنة الممتازة الأولى، وكيف كان يفتح أبصارَهم على أسرار الخلق، وحِكَم التاريخ وعِبَرِه، وبصائِرَهم على حقائق توحيد الله والإيمان به، وما يُثْمِرُه من الشجاعة والصبر والثبات والتوكل والزهد في الدنيا وإيثار الآخرة... كل هذا بنور كتاب الله المبين الحكيم!

وكذلك نُدْرِكُ سِرَّ كل ذلك الصَّبْر والثبات والبطولة والتضحية التي تَحلَّتْ بها تلك الجماعة المؤمنة الأولى، والتي أصبحت فيما بعد نَواةَ المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



٥ ـ إسلامُ حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وخروج المسلمين في مظاهرة سلمية عزيزة

وفي ذلك الجَوِّ القاتم المتلبِّد بالغيوم، وفي ذلك اللَّيل الحالك، بَرِق بَرْقان، أحدُهما تِلْوَ الآخر، إذْ أسلم كلٌّ من: (حمزة بن عبد المطلب) عمّ رسول الله رضي الله عنه، وذلك في شهر ذي الحجة سنة (٦) من البعثة، ثم بعده بثلاثة أيامٍ أسلم (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، وكان لإسلامهما دَوِيٌّ قوي، وسَطَ المجتمع المكي المشرك آنذاك، لما لكلٍ منهما من مكانة وهيبةٍ وصَوْلَة، ولكيفية إسلام كل منهما قصة طريفة نشيرٍ إليهما باختصار:

١) إسلام حمزة سيّد الشهداء رضي الله عنه[1]:

وخلاصة قصّته أن حمزة كان في الصَّيْد، وكان في ذلك اليوم الذي رجع حمزة مساءً مِنْ صيده، قام عدو الله (عمرو بن هشام) المُكَنَّى بـ(أبي الحكم) والذي غيَّر رسولُ الله ﷺ كنيته إلى (أبي جهل)، أجل قام عدو الله هذا بإيذاء رسول الله، وَوَضْعِ تراب أو وساخةٍ على رأسه الشريف، وهو ساجد، ولم يرفَعْ رأسه حتى جاءت (فاطمة) رضي الله عنها وأَلْقَتْها عنه، ولما رجع حمزة وأُخْبِرَ بِما جرى لابن أخيه، أخَذَتْه الحميَّةُ، واشتدَّ غَضَبُهُ، وذهب لتوِّه لدار الندوة، ووقف على رأس أبي جهل وضربه بقوسه، وشَجَّ رأْسَه

(١) المصدر السابق، ج١، ص٣٥٦ إلى ٣٦٢.

شجةً منكرةً سال منه الدم، وقال: كيف تؤذي ابن أخي وأنا على دينه؟!
وأعلن إِسلامَه هناك.

٢) **إسلام عمر بن الخطاب (الفاروق)** ﷺ:

وخلاصة قصة إسلام (عمر) ﷺ، هي:

أنه ذهب يوماً متوشِّحاً سَيْفَهُ ناوياً قَتْلَ رسول الله ﷺ فلقيه بعضُ المسلمين المسرِّين بإسلامهم، وعرف في وجه (عمر) الشرّ، ثم لما سأله وبيَّن له عمر ﷺ قَصْدَه، أراد ذلك المسلمُ دَفْعَ الشرِّ عن رسول الله ﷺ وإشغالَ عمر بشيء آخر، فقال له:

كان الأولى بك أن تعالج مشكلةً أخرى، وهي: أنَّ ختنك (صهرك) زيداً وأختك فاطمة، قد أسلما!

وما أن سمع بذلك الخَبَر، إلّا وتوجّه من فَوْره لبيت (زيد) ﷺ وكان مع زوجته فاطمة ﷺ يتدارسان القرآن على يَدِ (خبّاب بن الأرت) ﷺ، ولما اقترب من البيت اختفى (خبّاب) وبقي زيدٌ وفاطمة، فقال لهما: ما هذه الهَمْهَمة التي سمعتها منكما، أَلَعَلَّكما صبوتما؟ وأنكرا ذلك خوفاً من بَطْشه، وقالا: كان حديثنا حديثاً عادياً، وهناك قام عمر وضرب زيداً، وقامت أخته تَحْجِزُهُ عنه، فضربها هي أيضاً حتى أدماهما، فقالا لَهُ عند ذلك: نعم يا عمر قد أسلمنا، أولو كان الحق في غير دينك؟!

ولما نظر عمر إلى ختنه وأخته ودِمائهما تسيلُ، وهما مع ضعفهما أمام قوته وبطشه، يتحدَّيانه بإيمانهما، رَقَّ لَهُما قَلْبُه، وبدأ بمراجعة موقفه، وقال لِأُخته: ناوليني ما كنتما تقرآنه حتى أنظرَ فيه، ولكن رَفَضَتْ إعطاءَهُ إياه، وقالت: إنك امرؤ نجِسٌ ولا أعطيك إلّا بعد أن تغتسل وتتطهر، فاغتسل ثم أخذ المكتوب، فإذا فيه بداية سورة (طه):

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه].

ولما قرأه عمر قال:

ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! دُلُّوني على محمَّدٍ، فلما سَمِعَ (خَبّاب) قولَ عمر، خرج من البيت فقال: أبشِرْ يا عُمَر، فإنِّي أرجو أن تكون دعوةَ رسولِ الله لك ليلة الخميس: «**اللّهم أعزَّ الإسلامَ بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام**» ورسول الله في الدار التي في أصل الصَّفا، فذهب عمر ﷺ هناك، وأسلم وشهد شهادَةَ الحق[1].

هذا وقد أخرج الترمذي عن ابن عمر ﵄ وصحَّحه الطبراني عن عبد الله بن مسعود وأنس ﵄ دعاءَ الرسول: (**اللّهمَّ أَعزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام**).

وهكذا أحدث إسلامُ هذين البطلين (حمزة وعمر) ﵄، مُنْعطفاً في حركة الإسلام وسير الدعوة الربانية المباركة، ويقول أحد الصّحابة بهذا الصدد ﵃ أجمعين، وهو (عبدالله بن مسعود)[2]:

«**إن إسلامَ عُمَرَ كان فَتْحاً، وانَّ هجرتَهُ كانت نَصْراً، وانَّ إمارتَهُ كانت**

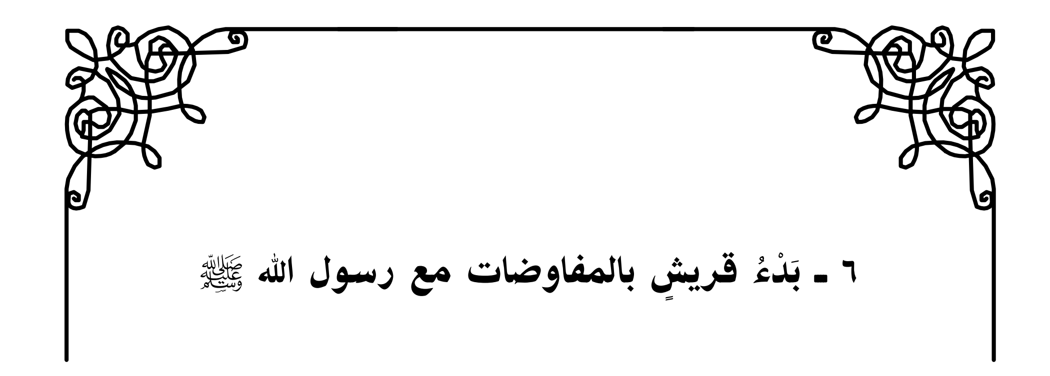
(١) المصدر السابق، ج١، ص٣١١، ٣١٢.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٣٦٦ إلى ٣٧٥، و(تاريخ عمر بن الخطاب) لابن الجوزي ص: ١٠٧ إلى ١١٠.

رحمة، ولقد كُنّا ما نُصَلِّي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسْلَم، قاتَلَ قُرَيْشاً حتّى صلَّى عند الكعبة وصَلَّينا معه».

وقد راجع مشركوا مكة أنفسَهُم ومواقِفَهم، بعد إسلام سيِّد الشهداء والفاروق ﷺ بَعْضَ الشيء، بدليل أنهم بعد ذلك بدأوا بفتح صفحة جديدة في تعاملهم مع رسول الله ﷺ وهي صفحة المفاوضات!





٦ ـ بَدْءُ قريشٍ بالمفاوضات مع رسول الله ﷺ

وكانت مفاوضات المشركين مع رسول الله ﷺ تَسْتَهْدِفُ ثَنْيَ الرسول عن دعوته الربانية التوحيدية، وكفِّه عن ذكر دينهم الباطل وآلهتهم المزعومة، كما هو واضح من كلامهم، والذي سنذكر شيئاً منه بعد قليل.

وقد اتَّخذ الكُفّارُ في مفاوضاتِهم تلك، طريقين:

الأول: المفاوضات من خلال (أبي طالب) عَمِّ رسول الله ﷺ وسنده الظاهري في وجه الكفار وحاميه.

الثاني: المفاوضات المباشرة مع رسول الله ﷺ.

١) فأما النوع الأول وهو المفاوضات غير المباشرة، فقد سجّل كُتّاب السِّيرة عِدَّة جولات منها:

أ ـ فمرة ذهب وفد من وجهاء كفار قريشٍ إلى (أبي طالب) وكلّموه بِلينٍ ورفقٍ، بشأن رسول الله ﷺ ودعوته الجديدة التي أقضَّتْ مضاجِعهم، فردَّهم (أبو طالب) ردّاً جميلاً وبرفق[١].

ب ـ ثم في جولة تفاوضية أخرى، شدَّد وَفْدُ وجهاء قريش الكلام مع أبي طالب، إلى حَدِّ تهديده هو ومن معه من بني هاشم، بالمنازلة والقتال، إذا ما استمرَّ (محمَّدٌ) ﷺ على دعوته التوحيدية، واستمرَّ

(١) (السيرة النَّبوية) لابن هشام، ج١، ص٣٦٦، ٣٦٧.

هو على حمايته له ودفاعِهِ عنه، وفي هذه المرَّة دعا (أبو طالب) رسولَ الله ﷺ وقال له:

(يا ابن أخي! إنّ قومَك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، فابْقِ عليَّ وعلى نَفْسك، ولا تُحَمِّلْني من الأمر ما لا أطيق).

يقول ابن هشام:

فظنَّ رسولُ الله ﷺ أنّ عَمَّه خاذِلُهُ، وأَنه ضَعُفَ عن نُصْرته، فقال:

(يا عمِّ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ـ حتى يُظْهِرَهُ الله أو أَهْلِكَ فيه ـ ما تركته) ثم استَعْبَر وبكى وقام، فلمّا ولّى ناداه أبو طالب فقال: أَقْبِلْ يا ابن أخي، قال فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال:

(إذهَبْ يا ابن أخي، فَقُلْ ما أحبَبْتَ، فوالله لا أُسْلِمكَ لشيءٍ أبداً)[1].

ج ـ وفي جولة ثالثة كانت المحاولة ونتيجتها بالصورة الآتية[2]:

«عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال:

مَرِضَ أبو طالب فجاءَتْهُ قريشٌ، وجاءَه النبيُّ ﷺ فَشَكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي! ما تُريدُ من قومك؟ قال: أريدُ منهم كَلِمةً تَدِينُ لهم بها العرَبُ، وتُؤَدِّي إليهم العَجَمُ الجزية، كلمة واحدة، قال ما هي؟ قال: لا إله إلّا الله، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص]، فنزل فيهم: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ...﴾ [ص: ١]، **إلى قوله:** ﴿...أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص] **رواه أحمد والترمذي والنّسائي والحاكم وصحَّحه**[3].

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٨٢ إلى ٢٨٤.

(٢) أنظر: (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي، ص٢٢١، رقم: ٧٧٦، وأورد النَّيسابوري في (أسباب النزول) مثله، أُنظر: ص٢٢١ و٢٢٢.

(٣) المصدر نَفْسُهُ، ج١، ص٢٨٤، ٢٨٥.

نعم، نَزَلَتْ تعليقاً على هذه الجولة التفاوضية الأخيرة للمشركين مع رسول الله ﷺ عن طريق أبي طالب، بدايةُ سورة (ص) وهي هذه الآيات:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص].

٢) وأما النوع الثاني وهو المفاوضات المباشرة مع رسول الله ﷺ:

فنذكر منه جولتين:

أ ـ الجولة الأولى:

بَعَثَ صَناديدُ قريشٍ المشركون (عُتْبة بن الوليد) مُمَثِّلاً لهم إلى رسول الله ﷺ، وعَرَض على النبي ﷺ أموراً، خلاصتها:

أنه إذا كان يُريدُ بما يدعو الناس إليه من التوحيد والدين الجديد غِنًى ومالاً، فسيجمعون له من أموالهم حتى يكون أغناهم، أو يريد رئاسةً ومُلْكاً فَسَيُمَلِّكونه عليهم، أو يُريدُ النساءَ، فَسَيُزوِّجونه أجمل بناتهم، وإن كان لا يريد شيئاً مِمّا ذكر، إذاً: فهو به مَسٌّ من الجنون، لِذا فسيطلبون له الأطبّاء، وسَيَبْذلون فيه أموالهم، حتى يذهب ما به من جنونٍ!

فلمّا أَتَمَّ (عتبة) كلامَهُ، قال له النبيُّ ﷺ: (هل أكملت كلامك يا أبا الوليد؟!) قال نعم، فقال له النبي ﷺ فاسمع ـ أي الجواب ـ وقرأ عليه بداية سورة (فصلت) وهي:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت].

ولما بلغ النبي ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً...﴾ [فصلت: ١٣]، وضع (عتبة) يده على في رسول الله وناشده بالله والرحم أن يسكت! وقد فَسَّرَ موقِفَهُ هذا للمشركين بعد أن رجع إليهم، بأنه خاف إن أكمل (محمَّدٌ) كلامَه، أن يَنْزِل علينا ما توعَّدنا به! كما جاء في بعض الرِّوايات.

ولما استلم (عتبة) الجواب، رجع إلى صناديد الكفر متأثراً جداً بما سَمِعَ، وقال لهم:

[...قد سَمِعْتُ قولاً، والله ما سَمِعتُ مثله قط، والله ما هو بالشِّعر، ولا بالسِّحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي: خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت منه، نبأٌ عظيمٌ، فإن تُصِبْهُ العَرَبُ، فقد كُفيتموه بغيركم، وأن يظهَرْ على العرب، فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وكنتم أسْعَدُ الناس به].

ولكن أجابوه: (سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بِلسانِهِ)[١]!

ب ـ الجولة الثانية:

ويَبْدُو من هذه الجولة، أنَّ المَلأَ من قريش ليَّنوا كثيراً من موقفهم ولجأوا إلى المساومة والمداهنة، كما هو واضحٌ في هذه الرواية:

---

(١) المصدر نفسه ج١، ص٢٨٢ إلى ٢٨٤.

(لقي الوليدُ ابنُ المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بنُ خَلَفْ، رسولَ الله ﷺ، فقالوا:

يا محمد! هَلُمَّ فَلْتَعْبُدْ ما نَعْبُدُ، ونعبدُ ما تَعْبُد، ولنشترِكْ نحن وأنت في أمرنا كلِّه، فأنزل الله:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

أخرجه (الطبري) و(ابن أبي حاتم) و(ابن الأنباري) عن (سعيد بن ميناء)[1].

وهناك رواية أخرجها الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الله تعالى أنزل في نفس الحادثة، قولَهُ[2]:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر].

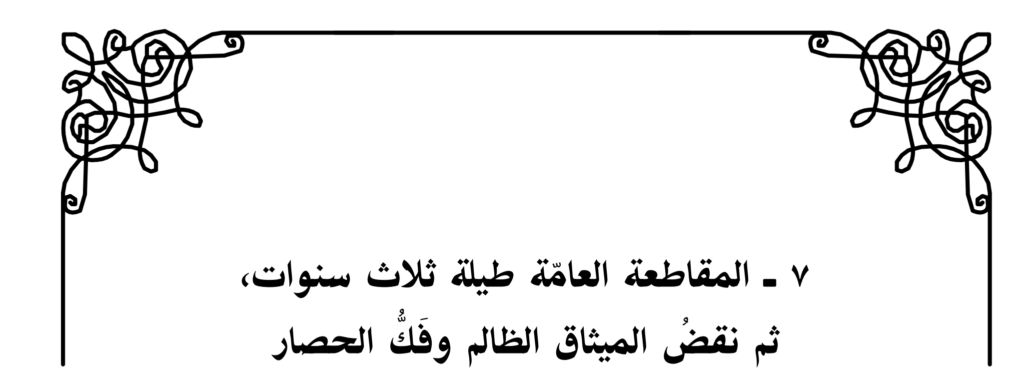
والظاهر أن قوله تعالى في سورة (القلم):

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ [القلم]، كذلك نزل في نفس الحادثة أو حادثة مشابهة لها.

وهكذا وصَلَتْ مفاوضاتُ الكفار مع رسول الله ﷺ حول تَخَلِّيه عن دين الله الحق أو عن بعضه، إلى طريق مَسْدود.

(١) (السيرة النبويّة) لابن هشام، ج١، ص٣١٣، ٣١٤.

(٢) أنظر: (روح المعاني) ج١٥ ص٦١١. وأنظر: (لُباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي، ص٣١٠، رقم: ١٠٤٥.



٧ ـ المقاطعة العامّة طيلة ثلاث سنوات، ثم نقضُ الميثاق الظالم وفَكُّ الحصار

بعد أن يئس الملأُ من قريش، من أن يصلوا عن طريق المفاوضات مع رسول الله ﷺ إلى نتيجة مُرْضية، قَرَّروا مُقاطَعَتَهُ ومن معه من أهل الإيمان، مقاطعةً شاملة: فلا كلام ولا زيارة ولا بيع ولا شراء... إلخ، وكتبوا بذلك ميثاقاً اتفقوا عليه فيما بينهم، وعلَّقوه في الكعبة.

وانحاز بنو هاشم كلُّهم باستثناء أبي لهب، مسلمهم وكافرهم إلى رسول الله ﷺ والجماعة المؤمنة التي معه ـ وكان ذلك الموقف من بني هاشم بدافع الحمية القبلية ـ، واستقرُّوا كلُّهم في (شِعَبِ أبي طالب)[1].

وكانت تلك المقاطعة بلاءً عظيماً نزل بالمسلمين، إذْ كانوا لا يجدون المُؤَن[2]، لأن قريش كانت تمنع ذلك، وما كان غير قريش يأتون به إلى مكة من المؤَن والأرزاق، يشتريه أغنياء قريش بعد مضاعفة القيمة، ولا يَدَعونه يصل ليد المسلمين.

وقد بلغ بهم الجهدُ والجوعُ والفقرُ حدّاً، أكلوا أوراق الأشجار وغير ذلك مِمّا لا يؤكل عادة.

واستمرت المقاطعة ثلاث سنين أو نحوها، ويبدو أنَّ بدايتها كانت في

---

(١) (السيرة النبويّة) لابن هاشم، ج١، ص٣٧٥ إلى٣٨٠.

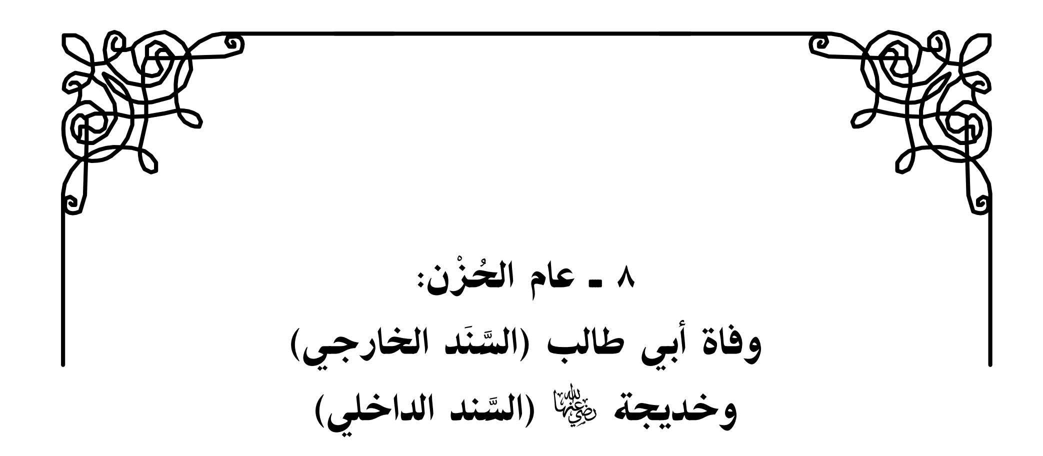
(٢) المُؤْنةُ والمَؤُونة: القُوتُ،ج: مُؤَن. المعجم الوسيط، ص٨٥٢.

بداية السنة السابعة من النبوَّة، لأنَّ نهايتها كانت في (المحرم السنة ـ ١٠ ـ)، وذلك بعد أن اتفق نَفَرٌ من وجهاء قريش على إنهاءِ المقاطعة ونقض الوثيقة الظالمة، وقد تمَّ لهم ذلك، وأَخْبَرَ رسولُ الله ﷺ قبل ذلك عَمَّه أبا طالب، أنَّ كلَّ ما كان في تلك الوثيقة، لم يبق له أثَرٌ وأكلته الأَرَضَةُ، باستثناء (باسمك اللَّهُمَّ)، ثم لما نظروا في الوثيقة وجدوها كما أَخْبَرَ به النبيُّ الخاتم ﷺ[1].

وهكذا خرج المسلمون بقيادة نبيهم، من ذلك الإبتلاء الصَّعب أرسخَ إيماناً، وأشدَّ ثباتاً، وأكثر بصيرةً، في حقانية دينهم، وأصلب عوداً في اتِّباعه، وإن اقتضى منهم ذلك بَذْلَ النَّفس والنفيس.



(١) المصدر نفسه، ج٢، ص(١٤ إلى ١٧).



٨ ـ عام الحُزْن:
وفاة أبي طالب (السَّنَد الخارجي)
وخديجة رضي الله عنها (السَّند الداخلي)

بعد الخروج من الشِّعب بستة أشهر، مات (أبو طالب) الذي كان نعم السَّند والحامي لابن أخيه، بدافع الحَمِيَّة القبليَّة، وبعده بثلاثة أيام توفيت أيضاً أم المؤمنين (خديجة) رضي الله عنها، التي كانت بحقٍ سنداً قوياً على صعيد الحياة البيتية والخاصة لرسول الله ﷺ.

هذا وقد حَرَصَ رسولُ الله ﷺ على إسلام عمِّه، وهو على فراش الموت كثيراً، ولكنَّه لَمْ يؤمنْ كما تدلّ عليه هذه القصة التي أوردها البخاري ومسلم في صحيحيهما، وكذلك أوردها كل من النيسابوري والسيوطي في (أسباب النزول)، عن سعيد بن المسيِّبْ عن أبيه:

«**لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جاءه رسولُ الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية، فقال رسول الله ﷺ**: «**يا عمِّ قُلْ: لا إلـٰه إلّا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله سبحانه وتعالى**»، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغَبُ عن مِلَّةِ عبد المطلب؟ فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويُعيدان لَهُ تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم به: أنا على مِلَّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلّا الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «**والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك**»، فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ...﴾ [التوبة: ١١٣]،

وأنـزل فـي أبـي طـالـب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . . .﴾ [القصص: ٥٦][1].

وجاء في (صحيح مسلم):

«**عن أبي هريرة** ﷺ **قال: قال رسول الله** ﷺ **لِعَمِّه: «قل: لا إلٰه إلّا الله أشهد لك يوم القيامة»**، قال: لولا أن تُعَيِّرني نِساءُ قريش: يَقُلْنَ إنه حمله على ذلك الجَزَعُ، لأَقْرَرْتُ بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾»[2].

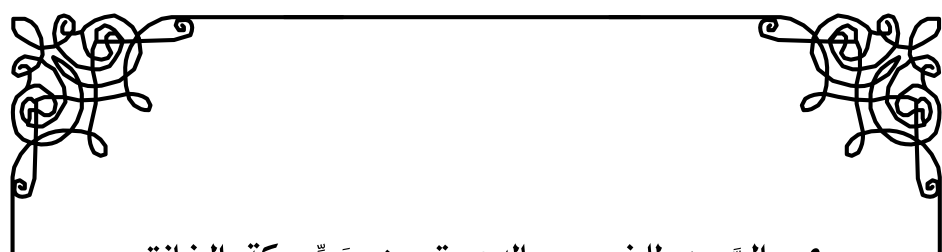
هذا وَسمَّى كُتّابُ السيرة، السَّنَةَ العاشرة من البعثة النَّبويّة (عام الحُزْن)، لأنَّ رسولَ الله ﷺ تأثّر كثيراً بوفاة عمِّه وزوجته ﷺ، وحَزِنَ عليهما حُزْناً شديداً، ولا شك أن كثيراً من حزنه على موت عمِّه، كان بسبب موته على الكفر، لأنَّه أَفادَ رسولَ الله ﷺ بحمايته ودِفاعه أَيَّما فائدة.



---

(١) (صحيح البخاري) ٤٦٧٥، و(صحيح مسلم) ٣٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤١.



٩ ـ السَّعيُ للخروج بالدعوة من جَوِّ مكة الخانق، وعَرْضُ الإسلام على القبائل، والذَّهاب للطّائف، والرجوعُ مكسور الخاطر

واشتدَّ أذى المشركين على رسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب، وروي عنه أنه قال ﷺ ذات مرة بعد أن آذاه المشركون:

(ما نالت مِني قُريشٌ شيئاً أَكْرَهُهُ حتى مات أبو طالب)[١].

وفي ذلك الجَوِّ المكفهرِ الخانق فكّر رسولُ الله ﷺ أن يخرج بالدعوة إلى مكان آخر، وجَوٍّ آخر غير (مكة)، ولهذا كان يَعْرِض نَفْسَه على القبائل كي تُؤْوِيَهُ إحداها، ويُبلِّغ دينَ الله الحق في جوّ أحسن، وهذه أسماء بعض القبائل التي عرض عليها نَفْسَهُ، طالباً منها الإيواء والنُّصرة، ولم يُحدِّدْ كُتّاب السِّيرة سنة مُعَيَّنة لهذا العَرْضِ، لكنه يبدو أنه كان على الأكثر بعد موت أبي طالب، وتضييق مُشركي قريش الخِناقَ عليه:

بنو عامر بن صعصعة، محارب بن خَصَفة، فَزارة، غَسّان، مُرَّة، حنيفة، سُليم، عَبْس، بنو نصر، بنو البكّاء، كِندة، كلْب، الحارث بن كعب، عُذْرة، الحضارمة.

ولكن لم يستجبْ منهم أَحَدٌ[٢].

---

(١) (السيرة النبوية)، ج٢، ص٥٨.

(٢) (طبقات ابن سعد)، ج١، ص: ٢١٦.

الذَّهاب للطائف:

وفي شوال سنة (١٠) ذَهَب رسولُ الله ﷺ لمدينة (الطائف) والتي تبعد عن (مكة) نحو (٦٠) ميلاً مع (زيد بن حارثة) ﷺ، ذهبا مشياً على الأقدام، وبقي هناك عشرة أيام، ولكن لَيْسَ أَنَّه لم يستجيبوا له فَحَسْبُ، بل وأَغْرَوْا به سفهاءَهم وطردوه ورَجَمُوه بالحجارة، حتى أَدْمَوا رِجْلَيْه، بالرغم من حماية (زيد) إياه بنفسه!

وكفى بذلك الموقف في سفره ذلك شدَّةً، أَنَّ رسولَ الله ﷺ اعتبره أَشدَّ عليه من يوم (أحد)، الذي لَقِيَ من جيش المشركين أذىً شديداً، وجُرح في أكثر من موضع من بدنه، حيث سألته أم المؤمنين (عائشة) ﷺ:

(يا رسول الله! هَلْ أَتى عليك يومٌ كان أشدَّ عليك من يوم أُحُدٍ؟!) فأجابها رسولُ الله ﷺ بما جرى له في سفره للطائف، حيث قال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشَدَّ ما لقيتُ منهم يوم العَقَبَةِ**...» كما جاء في الصَّحيحين[1].

ولكن مع ذلك الأذى النفسي والجسدي الشديد الذي لقيه من ذلك القوم، لم يَزِدْ بعد أَن جاءه جبريلُ وأَبلغه أن الله تعالى أرسل مَلَك الجبال، وقال إذا أردت هلاكهم، فَمُرْ ملَكَ الجبال حتى يُطْبِقَ عليهم الأخشبين ـ أي الجبلين ـ، فلم يَزِدْ أن قال: «**بَلْ أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم، مَنْ يعبد الله وحدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئاً**» متفق عليه[2].

وفي طريق عودته دعا بهذا الدعاءِ العظيم، الذي تتجلَّى في كل كلمة منه عبوديته التامة لله تبارك وتعالى:

(اللَّهم! أشكو إليك ضَعْفَ قوَّتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على الناس،

---

(١) (صحيح البخاري) رقم ٣٢٣١، و(صحيح مسلم) باب: ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين، رقم: ١٧٩٥.

(٢) صحيح البخاري: ٣٢٣١، وصحيح مسلم: ١٧٩٥.

يا أرحم الرّاحمين! أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى مَنْ تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يَتَجهَّمُني! أم إلى عَدوّ مَلَّكَتهُ أَمري؟! إنْ لم يكنْ بِكَ علي غَضَبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسعُ لي.

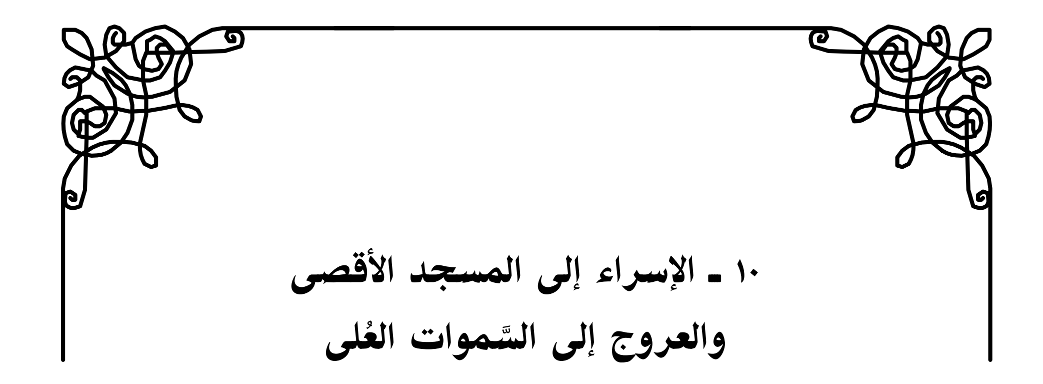
أعوذ بنور وجهك الذي أَشرقَتْ له الظلمات، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بيَ غَضَبَكَ، أو يَحِلَّ عَليَّ سَخَطُكَ، لكَ العُتْبى حتى تَرْضى، ولا حول ولا قوة إلّا بِك)[1].

وفي شهر (ذي القعدة) عادَ إلى (مكة) ودَخَلَها في جوار (المُطْعِم بن عدي)[2]!



(١) (السيرة النبوية)، لابن هشام، ج٢، ص٦٢.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٠، ٢١.



١٠ ـ الإسراء إلى المسجد الأقصى والعروج إلى السَّموات العُلى

وفي تلك المرحَلَة العسيرة والظّروف الصَّعبة، أكرم الله تعالى نبيَّه الخاتم ورسوله الأعظم ﷺ بتلك الرحلة المباركة العجيبة التي لم يَنَلْها نبيٌّ سواه، حيث سافر الله تعالى به في ليلة واحدة من مكة، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في فلسطين، ثم عَرَج به من هناك إلى أن جاوز السَّموات السبع، وإلى حيث يعلمه الله تعالى، من ملكوته العظيم الواسع الأرجاء.

وقد اختلف العلماءُ في تحديد وقت (الإسراء والمعراج)، ولكن الظاهر أنه كان بعد عودته من (الطائف)، ولم يكن قبل ذلك، وذلك لأن الصلوات الخمس التي فُرِضَتْ في ليلة المعراج، ليس لها ذِكرٌ قبل السنة العاشرة، وإنما كانت الصلاة حينذاك صلاتين بالغداة والعشيِّ.

وكان من حكمة الله الحكيم ورحمته، أَن يُهَيِّيءَ ذلك السَّفر العظيم المبارك، لعبده ونبيِّه ورسوله المُضْطَهَد المستضعَف التَّعِب المجهود، تخفيفاً عنه وعزاءً وتسليةً له، عمّا كان يقاسيه من صعوبات ومشقات، وكذلك تحفيزاً وتقويةً له، على ما سيعترضه من صعوبات ومشقات من نوع آخر، في سبيل الله تعالى وتبليغ رسالته.

وقد أشار سبحانه إلى المرحلة الأولى من ذلك السَّفَرِ، وهي (الإسراء) ـ والإسراء هو سَيْرُ الليل ـ في الآية الأولى من سورة (الإسراء):

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

كما وأشار إلى المرحلة الثانية منه، وهي (المعراج) في الآيات (١٢ إلى ١٨) من سورة (النجم):

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم].

حيث يخاطب الله المشركين المنكرين لنبوَّة (محمَّد) ﷺ ومجيء (جبريل) عَلَيْهِ السَّلَامُ إليه بالوحي، ورؤية رسول الله ﷺ له، موبِّخاً إياهم، فيقول:

أَفتشكّون فتجادلونه ـ أي: محمَّداً ﷺ ـ على رؤيته لجبريل؟ ولَقَدْ رآه مرةً أخرى ـ أي على صورته وهيئته التي خلقه الله عليها ـ عند سدرة المنتهى، والتي بِقُرْبِها الجنَّةُ التي جعلها الله مأوى أهل الإيمان، إذْ يغشى السِّدرَةَ الذي يغشاه، لَم يَمِلْ بصرُ رسول الله عمّا حُدِّد له أن يُبْصِرَ، ولم يتجاوز ما رُسِمَ له، لقد رأى (تلك الليلة) عدةً من آيات ربِّه الكبرى.

والدليل على أن هذه الآيات تتحدّثُ عن سفر المعراج، هو أن الله تعالى بيّن أنَّ (محمَّداً) ﷺ قد رأى (جبريل) عَلَيْهِ السَّلَامُ، بالإضافة إلى المرة الأولى التي رآه فيها، على هَيْئَته الحقيقية على الأرض، مرةً أخرى، وذلك عند (سِدْرة المنتهى) التي عندها الجنّة، ومن الواضح أن رسول الله ﷺ لم يذهب إلى حيث سِدْرَةُ المنتهى وجنة المأوى، إلّا ليلة المعراج.

هذا وقد تحدَّث العلماء عمّا إذا كان ذلك السَّفرُ المبارك كان بالروح فقط، أو بالروح والجسد معاً، وفي المنام أو في اليقظة!

ولكن جَليٌّ لمن تأمَّل آية (الإسراء) وآيات (النَّجم)، أن ذلك السّفر كان في اليقظة وروحاً وجسداً، وذلك:

١ ـ لأن الله تعالى أعلن أنه سافر بعبده ليلاً: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ

بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا...﴾ والسفر لا يكون إلّا بالروح والجسد، وفي اليقظة.

٢ ـ ثم كلمة (العبد) شاملة للروح والجسد كليهما.

٣ ـ وكذلك في سورة (النجم) تحدَّث سبحانه عن أَدَبِ رسوله الله ﷺ وتَقَيُّدِهِ في سفره، بما رُسِمَ وحُدِّد له أن يراه، ويقولُ إنه لم يَمِلْ بصره ولم ينحرف هنا وهناك، ثم يبيِّن أنه رأى عدداً من الآيات الكبرى لربِّه الأعلى، ومعلوم أن البصر ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، والرؤية ﴿لَقَدْ رَأَىٰ...﴾ إنّما يُطْلَقان على فعل العَيْن الظاهرة.

٤ ـ ثم إن جدال المشركين وتشكُّكَهم في ذلك السفر، ورؤية رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام، ثم تأكيد الله تعالى على أن (محمَّداً) ﷺ فعلاً رأى جبريل للمرة الثانية، عند سدرةِ المُنْتهى، كل هذا إنّما احْتُيجَ إليه، لكون رسول الله ﷺ تحدَّث للمشركين، بأنه سافر فعلاً بالروح والجسد، وإلّا فإنَّ الرؤيا أمرها سَهْلٌ، ولا تُثيرُ عندهم العَجَبَ، ولا توجِبُ الإستغراب.

هذا وقد تحدَّث رسولُ الله ﷺ عن سفره إسراءً ومِعْراجاً بوضوح، وهذا نَصُّ حديثه الشريف الذي رواه عنه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى، قال ﷺ:

«أُتيتُ بالبُراق وهو دابَّة أبيضُ فوق الحمار ودون البَغلِ، يَضَعُ حافِرَهُ عند مُنتهى طَرْفِهِ، فركبتُهُ فسار بي حتى أتيتُ بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي تربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصلَّيتُ فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءَني جبريلُ بِإِناءٍ من خَمْرٍ وإناءٍ من لَبَنٍ، فاخترتُ اللَّبَن، قال جبريلُ أصبْتَ الفطرة، (قال) ثم عُرِجَ بنا إلى السّماءِ الدنيا، فاستفتح جبريلُ قيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَنْ مَعَكَ؟ قال: محمَّدٌ، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدم، فرحَّب بي ودعا لي بالخير، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: مَنْ أنت؟ فقال جبريل، قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد، قيل: قد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بابني الخالة: يحيى وعيسى، فَرحَّبا بي ودعوا لي

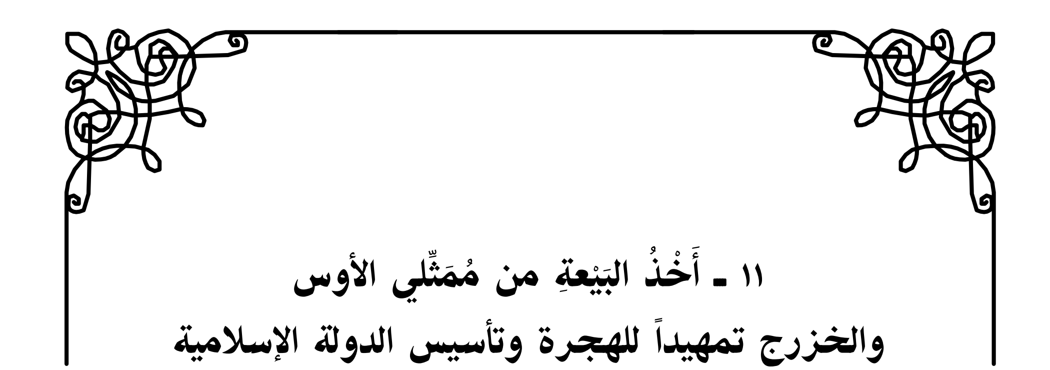
بالخير، ثم عُرِجَ بنا إلى السماءِ الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريلُ، فقيل: من معك؟ قال: محمدٌ، فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أُعطي شَطْرَ الحُسْن، فَرحَّب بي ودعا لي بِخَيْرٍ، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ، فقيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس فرحَّب بي ودعا لي بخير، قال الله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم]، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ، فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون فرحَّب بي ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: مَنْ أنت؟ فقال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بِموسى، فَرحَّبَ ودعا لي بخير، ثم عُرِجَ بِنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ فقال: محمدٌ، فقيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم، فإذا هو مستندٌ إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك، ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذاً أوراقُها كآذانِ الفِيلَةِ، وإذا ثمارُها كالقِلالِ، فلمّا غشيها من أمر الله ما غشيها، تغيَّرتْ فما أحدٌ من خلق الله تعالى يستطيع أن يَصِفَها مِنْ حُسْنها، (قال) فأوحى إليَّ ما أوحى، وفَرضَ عليَّ في كل يوم وليلة خمسين صلاةً، فنزلْتُ حتى انتهيت إلى موسى، فقال ما فَرَضَ ربُّكَ على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيفَ، فإن أُمَّتَكَ لا تُطيق ذلك، وإنيٍ قد بلوتُ بني إسرائيل وخَبَرْتُهم، (قال) فرجعت إلى ربّي، فقلت: أي ربِّ! خِفِّفْ عن أمتي، فحطَّ عَنِّي خمساً، فرجعت إلى موسى، قال: ما فعلت؟ فقلت: قد حطَّ عَني خمساً، قال: إنّ أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، (قال) فلم أَزَلْ أراجع بين ربِّي وبين موسى، ويَحُطُّ عنِّي خمساً خمساً، حتى قال: يا محمد! هي خَمْسُ

صلواتٍ في كل يوم وليلة، بكلِّ صلاة عشرٌ، فتلك خمسون صلاة، ومَنْ همَّ بِحَسَنةٍ فلم يعملْها كتبت له حسنة، فإنْ عَمِلَها، كُتبتْ له عشراً، ومَنْ همَّ بسيئةٍ ولم يَعْملها لم تكْتَبْ، فإن عَمِلَها كتبتْ له سيئة واحدة، فَنَزَلْتُ حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته فقال، ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فأن أمتك لا تطيق ذلك، فقلت: قد رجعت إلى ربّي حتى اسْتَحْيَيْتُ» متفق عليه واللفظ لمسلم[1].

ولعلّ الحكمة في كون موسى عليه السلام، مُنبِّهاً لسيّد المرسلين في طلب التخفيف من ربّه لأمته، هي أنّ موسى عليه السلام كما قال هو بنفسه: **(وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم)**، كانت له تجارب كثيرة في إدارة المجتمع وتصريف أموره، ولكن سيّد المرسلين حين سافر سفره المذكور، لم يكن بعد قد دَخل في تجربة بناءِ المجتمع والكيان السياسي، لِذا لم يكن عَجَباً أنْ يكون عند الكليم من العلم والمعرفة في ذلك المجال، ما لم يكن عند سيّد المرسلين صلى الله تعالى عليهما وسلم، وقد يكون المفضول مُتَحَلِّياً بنوعٍ من العلم في مجال معيَّن، من أمور إدارة حياة الناس والمجتمع، لا يوجَدُ عند الأفضل، كما أن (الحَبَّاب بن المنذر) رضي الله عنه أشار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة (بدر) بخطة حربية غير التي اختارها هو ـ من حيث مكانُ إنزال الجيش ـ، وقَبِلَ رسولُ الله تلك الخطة منه، ورجَّح رأْيَه على رَأيه، كما جاء في كتب السِّيرة[2].

(١) (صحيح مسلم): ٢٥٩، و(صحيح البخاري): ٣٢٠٧.

(٢) (السيرة النبوية)، ج٢، ص٢٧٢.



١١ ـ أَخْذُ البَيْعةِ من مُمَثّلي الأوس والخزرج تمهيداً للهجرة وتأسيس الدولة الإسلامية

وقد تمَّ هذا الحَدَثُ المهمّ والمصيري في تأريخ الحركة الإسلامية الأولى بقيادة رسول الله ﷺ، في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

في موعد حجّ سنة (١١) مَرَّ رسولُ الله ﷺ في (العقبة) بـ(مِنى) بِستَّةِ نَفَرٍ من شباب (يثرب)، وهم:

١ ـ أسعد بن زرارة.

٢ ـ عوف بن الحارث.

٣ ـ رافع بن مالك.

٤ ـ قطبة بن عامر.

٥ ـ عقبة بن عامر.

٦ ـ جابر بن عبدالله.

وكان كلهم من (الخزرج)، فكلَّمهم رسولُ الله ﷺ وقرأ عليهم القرآن، وبيَّن لهم دينَ الله الحق، فأسلموا على يديه رضي الله عنهم أجمعين[١].

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٧١ ـ ٧٢.

ويبدو أنه ﷺ ضرب لهم موعداً في العام القابِلِ في نفس المكان والزمان.

المرحلة الثانية:

وفي موسم حجّ سنة (١٢) حضر عند (العقبة) اثنا عشر نفراً من أهل يثرب، إثنان من قبيلة (أوس)، وعشرة من (الخزرج)[١]، وبايعوا رسولَ الله ﷺ بيعة تُسمَّى (بيعة النساء) لِخُلُوِّها من ذكر القتال والدفاع، وكذلك تسمى: (بيعة العقبة الأولى) وهذا هو نصُّها كما رواه البخاري عن (عبادة بن الصامت) رضي الله عنه: قال:

قال رسول الله ﷺ: «**تعالوا بايعوني على:**

إلّا تشركوا بالله شيئاً،

ولا تسرقوا،

ولا تزنوا،

ولا تقتلوا أولادكم،

ولا تأتوا بِبُهْتانٍ تفترونه بين أيدكم وأرجلكم،

ولا تعصوني في معروف.

فَمَنْ وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فعوقبَ به في الدنيا، فهو كفّارةٌ له، ومَن أصاب من ذلك شيئاً فَسَتَره الله، فَأَمْرُه إلى الله، إنْ شاءَ عاقَبه، وإن شاءَ عَفى عنه».

قال: فبايعناه على ذلك[٢]، رضي الله عنهم أجمعين.

وبعث رسولُ الله ﷺ معهم سفيره الشاب (مصعب بن عمير) رضي الله عنه، كي يُعلِّمهم القرآن ويدعو الناس إلى الله تعالى، ودينه الحق نيابةً عن

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٢، ص٧٣.

(٢) (صحيح البخاري): ١٨.

رسول الله ﷺ[1].

المرحلة الثالثة:

وفي موسم حجّ سنة (١٣) حضر في نفس المكان والزمان، خمسٌ وسبعون (٧٥) نفراً من أهل (يثرب)، (٧٣) رجلاً، وامرأتان، وهما: (نُسَيبة بنت كعب) و(أسماء بنت عمرو) رضي الله عنهما فبايعوه، كلُّهم، أما الرِّجال فمصاحفةً، وأما المرأتان فكلاماً فقط، إذْ لم يُصافِحْ رسولُ الله ﷺ امرأةً أجنبية قط.

وهذا نصُّ البيعة التي سُمِّيت فيما بعد (بيعة القتال) و(بيعة العقبة الثانية): قال: (جابر بن عبدالله) رضي الله عنه وكان أحد المبايعين:

«قلنا يا رسول الله! علامَ نبايعُك؟

قال:

على السَّمْعِ والطاعة في النِّشاط والكَسَلِ.

وعلى النفقة في العُسْرِ واليُسْرِ.

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.

وعلى أن تَنْصُروني إذا قَدِمْتُ إليكم، وتمنعوني مِمّا تمنعون منه أنفسكم وأزواجَكم وأبناءَكم.

ولكم الجنَّة». رواه أحمد بإسنادٍ حسن والبيهقي في السنن الكبرى وصحّحَه الحاكم وابن حِبّان.

وبعد أَنْ بايعوه طلب منهم رسولُ الله ﷺ، أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً يَكْفُلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود البيعة، وقال لهم:

(أخرِجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم).

فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، ثم قال للنقباء:

(أنتم على قومكم بما فيهم، كفلاء ككفالة الحواريِّين لِعيسى ابن

---

(١) (السيرة النبوية)، ج٢، ص٧٦.

مريم، وأَنا كفيلٌ على قومي ـ يعني المسلمين ـ قالوا نعم)[1].

وهذه هي أسماء النقباء الإِثني عشر:[2].

من الخزرج

١ ـ أسعد بن زرارة بن عُدَس.

٢ ـ سعد بن الربيع بن عمرو.

٣ ـ عبدالله بن رواحة بن ثعلبة.

٤ ـ رافع بن مالك بن العجلان.

٥ ـ البراء بن معرور بن صخر.

٦ ـ عبدالله بن عمرو بن حرام.

٧ ـ عبادة بن الصّامت بن قيس.

٨ ـ سَعد بن عبادة بن دُليم.

٩ ـ المنذر بن عمرو بن خنيس.

من الأوس:

١ ـ أسيد بن حضير بن سمّاك.

٢ ـ سعد بن خيثمة بن الحارث.

٣ ـ رفاعة بن عبدالمنذر بن زبير.

وهكذا يَسَّر الله العليم الحكيم لنبيِّه الكريم، بأخذ البيعة من مُمثِّلي (يَثْرِبْ)، التمهيدَ لبناء الكيان الإسلامي الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة إلّا على أكتاف قاعدة شعبية مؤمنة تَحْتَضِنُ الدعوة والداعي، أو العمل الإسلامي والقائد، وتبذُلُ في سبيل الحفاظ عليهما النفس والنفيس.

---

(١) (السيرة النبوية)، ج٢، ص٨١ إلى ٨٥.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٨٦، ٨٧.

ومعلوم أن في هذا العمل الحكيم لرسول الله ﷺ ـ كما في سائر أعماله ومواقفه ـ لعبرةً عظيمة ودَرْساً جديراً بالتأمل، لكل المسلمين وبالأخص للعاملين منهم في ميدان العمل الإسلامي.

إذ بناءُ الكيان السياسي للإسلام في مُجتمعه، لا بُدَّ وأن يُمَهَّد لَهُ بالدعوة والتعليم والتزكية، ومن ثم تكوين قاعدة شعبية وجماهيرية مؤمنة ومُعاهدة لله تعالى، أن ينصروه ودينَه الحق، وإن اقتضى ذلك منهم بَذْلَ المُهَجِ[1] والأموال.

أجل فالدولة الإسلامية إنما يتمخَّض عنها المجتمع الإسلامي، والذي هو بدوره يَحْصُلُ نتيجة تفاعل الجماعة المؤمنة التقيّة الواعية مع الناس والجماهير الذين تتواجد فيهم.

وذلك لأن الإسلام ينظر إلى السلطة السياسية والإمساك بزمام الأمور، كوسيلة لتطبيق الشريعة وأحكامها في مختلف مجالات الحياة، وليس كهدفٍ في حدِّ ذاته، ومن الجلي أنه بدون وجود مجتمع متقبِّل لدين الله الحق ومُستعدّ للإلتزام به في جميع جوانب حياته، لا يمكن إقامة دين الله كما أمر الله تعالى به: ﴿...أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾ [الشورى: ١٣]، تصوراتٍ وقيماً وموازين وشعائر وآداباً وأحكاماً.

وبعد أن مهَّد رسولُ الله ﷺ لتكوين الدولة الإسلامية، واطمأنَّ على وجود قاعدةٍ مؤمنة صلبةٍ في (المدينة)، بل وجود مجتمع إسلامي ـ إذ جاء في كتب السّيرة، أنه بعد العمل الدعوي الجادّ الذي قام به سفيرُ رسولِ الله والداعية الشاب (مصعب بن عمير) ﷺ، لم تبق دارٌ من دُورِ الأوس والخزرج لم يدخلها الإسلام[2] ـ أجل بعد ذلك التمهيد، أَذِن رسولُ الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى (يثرب) الذي أصبح اسمه فيما بعد (المدينة)، (مدينة الرسول ﷺ)، فهاجروا بصور مختلفة، ولكنَّ الهجرة سِرّاً وخفيةً،كانت هي

(١) المُهَجْ: جمع مُهْجَة، وهي: دَمُ القلب، والروح، ومن كل شيء: خالِصُهُ. المعجم الوسيط، ص٨٨٩.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٧٣.

الصورة الغالبة خوفاً من المشركين، من أن يردّوهم فيُعذِّبوهم، ليفتنوهم عن دينهم أو يحبسوهم، أو يقتلوهم[1].

وبالنتيجة هاجر كل مَن تَيَسَّرت له الهجرة، وبقي رسولُ الله ﷺ وصديقه الوفيُّ الصدِّيق (أبو بكر) رضي الله عنه، وابن عمِّه الشجاع الجريء (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه[2].

وقد أبقاهما رسولُ الله ﷺ ليوكل بِكلٍ منهما مُهِمَّةً جليلةً، في سفر هجرته التي كان ينتظر أمر الله تعالى وإذنَهُ، فيها.



(١) المصدر السابق، ج٢، ص١١١.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص١٢٣.



١٢ ـ الهجرة إلى يثرب والشروع ببناءِ الدولة الإسلامية، بـ(بناءِ المسجد، والتآخي بين المهاجرين والأنصار، وكتابة الوثيقة، والتحالف مع اليهود)

بعد أن خطَّطَ رسولُ الله ﷺ تخطيطاً دقيقاً شامِلاً لِسَفر هجرته، وجَهَّز بمعاونة صديقه الحميم ورفيقه الوحيد في هجرته (أبي بكر الصديق) ﷺ، كلَّ مستلزمات السفر، غادر بيته في ليلة (٢٧صفر سنة ١٤ من النبوة) الموافق (١٢ ـ ١٣ سبتمبر/٦٢٢) بعد أن أمر علياً ﷺ أن يبيت في فراشه، تعميةً على المشركين المتربِّصين به والمترصِّدين له، ولتسليم الأمانات والودائع التي كانت عنده لأصحابها، وذلك بمرافقة (أبي بكر) ﷺ وتوجَّها جنوباً عكس اتجاه (المدينة)، ودخلا غار (ثور)، وبقيا فيه ثلاث ليالٍ، رَيْثَما تَخُفُّ شِدَّةُ طَلَبِ المشركين له وبحثهم عنه، إذ خصَّصوا جائزة ثمينة (مائة من الإبل) لِكلِّ مَنْ يأت به وبصاحبه حياً أو ميِّتاً[1]، كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وقال تعالى عن نصره لنبيِّه وحِفْظِهِ له مع صاحبه في غار (ثور):

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) المصدر السابق، ج٢، ص١٣٠.

سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وكان في الطريق عندما يلقاهما من لا يعرفهما، ويسألهما مَنْ هما؟ يجيبه (أبو بكر) ﷺ:

(هذا الرجل يهديني السَّبيل) فَيَحْسَبُ الحاسِبُ أنه يعني به الطريق، وإنما يعني به سبيل الخَيْر، كما رواه البخاري عن (أنس) ﷺ[١].

وأخيراً في (٨) ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة، والسنة (١٤) من (النّبوّة) يوم الاثنين، وصلا إلى يثرب ونَزَلَ ﷺ بـ(قباء) فبقي هناك أياماً، ثم دَخَل المدينة وأستقرَّ في بيت (أبي أيّوب)[٢] ﷺ، وعند وصولهما مشارِفَ المدينة غَنَّتْ بناتُ الأنصار عندما رأينه هذا الشعر:

طَلَعَ البَدْرُ علينا مِنْ ثَنِيّات الوَداع
وَجَبَ الشكرُ علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوثُ فينا جِئْتَ بالأمر المُطاع

وبعد أن استقرّ به المقامُ في يثرب، الذي بعد استقراره ﷺ فيه غُيِّر اسم (يثرب) إلى (مدينة رسول الله) أو (المدينة) اختصاراً، قام بثلاثة أعمالٍ، تعتبر ثلاثة أُسسٍ مُهِمَّةٍ للكيان الإسلامي، وهي:

أ ـ بناءُ المسجد.

ب ـ التآخي بين المهاجرين والأنصار.

ج ـ (كتابة الوثيقة) والمعاهدة مع اليهود (أي القبائل الثلاث: بني قينقاع، وبني النَّضير، وبني قريظة)، وبعض المشركين الباقين على شركهم.

أ ـ أمّا (بناء المسجد) فَلِتَحْقيقِ أَغراض كثيرة، منها:

(١) (صحيح البخاري): ٣٩١١.
(٢) السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (قراءة جديدة)، محمَّد الصوياني، ج١، ص٢١٢ ـ ٢١٧.

١) إقامة الصلوات الخمس جماعة مع رسول الله ﷺ، أو مَنْ يُنيبه هو عند غَيبتِه.

٢) وإقامة صلاة الجمعة.

٣) وقراءة القرآن ودراسته وتعليمه.

٤) والإِجتماع فيه للتشاور في الأمور الهامَّة.

٥) ولكي يكون مكاناً للسُّكنى للفقراء والمجاهدين، الذين لا يملكون بَيْتاً وأهلاً.

٦) ثم كان المسجد النَّبوي مقراً لإقامته ﷺ كإمامٍ وقائدٍ وقاضٍ ومُعلِّمٍ للمسلمين رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً.

ب ـ وأما (المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار)، فلتوطيد صفوف المجتمع الإسلامي في المدينة، وترسيخ أخوتهم الإيمانية، ثم لحلِّ مشكلة المهاجرين المعيشية ـ أو أكثرهم ـ حيث تركوا كلَّ شيء: المسكنَ والأهلَ والمالَ، مهاجرين في سبيل الله تعالى، كما قال تعالى في معرض الثناء عليهم:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر].

وكانت تلك المؤاخاةُ تقتضي مقاسمة الأنصار معايشهم مع إخوانهم المهاجرين، أو معاونتهم قَدْرَ المستطاع، وكذلك كانت تلك المؤاخاة تقتضي التوارُثَ بين الأنصار والمهاجرين المتآخين، دون أقربائهم الورّاث.

وقد ضرب الأنصارُ أروع الأمثلة في الأخوَّة والإيثار، مع إخوانهم المهاجرين رضي الله تعالى عن الجميع، كما قال تعالى مُثْنياً على الأنصار الذين كانوا بحقٍ نعم الأنصار والسَّند لرسول الله ﷺ ولصحابته المهاجرين:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ

﴿... فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

وكانت مسألة التوارث حلاً مؤقتاً لحالة طارئة، ولهذا أُعيد حكم التوارث إلى وضعه الطبيعي، بعد زوال تلك الحالة الطارئة، كما قال تعالى:

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب].

ج - وأمّا (كتابة الوثيقة) و(المعاهدة مع اليهود وبعض المشركين) المتواجدين في المدينة وما حولها، فلأنَّهم كانوا أقلية دينيَّة[١] مواطنة، إذاً: لا بُدّ وأن يكون هناك وضوح في كيفية التعامل معهم من حيث الحقوق والواجبات والمسؤوليات المشتركة بين الطرفين: الدولة الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ، والطرف اليهودي وبعض المشركين برئاسة زعمائهم.

ويحتوي الميثاق المُبْرَم بين الجانبين على بنود كثيرة، أهمُّها:

١ - حُرِّية اليهود في حياتهم الدينية والدنيوية، وعدم تعرّض أحدٍ لهم بسوءٍ[٢].

٢ - اليهود يشاركون المسلمين في الدفاع عن المدينة، عند تعرُّضها لخطر[٣].

٣ - لا يجوز لأحدٍ من المسلمين واليهود والمشركين، أَنْ يُؤْوي (مُحْدِثاً)، أي: من يَجْني جناية أو يقوم بما يستحق عليه العقوبة من

---

(١) كما في البَنْد: (٢٥) والبند (٣٧).

(٢) كما في البند: (٤٤).

(٣) كما في البند: (٢٢).

أي طرف كان، بَلْ يجب أن يُدِينَهُ الجميع، ويكونوا عليه يداً واحدة[1].

٤ ـ **رسولُ الله ﷺ هو المرجعُ عند حدوث شجار أو خصام بين أهل الوثيقة، أي إن السلطة العُليا تكون بيده ﷺ، ومن ثم فالسيادة هي لشريعة الله والحاكمية له تبارك وتعالى، من خلال دينه ورسوله ﷺ، على الدولة الإسلامية الناشئة والمستظلين بِظِلّها[2].**

وهكذا وضع رسولُ الله ﷺ الأسس والدَّعائم الكلِّية للدولة الإسلامية في المدينة، إبّان ٱستقراره فيها:

إذ هناك مكان لتجمّع المسلمين لإقامة شعائر الدين فيه، وتلقِّي التزكية والتعليم والتوجيهات، وكذلك هناك مقر للحكم وإدارة شؤون المجتمع والدولة، وهو: (المسجِد).

وهناك مجتمع مُتآخٍ مترابطٌ بعضه مع بعضٍ، وسامعٌ ومطيعٌ لقيادته، ومُسْتَعدٌّ لتنفيذِ أوامره وتوجيهاته.

وكذلك هناك عهد وميثاق مشترك بين قِسم مُهمّ من المواطنين الذين لهم كيانٌ ديني وسياسي واقتصادي، وهم اليهود[3]، وبعض المشركين الذين على شركهم.

وبناءً عليه:

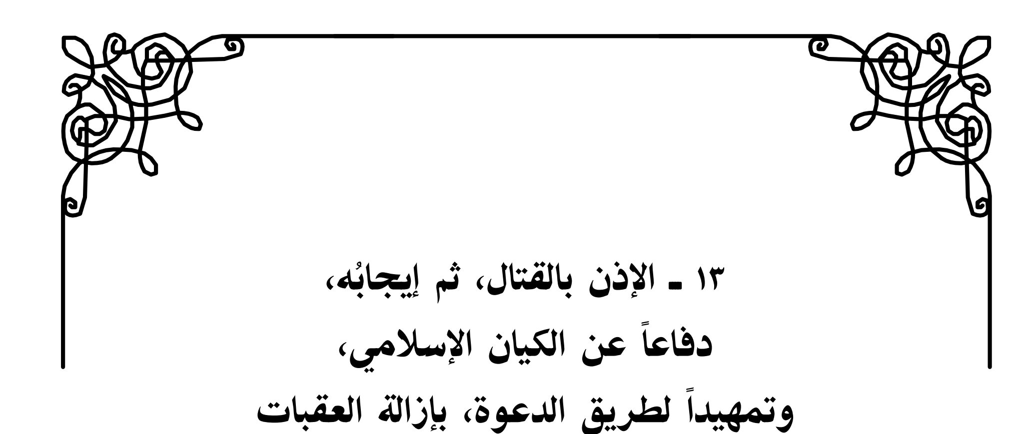
فهذا الكيان الإسلامي الناشيء، الآن بوسعه القيام على رجليه والدفاع عن نفسه وأهدافه.

---

(١) كما في البند: (٤٢).

(٢) كما في البند (٢٣)، والبند (٤٢)، أنظر: (مجموعة الوثائق السياسية...) محمد حميد الله: ص٥٩ ـ ٦٢، ط.٨

(٣) للوثيقة المذكورة أهمية كبرى، حيث اعتبرها (محمد حميد الله): أقدم دستورٍ مُسَجَّلٍ في العالم، واعتبرها (أكرم ضياء العمري): أول دستورٍ أعلنه الإسلام، انظر: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) لمحمد حميد الله، ص٥٨، الطبعة الثانية.



١٣ ـ الإذن بالقتال، ثم إيجابُه، دفاعاً عن الكيان الإسلامي، وتمهيداً لطريق الدعوة، بإزالة العقبات

وبعد أَن وطَّدَ رسولُ الله ﷺ الدَّعائِمَ الأساسية لدولته الإسلامية وأصبح في وسعها القيام بالدفاع عن نفسها والجهاد في سبيل الله، أنزل الله العليم الحكيم الآيات التي تأمر بالجهاد والقتال في سبيل الله، وتُرغِّبُ أهلَ الإيمان فيه وتُشَجِّعهم عليه، وذلك بتدرُّج وترتيب، حسب حال الدولة والمجتمع الإسلاميين، والإمكانيات المتوفّرة لَدى أهلِ الإيمان.

وأول الآيات التي نزلت في مجال الجهاد والقتال في سبيل الله، هي هذه الآيات التي أَذِن الله تعالى فيها للمسلمين القيام بالقتال دفاعاً عن أنفسهم، وخصوصاً تجاه كفّار قريش الذين علاوةً على أَنَّهم أَذاقوهم الأمَرَّيْنِ أذىً واضطهاداً، كذلك اغتصبوا منهم أموالَهم وديارَهم وممتلكاتِهم:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج].

ثم أنزل الله تعالى ـ حسبما يبدو من ظاهر الآيات ـ قوله المبارك:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

فأوجب الله القتال في سبيل الله على المسلمين، بعد أن كان من قبل مَأْذوناً به فقط.

وكذلك يبدو أن هذه الآيات أيضاً أنزلها الله تعالى في هذه المرحلة من عمر الدولة الإسلامية النبوية:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة].

وتنفيذاً لهذه الأوامر الربّانية، بدأ رسولُ الله ﷺ بالتحرُّك، وكان نظره مركَّزاً على مشركي قريشٍ، فكان يبعث السّرايا المختلفة الأعداد للنيل منهم، وخاصة قوافلهم التجاريّة الذاهبة إلى الشام والآتية منه، ولكن كانت تلك القوافل تَفْلُتُ من قبضة المجاهدين.

وهذا سَرْدٌ موجز للعمليات الجهادية المهمة، أو ما هو في حكمها، منذ شروع رسول الله ﷺ بالتحرك بإرسال السّرايا إلى قُبَيْلَ (صلح الحديبية) في السنة السادسة للهجرة:

١) غزوة بدر الكبرى:

والتي حدثت في يوم الجمعة (١٧/رمضان/ السنة الثانية للهجرة)، وذلك

بعد أن خرج رسولُ الله ﷺ على رأس جيشٍ قِوامُهُ (٣١٤) مجاهداً لاعتراض قافلة تجارية لقريش راجعة من الشام بقيادة (أبي سفيان بن حرب)، لكن القافلة نَجَتْ بعد أن غيَّرتْ طريقَها، وجاء جيشٌ قوامه (١٠٠٠) رجل من (مكة) بقيادة (أبي جهل) غوثاً للقافلة، وبالنتيجة اصْطَدَمَ جيش الإيمان والكفر بعضهما ببعض في منطقة (بَدْر)، وتمخَّض الإصطدام عن هزيمة منكرة للشرك والمشركين، ونصرٍ مبين للإيمان والمؤمنين، إذْ قُتِلَ سبعون من صناديد مشركي قريش، أحدهم قائد الجيش (أبو جهل)، وأُسِرَ منهم سبعون، ورزق الله سبعة عشر مجاهداً، الشَّهادَةَ[1].

وقد أنزل الله تعالى سورة (الأنفال) كلَّها بمناسبة هذه الغزوة التي سمّاها العزيز الحكيم: ﴿...يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ...﴾.

كما أشار إليها في سورة (آل عمران) في موضعين:

١ - ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

٢ - ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران].

٢) إجلاء قبيلة بني قينقاع اليهودية من المدينة:

وذلك في (شوال) من السنة (الثانية) بعد أن نقضوا العهد المبرم بينهم وبين رسول الله ﷺ، وسنتحدَّث عن موضوع القبائل اليهودية الثلاث في نقطة خاصة، لِذا نمرُّ على ذكرها هنا سريعاً.

---

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٢، ص٢٥٧ إلى ٣٠٨، حيث ذكر تفاصيل غزوة بدر الكبرى.

٣) غزوة أُحد:

وسببها مجيء جيش المشركين من قريش وحلفائها، تعداده (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة (أبي سفيان)، ثأراً لما أصابهم يوم (بدر)، فخرج إليهم رسولُ الله ﷺ بعد مشاورته للصحابة، فكان رأْيُ أغلبيتهم الخروجَ إليهم، وليس البقاءَ داخل المدينة، كما كان رأيُ رسول الله وأقلية منهم، وذلك في صبيحة يوم السبت (٧/شوال/ السنة الثالثة)، وجعل ظَهْرَ جيشه نحو جبل (أحد)، وكان عدد المجاهدين، نحو (٧٠٠) مجاهد، بعد أنْ رجع (عبدالله ابن أبي بن سلول) رأس النفاق بِثُلُثِ الجيش أو أكثر، وسط الطريق، بذريعة أَنَّ رسولَ الله ﷺ لم يأخذ بمشورته في عدم الخروج من المدينة!

وقد أحرز جيشُ الإيمان نصراً باهراً في الجولة الأولى من المعركة وبدأ المشركون بالفرار، ولكن بعد أن أَخْلَت أكثريةُ الرماة الخمسين مَوْقِعَهُم الذي حدَّده لهم رسولُ الله ﷺ، وخالَفوا أمر رسول الله وأمرَ أميرهم (عبدالله)، ونزلوا لمطاردة فلول المشركين وجمع الغنائم، بالرغم من أن رسول الله ﷺ كان قد أوصاهم ألّا يُخْلُوا موقعهم (جبل الرماة)، سواء انتصر المسلمون أم بالعكس! أجل فبعد تلك المخالفة، انقلب الوضعُ، حيث انتهز كلٌّ من: (خالد بن الوليد) و(عكرمة بن أبي جهل) فرصة خلوِّ الموقع المذكور، وسيطرا عليه، وأصبح جَيشُ المشركين خَلْفَ ظَهْر الجيش الإسلامي، ولما علم المُنْهَزِمون منهم ذلك، رجعوا وثَبَتُوا، فَصار الجيشُ الإسلامي بين فكَّي الكمّاشة، وأصيبوا بارتباك شديد وانهزام، وبالنتيجة جُرِح رسولُ الله ﷺ في أكثر من موضع من جسده الشريف، وقتل خمسةٌ وستون من أصحابه[١] وجُرِحَ كلهم أو أكثرهم، وكان من بين الشهداء (حمزة) عمِّ رسول الله ﵁، والذي سمّاه رسول الله ﷺ: (سيِّد الشهداء)[٢].

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص١٣٣.

(٢) كما قال ﷺ: «**سيد الشهداء حَمْزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمام جائرٍ فأمره ونهاه فقتله**» رواه الترمذي والحاكم: ٢٣٠٨، أخرجه السيوطي في (الجامع الصغير) وصحَّحه: ٤٧٤٧، وأخرجه الألباني في السِّلسلة الصحيحة: ٣٤٧.

وقتل من المشركين (٢٢) شخصاً كما في بعض المصادر[١].

هذا وقد أنزل الله تعالى ستين (٦٠) آية من (آل عمران) ـ من الآية ١٢١ إلى ١٨٠ ـ تعليقاً على غزوة (أحد) وأحداثها[٢]، مُبَيِّناً حقائق عظيمة ودروساً وعبراً كثيرة، أهمُّها وأعظمها:

أن سبب هزيمة المؤمنين في (أحد)، إنَّما كان عِصيانُهم لله تعالى بمخالفة أمر رسول الله ﷺ، وهذا وإنْ قام به بعضهم، ولكن في الأمور الجماعية: ينسحب ضَرَرُ العصيان والمخالفة على الجميع، حتى ولو ارتكبه شخصٌ واحد، وقد نبَّه سبحانه على هذه الحقيقة وأشار إلى هذا الدرس في أكثر من آية، منها:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران].

٣ ـ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران].

وختم الله العليم الخبير تبارك وتعالى، التعليق على أحداث (أحد) بهذه الآية الجامعة في بابها:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

(١) المصدر السابق: ج٣، ص١٣٥.

(٢) لِتفاصيل غزوة أحد، انظر المصدر السابق: ج٣، ص٦٤ إلى ١٣٥.

وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ [آل عمران].

٤) **غزوة (حمراء الأسد):**

وهي الغزوة التي قام بها رسولُ الله ﷺ بعد أن بات ليلة بعد غزوة (أحد)، أي في يوم الأحد (٨/شوال) فخرجوا في أعقاب جيش المشركين حتى بلغوا (حمراء الأسد)، وأقاموا فيها ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى المدينة، وفيها نزلت الآيات (١٧٢ إلى ١٧٨) من (آل عمران) وكانت حرباً نفسية من الجانبين.

٥) **مأساة (الرّجيع) و(بئر معونة):**

وذلك في السنة الرابعة، إذْ أرسل رسولُ الله عشرة ـ ويقول ابن إسحاق كانوا ستة ـ من الصّحابة المُقرئين الدعاة ﷺ، في شهر (صفر) ثم سبعين ـ ويقول ابن إسحاق كانوا أربعين ـ آخرين ﷺ في الشهر نفسه، للدعوة إلى الله تعالى، وتعليم بعض القبائل دين الله الحق بعد تَعهّد بعض وجوه ورؤساء تلك القبائل بمحافظتهم والدفاع عنهم، ولكن في المآل قُتِلَ الدعاة العشرة في موقع يُسمَّى (الرجيع)، كما وقُتِلَ السبعون في موقع يدعى (بئر معونة)، وقد اغتمَّ رسولُ الله ﷺ لهذين الغَدْرَيْن كثيراً، ودعا على تلك القبائل الغادرين بأصحابه شهراً[(١)].

وهكذا قُتِلَ من المسلمين بيد الكفار عن طريق الغدر والحيلة والخِداع (٨٠) رجلاً! وهو رقم قريبٌ من مجموع مَنْ قُتِلَ منهم في غزوتي: (بَدر) و(أُحُد)! وهذا دليلٌ على مَدى ظَفَر أهل الكفر بأهل الإيمان، عن طريق الغدر ونقض العهد والحيلة والخِداع!

٦) **إجلاءُ بني النَّضير:**

وحدث هذا في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة، بعد أن نقض بنو النَّضير الميثاق المبرم بينهم وبين المسلمين، كما سنتحدث عنه لاحقاً.

(١) انظر: (السيرة النبوية الصحيحة) د. أكرم ضياء العمري، ج٢، ص٣٩٨ إلى ٤٠١.

٧) غزوة بدر الثانية:

وذلك في شعبان من السنة الرابعة، حيث خرج رسولُ الله ﷺ لموعده مع (أبي سفيان) في (١٥٠٠) مجاهداً، وخرج أبو سفيان في (٢٠٠٠)، ولكن أبا سفيان رجع من الطريق، بعد أن بلغ (مَرّ الظهران)، وبقى جيش الإسلام أياماً في بدر منتظراً، ثم رجعوا إلى المدينة[١].

٨) غزوة (دومة الجندل):

وكانت في ربيع الأول من السنة الخامسة، حيث خرج رسولُ الله ﷺ لخمس ليالٍ بقين من ربيع الأول في (١٠٠٠) مجاهدٍ إلى أن بلغ دومة الجندل، ولكنه لم يلق قتالاً، فرجعوا إلى المدينة[٢].

٩) غزوة الأحزاب (الخندق):

وكانت في شهر شوال من السنة الخامسة[٣]، وذلك بعد أن جاءَ جيش بقيادة (أبي سفيان) مكوّن من مشركي قريشٍ ومن عاونوهم من القبائل المشركة، كغطفان وهوازن وغيرهما، وبتحالفٍ وتنسيق مع يهود خيبر وبني قريظة فيما بعد، وكان عدد جيوش الأحزاب أكثر من عشرة آلاف[٤]، وقد اطَّلع رسولُ الله ﷺ من طريق مخابراته النشيطة على خبر مجيء الأحزاب مُبَكِّراً، ولـمّا شاوَرَ الصَّحابة ﭫ، أشاروا عليه بالتحصُّن داخل المدينة، وأشار عليه (سلمان الفارسي) ﭬ بِحَفْر الخندق، كما كان أهل فارس يفعلون عندما يهجم جيشٌ عدوٌّ على مدينة غير مسوَّرة، وفعلاً نَفَّذ رسول الله ﷺ تلك الخطة، وحفروا خندقاً عميقاً عريضاً في الجهتين غير المُحَصَّنتين من المدينة المنوَّرة، ولما جاءت الأحزاب، فوجئوا بتلك الخطة التي لم يكن لهم بها عهد من قبل.

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٤٠١، ٤٠٢.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٤٠٢.
(٣) المصدر السابق ج٢، ص٤١٨.
(٤) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٣، ص٢٣٠.

وقد حاصر الجيش الغازي مدينةَ رسول الله ﷺ حصاراً شديداً دام شهراً أو نحوه، ولكن لم يحدث خلاله قتالٌ يذكر، باستثناء عبور ثلاثة من فرسانهم مكاناً ضَيِّقاً من الخندق، أحدهم (عمرو بن ودّ) من أشجع فرسانهم وأهيبهم مُطالِبين بالمبارزة، فبارزهم ثلاثة من أبطال الإسلام المهاجرين، بعد أن رفضوا مبارزة ثلاثة من أبطال الإسلام الأنصار الذين أرسلهم لهم رسولُ الله ﷺ، بذريعة أنهم يريدون أكفاءَهم من قريشٍ، فأرسل لهم رسولُ الله (علياً) واثنين آخرين رضي الله عنهم، وقتل (علي) رضي الله عنه (عمرو بن ود)، وكذلك قُتِلَ الإِثنان الآخران بيد البطلين الآخَرِيْنِ من أبطال الإِسلام.

هذا وقتل نتيجة المُراماة بالنَّبل بين الطرفين عددٌ من الجانبين، وجُرِح (سَعْدُ بن مُعاذٍ) رضي الله عنه، ونَقَضَ (بنو قريظة) العَهْدَ في تلك الأثناء واشتدَّت الوطأة على المسلمين جِدّاً من جرّاء ذلك الغدر اليهودي، وذلك بسبب خوفهم على نسائهم وأطفالهم، الذين لم يكن بينهم وبين اليهود حاجِزٌ!

وقد وصف الله تعالى تلك الأزمة الشديدة والحالة العصيبة بقوله:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب].

ولكنَّ أخيراً جاءَ المسلمين الفَرَجُ، وذلك وبعد أن طال الحِصارُ من غير جَدْوى، وحَصَلَتْ حالَةُ انعدام الثقة المتبادلة بين الجيوش المحاصرة وبين بني قريظة، بسبب الدور الحكيم الذي لَعِبَهُ (نُعَيم بن مسعود الثقفي) رضي الله عنه، والذي أسلم خلال فترة الحصار، ولم يَعْلَمْ بإسلامه لا الجيوش الغازية ولا اليهود الغادرون، وذلك لما جاءَ إلى رسول الله ﷺ مُعْلِماً إيّاهِ بإسلامه ومُبْدياً استعداده لأداءِ أيِّ وظيفةٍ، فقال له رسول الله الحكيم المسدَّدُ بالوحي:

(إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فَخَذِّلْ عنّا إن استطعت، فإن الحرب

خُدعَةٌ)[1].

وفعلاً ذهب (نُعَيمٌ) إلى بني قريظة في صورة ناصحٍ مُشْفِقٍ ـ كما كان لهم من قبل ـ وخوَّفهم قائلاً:

قد يرجع أبو سفيان وجيشه بعد أيّام، ويترككم وشأنكم مع (محمَّدٍ)، فاقترح عليهم أَلّا يقوموا بأَيِّ نشاط عسكريٍّ قبل أن يأخذوا رهائن من الجيوش الغازية، كي لا يتركوهم إلى مصيرهم، فقبِلوا اقتراحه وصدَّقوه، وبعد ذلك ذهب إلى الطرف الآخر، وقال لهم: قد علمتم نصحي لكم، والآن جئتكم لأنّني سمعتُ بأن بني قريظة نَدموا على نقضهم العهد مع (محمَّد) وأرسلوا إليه أن يصالِحوه، ولكنّه اشترط عليهم أن يأخذوا منكم رجالاً من أشرافكم كرهائن، ويُسَلِّموهم له كي يقتلهم، فإذا سألوكم ذلك فإيّاكم أن تُعْطوهم أحداً! فقبلوا قَوْلَه وصدَّقوه.

وفي الغَدِ ـ وكان يوم السّبت ـ وعندما أرسل قوَّاد الجيوش الغازية إلى بني قريظة يطالبونهم بالشروع بالعمل العسكري، كي يطعنوا المسلمين من الخَلْف، أجابوهم بأن اليوم يوم السبت، فلا نعمل فيه شيئاً، ثم إننا لا نَثِقُ بكم أن تتركونا وشأننا وتَخْذُلونا، لِذا فلا نعمل شيئاً حتى تُسلِّمونا رهائِنَ من أشرافكم، يكونون معنا في حصوننا!

وهنا اقتنَع قوّاد الجيوش الغازية بنصيحة (نُعَيْم) وقالوا: قد تحقَّق ما تنبَّأ به، ورفضوا أن يعطوهم ولو رجلاً، وبعد هذا الرفض اقتنع اليهود كذلك بما نصحهم به (نعيم) ﷺ، ووقع بين المحاصرين والغادرين إِنعدام الثقة بل وسوءُ الظن![2].

وبالإضافة إلى هذا بل قبله وفوقهُ، فقد سخَّر المولى العزيز الرحيم جلَّ شأنه، سببين آخرين لتفريق الأحزاب وفَكِّ الحصار، وعودتهم خائبين، وهما[3]:

---

(١) (السيرة النبوية)، لابن هشام، ج٣، ص٢٤٠.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٢٤٠ إلى ٢٤٢.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٢٤٢، ٢٤٣.

أولاً: إرسال ريح شديدة باردة على معسكر الأحزاب بحيث كانوا لا يقدرون على نَصْب خيمة أو إيقادِ نارٍ.

ثانياً: إنزالُ ملائكة يَشُدُّون من عَزْمِ المؤمنين، ويُلْقون الرُّعب واليأسَ في قلوب الكفّار، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ [الأحزاب].

وهكذا فرَّج الله تعالى عن المسلمين ذلك الكَرْبَ الشديد، سبحانه ما أرحَمَه وألْطَفَه وأرْأَفَه بأهل الإيمان، وما أحسَن وأحكَمَ تدبيرُهُ لهم!

١٠) غزوة بني قريظة:

وبدأت في اليوم التالي لانفكاك الحصار في شهر (ذي القعدة) من السنة الخامسة، كما سنتحدث عَنْها لاحقاً بإذن الله تعالى.

١١) غزوة بني المصطلق (أو المريسيع):

وحدثت هذه الغزوة في (شعبان) من السنة الخامسة، أو بداية السنة السادسة حسب رأي (ابن إسحاق)[١].

وسبَبُها[٢]:

أن رسولَ الله ﷺ وَصَلتْهُ معلومات بأن (بني المصطلق) يجمعون له الجموع للهجوم على المدينة، فجهَّز رسولُ الله ﷺ جيشاً وباغتهم على ماءٍ يقال له (المُرَيْسيع)، فتفرَّقوا ولم يتمكَّنوا من المقاومة، وتركوا إبلاً ومواشي، فَغَنِمَها منهم، ورجع قافِلاً إلى المدينة، وفي أثناء هذه الغزوة وقعت حادثة الإفك المشهورة، التي نزلت بسببها بداية سورة (النّور) من الآية (١ إلى ٢٦).

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص٣٠٢.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٣٠٢.



١٤ ـ إخراج القبائل اليهودية الثلاث من المدينة: بني قينقاع، وبني النَّضير، وبني قريظة، بعد الخيانة ونقض العهد

ذكرنا من قبل أن رسولَ الله ﷺ لما استقرَّ به المقام في المدينة، أَبْرَم عهداً وميثاقاً بينه وبين القبائل اليهودية وبعض المشركين في المدينة، على أساس المواطنة والإحترام المتبادل، والتعاون في الدفاع عن المدينة، عند تعرُّضها لعدوان خارجي.

ولكن القبائل اليهودية الثلاث، فعلوا ضِدَّ ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ والدولة الإسلامية تماماً، إذ اتصلوا بقريش وغيرها من القبائل المشركة سِرّاً، وحرّضوهم على قتال المسلمين، ووعدوهم بالمساعدة كي يستأصلوا نبتة الإسلام من جذورها، وقد فصّل كُتّاب السِّيرة القول في تلك الإِتصالات والإِرتباطات والمكايدات اليهودية(١).

ومن الواضح أنَّ هذا السّبب وحده كافٍ لإدانة تلك القبائل اليهودية الحاقدة الحاسدة، ولكن رسول الله الحليم الحكيم ﷺ، كان صبوراً تجاههم ويكظم غَيْظَه لعلَّهم يهتدون أو يرجعون إلى رُشْدِهم، ويوفون بعهودهم ومواثيقهم التي اتفقت الشرائع السماوية كلُّها على الإلتزام بها، علاوةً على العقل السليم، وكان ﷺ يُنبِّههم ويحذِّرهم مراتٍ من مغبَّةِ الخيانة ونقض العهد، ولكن دون جَدْوى.

---

(١) أُنظر: (السيرة النبوية الصحيحة) د.أكرم ضياء العمري، ج٢، ص٢٩٩ إلى ٣١٣.

هذا بالإضافة إلى هذا السبب العام ـ والذي يكفي وحده لإدانة اليهود، واتخاذ ما يَلْزَمُ من الإجراءات بحقهم ـ فقد كان لمعاقبة كل من القبائل الثلاث من قبل الكيان الإسلامي، سبب آخر أو أكثر من سبب.

وهذا توضيح موجز لأسباب مُعاقبة رسول الله ﷺ لتلك القبائل الثلاث:

١) بني قينقاع:

عند رجوعه ﷺ من غزوة بدر، التقى بنفرٍ من يهود بني قينقاع في السوق، فحذَّرهم من التمادي في الخيانة والعِداء، وذَكَّرهم بما أصاب الله تعالى به مشركي (قريش)، ولكنَّهم أجابوه جواباً قبيحاً، قائلين:

«يا محمَّد إنك ترى أنّا قومُكَ؟ لا يَغُرَّنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فُرْصَةً، إنّا والله لئن حاربناك لتعلمُنَّ أنّا نحن الناس!»[١].

ثم لم يكتفوا بهذا أيضاً بل أضافوا إليه الإهانَةَ بامرأة مسلمة ذهبت إلى صائغ منهم، فطلبوا منها كَشْفَ وجهها فأَبَتْ، فَرَبَط أحدُهم وهي جالسة لا تدري طَرَفَ ثوبها بظهرها، فلما قامت انكشفت عورتها ـ أي جِسْمها الذي هو عورة ـ فضحكوا منها، فصاحت وقام رجلٌ مسلمٌ إلى ذلك اليهودي، فقتله وقام اليهود إلى ذلك المسلم فقتلوه[٢].

وعند ذلك أَنذرهم رسولُ الله ﷺ وآذنهم بالخروج من المدينة، وألّا يساكِنوهُ فيها، فَأَبَوْا ورفضوا، فحاصرهم رسولُ الله خمس عشرة ليلة، من يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية إلى هلال ذي القعدة، وأخيراً رَضُوا بالجَلاءِ، بعد ما يئسوا من المقاومة، فَأُخرِجوا على أن يأخذَ كل منهم حِمْلَ بعيرٍ، ويتركوا السِّلاح[٣].

---

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٣، ص٥٠.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٥١.
(٣) نفس المصدر، ج٣، ص(٥١، ٥٢).

وقد أورد (النيسابوري) في (أسباب النزول)[1] وكذلك (السيوطي) في (لُباب النقول في أسباب النزول) أن قوله تعالى:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

نزل في بني (قينقاع)[2].

٢) بني النَّضير:

وسبب إجلاءِ رسولِ الله ﷺ إيّاهم من المدينة، بالإضافة إلى السبب العام الذي سبق ذكره، هو:

أن رسولَ الله ﷺ ذهب إليهم يَطْلُبُ منهم أن يُعينوه في دفع دية قتيلين قتلهما بعضُ الصّحابة خطأً، فوعدوه أن يعينوه، وقالوا: إجلِسْ ساعةً كي نجمعَ لك المال ـ وكان التعاون المالي أحد بنود الاتفاقية المُبْرمَة بين الطرفين الإسلامي واليهودي ـ وقعد رسولُ الله ﷺ في ظلّ جدارٍ، وكان معه بعض أصحابه، ثم دَبَّر له اليهودُ محاولَة اغتيالٍ، حيث أرادوا إلقاءَ (رَحًى) عليه من فوق السطح، وقُبَيْلَ تنفيذ المؤامرة، أُعلِمَ بها رسولُ الله ﷺ، إذْ أَخْبَرتْ امرأةٌ يهوديةٌ أخاها المسلم، الذي يسكن المدينة، بما أَزْمَعَ اليهودُ على فعله، وأخبر الرجلُ المسلم بدوره رسولَ الله ﷺ، وقيل بل أخبره جبريل عليه السلام، ولما علم ذلك رسولُ الله، عاد مُسْرِعاً إلى المدينة، وظَنَّ مَنْ معه من الصحابة أنه لَهُ حاجة، وسيرجِعُ إليهم، ولما طال غيابُهُ بحثوا عنه، فعلموا أَنَّهُ رجع إلى المدينة، ولما رجعوا أخبرهم الخَبَرَ، وجَهَّز جيشاً، وحاصرهم مدةً، فلمّا يئسوا من المقاومة، ومن إمداد (عبدالله ابن

---

(١) نفس المصدر، ج٣، ص(٥١ و٥٢).

(٢) قال السيوطي: رواه أبو داود في سننه والبيهقي في (دلائل) من طريق ابن إسحاق عن إبن عبّاس رضي الله عنهما، ص٥٤، رقم: ١٨٠. وانظر: سنن أبي داود: ٣٠٠١.

أبي ٱبن سلول) وجماعته المنافقة لهم ـ حيث وعدهم أن يقاتل معهم وأن يخرج معهم ـ، تنازلوا ورضوا بالجلاء.

وقد روى البخاري عن (عبدالله بن عباس) ﷺ أن سورة (الحَشْر) كلّها نزلت في حادثة (بني النَّضير)[1].

وقال تعالى مُبَيِّناً وَعْدَ المنافقين لليهود، ثم إخلافَ وعدهم، وجُبْنَ كلٍّ من اليهود والمنافقين، أمام أهل الإيمان من المهاجرين والأنصار:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر].

٣) بني قريظة:

وأما بنو قريظة فقد تحدثنا سابقاً عن نقضهم العلني للعهد، وقد حثَّهم عليه (كعب بن الأشرف) رئيس يهود خيبر، بعد أن جاء مع الأحزاب وحاصروا المدينة، ولما أرسل إليهم رسولُ الله ﷺ من يستفسر منهم: هل أنهم باقون على عهدهم أم لا؟ أجابوه شرّ جواب، وأعلنوا نقضهم للعهد وعداوتهم لرسول الله ﷺ وأهل الإسلام، واغتمَّ الرسول ﷺ والمؤمنون لهذا الخبر، اغتماماً شديداً لخطورة الموقف.

ولهذا خرج إليهم رسول الله بعد انفكاك الحصار مباشرةً، في ذي

(١) (صحيح البخاري): ٤٤٨٢.

القعدة من السَّنة الخامسة، فحاصرهم مدّة خمس وعشرين ليلة[1]، إلى أن نَزَلوا أخيراً على حكم (سعد بن مُعاذ) سيّد الأوس ﷺ، وكان جريحاً، فجاء راكباً حماراً، ولما أخبره الرسولُ ﷺ أنه مُخَوَّلٌ من الجانبين، في الحكم في بني قريظة، قال:

«**لقد آنَ لِسَعْدٍ ألّا تأخذَهُ في الله لومة لائم**»[2] ثم حكم فيهم بأن تُقْتَلَ مقاتلتهم وتُسْبى ذُراريهم[3]، وقال رسول الله ﷺ:

«**لقد حَكَمْتَ فيهم بحكم الله مِنْ فوق سبع أرقعةٍ**»[4] مؤيِّداً حُكْمَهُ، ثم نُفِّذ في رجالهم حكم القتل، لِما ارتكبوه من خيانةٍ ونقض عهدٍ، وسُبِيَتْ نِساؤهم وأطفالُهم.

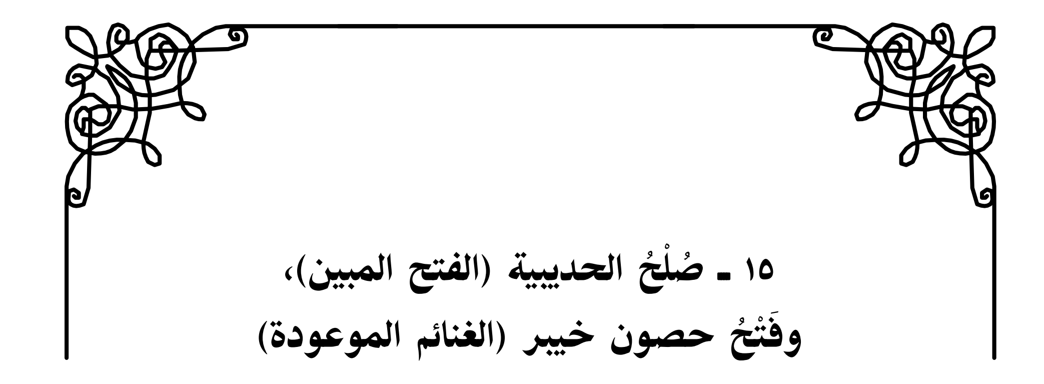
وقد أنزل الله تعالى في إفشالِهِ الأحزابَ من تحقيق غَرَضِهِم، وفي إنزاله بني قريظة الغادرين من حصونهم، ثم قتلهم وأسرهم، وجعل أموالهم وديارهم وأراضيهم غنيمة لأهل الإسلام، قوله الكريم:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وهكذا تخلَّص المسلمون من أولئك الخونة الغادرين ـ القبائل اليهودية الثلاث ـ الذين كانوا بِحَقٍ خناجر مسمومة في خاصرة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، بعد أن نَفَدَتْ كلُّ سهامهم الغادرة، التي رموا بها الإسلامَ والمسلمين، ولَقَوْا بِيَدِ الكيان الإسلامي العزيز الحكيم، عِقابَهم العادل، وانطبق عليهم المثل القائل: (وعلى نفسها جَنَتْ براقش).

---

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٣، ص٢٤٦.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٠.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٢٥١.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص٢٥١.



١٥ ـ صُلْحُ الحديبية (الفتح المبين)، وفَتْحُ حصون خيبر (الغنائم الموعودة)

أ) صُلْحُ الحديبية:

خرج رسولُ الله ﷺ في ذي القعدة من السنة السادسة مع (١٤٠٠)[١] من أصحابه رضوان الله عليهم، متوجهاً نحو (مكة) بِنِيَّة العُمْرة، ولما سَمِعَتْ به قريش (أي مُشْرِكوها) قرّروا اعتراضَ طريقهم وعدم السماح لهم بدخول مكة، ولو كانوا معتمرين، وقد تحاشى رسولُ الله ﷺ جهده الإصطدامَ بهم، وذلك بسلوك طريق غير معتاد، وغير ذلك من التدابير.

ثم دخل الجانبان في المباحثات والتفاوض، وبالنتيجة تمخّضَتِ المباحثات عن صلح، سمِّي فيما بعد بـ(صلح الحُدَيبية)، لأَن الموقع الذي جرى فيه الإتفاق، كان اسمه (الحديبية)، وأنزل الله تعالى على رسوله سورة (الفتح)[٢] المباركة كلّها بين مكة والمدينة، في شأن ذلك الصلح وما اكتنفته من الحوادث، وسَمَّى الله تعالى ذلك الصّلح الذي كان ثقيلاً جِداً على

(١) المصدر السابق، ج٣، ص٣٢٢.

(٢) كما قال النيسابوري في (أسباب النزول) ص٢١٩، والسيوطي في (لُبابُ النقول في أسباب النزول) مُسْنِداً رواية ذلك إلى الحاكم وغيره، عن المسور بن مخْرَمة، ص٢٣٦ رقم: ٨٣٤، وأخرج هذا الخَبَر: أحمد: ٤٤٢١ وأبو داود: ٤٤٧ والنسائي: ٨٨٥٤، وابن أبي شيبة في مُصَنَّفِهِ: ٣٦٨٦٢.

قلوب الأصحاب كلِّهم أو أغلبيتهم الساحقة: (فَتْحاً مُبيناً)، حيث قال تعالى في أول سورة (الفتح): ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح].

وقد اشتمل الصُّلحُ المذكور، على هذه البنود:

١. **يرجع المسلمون عامَهم هذا، ولا يدخلون مكة.**

٢. **في العامِ القابِلِ يعتمر المسلمون ويأتون بغير سلاح الحرب.**

٣. **الطّرفان يُوقِفون القتالَ بينهم، ويدخلون في هُدْنةٍ مُدَّتها عَشْرُ سنوات.**

٤. **الناس أحرارٌ في الدخول في حلف رسول الله ﷺ أو حِلْف قريش**[(١)].

٥. **مَنْ أسلم من الكفار ـ أي من قريش وحلفائها ـ يجب على المسلمين ردّه إليهم.**

٦. **ولكن مَن ارتدَّ من المسلمين، لا يُلْزَمُ الكفّارُ بردّه إليهم**[(٢)].

هذا ولم يرض مُمَثِّل قريش (سُهَيلُ بن عمرو) لا بكتابة (بسم الله الرحمٰن الرحيم) ولا (محمَّد رسول الله) بل كتبوا: (باسمك اللّهم) و(محمَّد بن عبدالله) ﷺ[(٣)].

وإنّما ثَقُلَ هذا الصُّلح على قلوب الصحابة ﷺ، باستثناء (أبي بكر الصديق) حسبما هو معلوم من موقفه ﷺ، لِعدّة أسباب:

أولاً: تَحلُّلُهم من إحرامهم، وذَبْحِ هديهم في الحديبية، وعدم وصولهم إلى مكة ومواقع المناسك.

ثانياً: إلزامُ الكفّار إيّاهم إرجاعَ مَنْ يُسْلِمُ منهم إليهم، ومِمّا زاد هذا البند ثقلاً على قلوبهم، هو أن (أبا جندل) ابن (سهيل بن عمرو) جاءً مسلماً بعد التوقيع على المعاهدة، وطالب (سهيل) به بإلحاحٍ، ولم يقبل طَلَب

---

(١) ودخلت قبيلة (خزاعة) في حِلْف رسول الله ﷺ! و(بنو بكر) في حِلْف (قريش) وكانتا متنازعتين، كما في (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٣، ص٣٣٢.

(٢) (السيرة النبوية) لابن هشام: ج٣ ص٣٣١ إلى ٣٣٣.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٣٣٢. وانظر: صحيح البخاري: ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

رسولِ الله ﷺ فيه، وصاح (أبو جَنْدل) كيف تردّوني إليهم ليفتنوني عن ديني؟!!

ثالثاً: إخبارُ الرسول ﷺ إيّاهم إبّان خروجهم من المدينة بنية العمرة، بأنه رأى في المنام أنه قد زار البيت الحرام معتمراً، وتوقّع المسلمون بأن رؤياه ستتحقق في العام نفسه، فلما لم تتحقق، أصابهم قَلَقٌ، ووقعوا في نوعٍ من الحيرة!

ولكن سُرْعان ما تبيَّن أن هذا الصلح، فعلاً كان فتحاً مبيناً للإسلام والمسلمين، وحقَّق لهم مكاسِبَ عظيمة، ثم اعترفوا بما كان لرسول الله المُسدَّدِ بالوحي، مِنْ بُعْدِ النَّظَرِ وَالحصافَةِ والحكمة، في قبوله التوقيع على بعض بنود الصلح التي تبدو للنظر السّطحي، بأنها مُجْحِفة بحق المسلمين وفيها تنازل، حيث ثبت لهم فيما بعد، أن ما رأوه مُجْحِفاً، كان فيه أعظم مكسب لهم.

أما ردّ مَن يُسْلِمُ مَنْ الكفار إليهم، كأبي جَنْدَل وأبي بصير وأمثالهما، فأصبح فيما بعد وبالاً على قريش، إذْ خرج هؤلاء الذين يُسْلِمون وليس للمسلمين حق إيوائهم، إلى المواقع التي تمرُّ بها القوافِلُ التجارية لقريش، يَقْطَعون عليها الطريقَ، وأخيراً ناشَدَتْ قريشٌ رسولَ الله ﷺ أَلله والرَّحِمَ أن يُؤويَ أولئك العصابات القاطعة لطرقها، وفعلاً أمرهم رسولُ الله ﷺ بالمجيء إلى المدينة على رغم أنف الكفار، ومتنازلين عن شرطهم الذي شرطوه على رسول الله ﷺ!

وقد فَسَحَ وَضْعُ الحربِ والدخول في هدنة مع العدوِّ الأكبر، المجالَ للدعوة الإسلامية، وأصبح سبباً لعَدَم تخوُّفِ القبائل الأخرى من الدخول في الدين الجديد، الذي قبلت به قريشَ كأمرٍ واقع، ودخلت معه في صلحٍ وتفاهم، وهذا يعني بكل المقاييس، استسلامَها لِسُلْطانه.

وأما عدم تحقُّق رؤيا رسول الله ﷺ في نفس ذلك العام، فقد بيّنه لهم رسولُ الله عندما سألوه عن هذا، بأنه لَم يَقُلْ هذا العام، وسَيَتَحَقَّقُ العام القادم، وأنزل الله تعالى بذلك الصَّدد قوله:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

ومن الحوادث التي حدثت في تلك الواقعة العظيمة:

١ ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ أرسل (عثمان بن عفّان) ﷺ مُمَثِّلاً عنه إلى (مكة) من أجل التفاوض، ثم بلغهم بأن المشركين قد قتلوا (عثمان) ﷺ، وهناك طلب الرسولُ من الأصحاب، أن يبايعوه على القتال، وأكَّد بأنَّه إذا صحَّ ذلك الخَبَرُ: (لا نرجعُ حتى نُناجزَ القوم)، فبايعه المسلمون كلُّهم، باستثناء رجلٍ من المنافقين، فأنزل الله تعالى بشأن تلك المبايعة، قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح].

وكذلك أنزلِ قوله الكريم:

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح].

ثم تبيَّن عَدَمُ صِحَّةِ ذلك الخبر، ورجع إليهم عثمان ﷺ سالماً[١].

٢ ـ وقَعَتْ حادِثةٌ أخرى في الحديبية، وهي، كما رواه مسلم والترمذي والنسائي[٢] عن أنس بن مالك ﷺ:

أن ثمانين رجلاً مسلَّحين من أهل مكة هبطوا على رسول الله وأصحابه

(١) المصدر السابق، ج٣، ص٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) صحيح مسلم: ١٤٤٢، ١٨٠٨، وسنن الترمذي: ٣٢٦٤، وسنن النسائي: ١١١٥٠، وأورد هذه الحادثة في (أسباب النزول): السيوطي والنيسابوري في كتابيهما، انظر: (لباب النقول) ص٢٣٦، رقم: ٨٣٧، وأسباب النزول للنيسابوري، ص٢٢١.

من (جبل التنعيم) يريدون غِرَّةَ رسول الله ﷺ ـ أي الظَّفَر به على حين غفلة ـ ولكن أَخذهم المسلمون أسرى، فمنَّ عليهم رسولُ الله وأَطْلَق سَراحَهم، وأنزل الله تعالى في تلك الحادثة قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح].

٣ ـ وبيَّن الله تعالى للمسلمين حكمة عدم تقديره القتال مع قريش والصِّدام معها في تلك الواقعة، وهي وجود عدد من أهل الإيمان رجالاً ونساءً في (مكة) كيلا يتضرّروا بالقتال، بقوله:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح].

٤ ـ وقد وصف سبحانه الحالة النفسية لكل من الكفّار والمؤمنين في تلك الواقعة السياسية العظيمة، بقوله:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح].

وهكذا عَبَر المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ الرشيدة السديدة، تلك الأزمة بسلام، بل بنجاح باهر، وبمكاسب كان لها أعظم الأثر وأبعده في مستقبل الإسلام والمسلمين[(١)].

(١) وقد أورد البخاري حادثة صلح الحديبية في صحيحه بطولها، صحيح البخاري: ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

ب) فتح حصون خيبر:

كان لِيَهُود خيبر بقيادة زعيمهم (كعب بن الأشرف) دور كبير في تحريض القبائل المشركة على المسلمين عموماً، وفي غزوة الأحزاب بصورة خاصة، كما أشرنا إليه من قبل، ولهذا كانوا مستحقين للعقاب الإسلامي الحازم والصارم، ولهذا فَإِثْرَ عودته من الحديبية، جَهَّز رسولُ الله ﷺ جيشاً لمحاربة يهود خيبر الخونة الغادرين، وسار إليهم في: (محرَّم من السنة السابعة) وبعد قتال استمرَّ أسابيع، فُتِحَتْ كلُّ حصونهم الواحد تِلْو الآخر، وهكذا انتُزِعَتْ من جسم الجزيرة العربية، آخِرُ غُدَّةٍ يهودية خبيثة، حيث إمّا استسلموا أو فَرّوا[1].

وبعد فتح حصون خيبر المنيعة، وصل (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه مع وفد مكوَّن من خمسين رجلاً من (الأشعريين) ومن ضمنهم (أبو موسى الأشعري) رضي الله عنه، وقال رسول الله ﷺ حينئذٍ، بعد أن الْتَزَم جعفر وقبَّل بين عَيْنيه:

(ما أدري بأيّهما أنا أُسَرُّ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر!)[2].

هذا والمقصود بـ(الغنائم الموعودة المعجَّلة) في قوله تعالى:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح].

هو غنائم خيبر، كما قال جميع أهل السيرة والتفسير[3].

وأما بالنسبة لـ(كعب بن الأشرف) فقد أرسل رسول الله ﷺ مفرزة

---

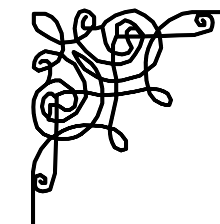
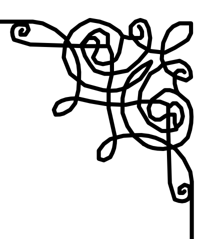
(١) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٣، ص٣٤٢ إلى ٣٥٣.
(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٣.
(٣) أنظر: (روح المعاني) ج١٣ ص٣٥٧، وروى تقسيم مغانم خيبر: أحمد في مسنده: ١٥٥٠٨، وأبو داود في سننه: ٣٠١٥، والحاكم في المستدرك: ٢٥٩٣.

بقيادة (محمَّد بن مسلمة) ﷺ فاغتالوه، حيث كان علاوة على عداوته الشديدة وتأليبه الكفّار ضد الإسلام والمسلمين، يتشبَّب بنساءِ المؤمنين ـ أي يهجوهُنّ شعراً ـ وقد ضاق رسول الله بتصرّفه اللئيم ذلك ذرعاً، وقال يوماً:

[**مَنْ لكعب بن الأشرف، فقد آذى الله ورسولَه؟ فقام (محمد بن مَسْلمة) فقال: يا رسول الله: أتُحِبُّ أن أَقْتُلَهُ؟ قال: نعم، قال: فَأْذَنْ لي أن أقولَ شيئاً، قال: قُلْ**][1]، وَقَصْدُ (محمَّد بن مَسْلمة) هو أن يقول ما يُطَمْئِنُ ذلك الكافِرَ، حتى يتمكَّن مِنْ قَتْلِه.



(١) (صحيح البخاري): ٤٠٣٧.

١٦ ـ مكاتبة رؤساءِ الدّول والملوك

بعد رجوعه من الحديبية، وتوقيع اتفاقية الصلح مع قريش، شَرَعَ رسولُ الله ﷺ بكتابة رسائل إلى رؤساء الدول والملوك المعروفين والمجاورين لحدود الدولة الإسلامية آنذاك، وذلك في أواخر السنة السّادسة.

وإنّما قَدَّمْنا ذكر فتح حصون خيبر على ذكر كتابة الرّسائل إلى الرؤساء والملوك، لأنّ الله تعالى ذكر غزوة خيبر مع صُلح الحديبية كحادثتين متصلتين بعضهما ببعض، في سورة الفتح المباركة، وإلّا ففتح خيبر تم في محرم السنة السابعة، أي بعد شهر أو أكثر من الرجوع من الحديبية وكتابة الرسائل.

والرؤساء والملوك الذين كتب لهم رسولُ الله ﷺ يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام، هم[١]:

١) **النجاشي (أصحمة بن الأَبْجَر) ملك الحبشة.**

٢) **المقوقس (جُرَيج بن متَّى) ملك مصر.**

٣) **كسرى، ملك فارس.**

٤) **قيصر، ملك الروم.**

٥) **المنذر بن ساوى، حاكم البحرين.**

---

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٤، ص٢٥٤، ٢٥٥.

٦) **هوذة بن علي، صاحب اليمامة.**

٧) **الحارث بن أبي شمر الغساني، صاحب دمشق.**

٨) **جيفر وأخوهُ عِياذ، إبني الجُلَنْدي، ملكي عُمّان.**

٩) **الحارث بن عبد كُلال الحميري، ملك اليمَن.**

ومحتوى تلك الرسائل (الكتب) كان يتلخَّصُ في دعوة أولئك الرؤساء الممثِّلين لدولهم وأُمَمِهم وشعوبهم، إلى دين الله الحق (الإسلام)، ونَبْذِ الأديان الباطلة المتمثّلة في الشرك بأنواعه، من تأليه الطواغيت من البشر إلى تأليه بعض الصالحين، وعبادة الكواكب والنجوم والأصنام والأوثان وغير ذلك.

هذا واختلفت أجوبة أولئك الرؤساء، بين مستجيب لدعوة الرسول ﷺ والدخول في الإسلام كـ(المنذر بن ساوى) حاكم البحرين، و(الحارث بن أبي شَمَّر الغسّاني) صاحب دمشق، و(جيفر) ملك عُمان، وبين مُكْرِمٍ لرسالة الرسول ﷺ وسفيره ومُتَرَيِّثٍ في الأمر، كـ(المقوقس) ملك مصرٍ، وبين رافضٍ للدعوة ومُمَزِّقٍ للرسالة، كملك فارسٍ.

ولكن على أي حال، فقد قَرَعَ رسولُ الله ﷺ آذانَ تلك الدول، وأُمَمِها وشعوبها، بدعوة التوحيد ودين الله الحق، تمهيداً لما قام به خلفاؤُه الراشدون من بعده، وإقامة للحجّة على تلك الرؤساء والدول، وتحفيزاً لهم للبحث عن الإسلام والتعرُّف عليه.

وقبل أن ننتقل إلى المطلب السابع عشر الذي نتحدَّث فيه عن (فتح مكة وغزوة حنين)، نشير إلى حادثتين مُهمَّتيْن سبقتا فتح مكة:

الأولى: عمرة القضاء[1]:

وذلك في ذي القعدة من السنة السابعة، حيث توجّه رسولُ الله ﷺ

(١) (السيرة النبوية الصحيحة)، ج٢، ص٤٦٤.

حسب الإتفاق المبرم مع قريش، مع ألفين من أصحابه إلى مكة، وبعد إتمام مناسك العمرة والبقاء ثلاثة أيام في مكة، وكان ذلك مذكوراً في الإتفاق أيضاً، رجع إلى المدينة ـ وقد ترك بعضُ رؤساء قريش مكة تلك الأيام كراهة رؤية رسول الله ﷺ وصحابته ﷺ ـ، وهكذا تحققت رؤيا رسول الله ﷺ، وبهذه المناسبة نَزَلَ قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

الثانية: معركة مؤتة[١]:

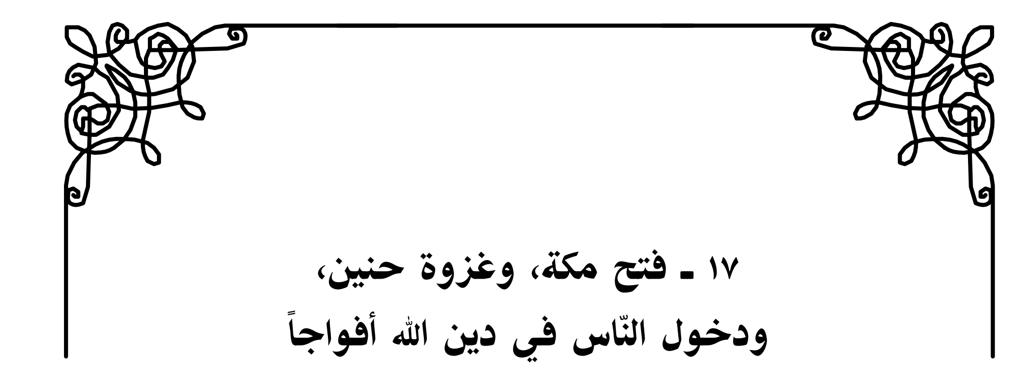
وذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة، إذْ أرسل رسول الله ﷺ جيشاً قِوامُهُ ثلاثة آلاف مجاهد، وأَمَّر عليهم (زيد بن حارثة) ﷺ، إلى مشارف الروم، لأنه وصلته أخبار عن تحرّكات للروم ولبعض القبائل العربية الموالية للروم، ووصّاهم أن يُوَلُّوا عليهم (جعفر بن أبي طالب) وبعده (عبدالله بن رواحة) إذا ما حدث لِزيد شيء، وفعلاً استشهد الأمراء الثلاثة، ثم اصطلح الجيشُ فيما بينهم على تأمير (خالد بن الوليد) ﷺ، والذي لَقَّبَهُ رسولُ الله ﷺ بـ(سيف الله)، وبما أَنّ عدد جيش الروم كان كثيراً جداً، بين مائة ألف (١٠٠,٠٠٠)، أو مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠)، وما كان يمكن إمدادُ الجيش الإسلامي لِبُعْدِ المسافة، فيبدو أنهم اتفقوا على الإنسحاب، بعد أن قُتلَ منهم عَددٌ، وكبَّدوا الجيش الرومي خسائِرَ فادحة، وقد أثنى رسولُ الله ﷺ على ذلك الجيش وقيادته الحكيمة وانسحابه الشجاع، وذلك عندما طَعَنَ فيهم بعضُ الناس قائلين لهم: (يا فُرّار، فررتم في سبيل الله) فقال ﷺ: **(ليسوا بالفُرّار، ولكنَّهم الكُرّار إن شاء الله تعالى)**[٢].

ومؤتَهُ تقع داخل حدود (الأُردن) الحالية.

---

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٤، ص١٥ إلى٣٠.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٢٤.



١٧ ـ فتح مكة، وغزوة حنين، ودخول النّاس في دين الله أفواجاً

أ ـ فتح مكة:

وسببه نَقْضُ قريشٍ لإتفاقية الحديبية، وذلك بأن قامت (بنو بكر) المتحالفة مع قريشٍ، بقتل عشرة رجال من (خزاعة) المتحالفة مع رسول الله ﷺ وبيَّتوهم ليلاً، وجاء وفد خزاعة فاشتكوا إلى رسول الله وأخبروه الخَبَرَ، فوعدهم رسولُ الله بالإنتصار لهم، وبعد فوات الأوان جاء (أبو سفيان) إلى المدينة ليعتذر ممّا حدث، ولكنه رجع فاشلاً خائباً مع كل دَهائه وحِنكته!

ولما أمر رسولُ الله ﷺ الصّحابة بالتجهّز للغزو وأعلن عن نيَّته قبيل التحرك، إذْ كان قبل ذلك يكتم عنهم الجِهَةَ التي يَقْصِدُها كي يفاجِيء كفار (مكة)، أَجَلْ عند ذلك، غَلَبَ الضُّعْفُ البشري إيمانَ أحد الصحابة البدريين وهو: (حاطب ابن أبي بَلْتعة) رضي الله عنه، وكتب كتاباً إلى كفّار مكة، يُخْبِرهُم خبر تجهُّز الرسول ﷺ نحو (مكة)، وأعطى الكتاب لامِرأة، فانطلقت به إلى مكة، وأنزل الله تعالى جبريل يُخبِرُ رسولَه ﷺ، وأرسل رسولُ الله (علياً وزُبَيْراً والمقداد بن الأسود) رضي الله عنهم وأمرهم أن يذهبوا إلى (روضة خاخ) ويأخذوا الكتاب من المرأة ويأتوه به، وفعلاً تَمَّ ما أَمَرهُمْ به، ولما سأل رسولُ الله (حاطباً) قائلاً: (ما هذا يا حاطب؟) فقال حاطب:

«لا تعجل عليَّ يا رسولَ الله، إني كنت امرَءاً مُلْتصِقاً في قريش، ولم

أكن من أنفسها، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالَهم بمكة، فأَحْبَبْتُ إذْ فاتني ذلك مِنْ نسب فيهم، أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر، فقال النبيُّ ﷺ: صَدَقَ**» رواه البخاري عن علي رضي الله عنه[1].

وأنزل الله تعالى بهذه المناسبة من بداية سورة (الممتحنة) إلى الآية (٩) منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ... إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٩][2].

وتحرَّك رسولُ الله ﷺ على رأس جيش مكوَّنٍ من عشرة آلاف مجاهدٍ نحو (مكة) في (٨/ رمضان / السنة الثامنة)، ودخلها في يوم (١٧/رمضان) بعد مناوشات قليلة في بعض أطراف مكة، وذلك بعد أن أُخِذَ (أبو سفيان) شِبْهَ أسيرٍ، ثم أرسلَهُ النبيُّ ﷺ ليخبر قريشاً بعدم جَدوى المقاومة، وقال رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ دخل دار أَبي سفيان فهو آمن... ومَنْ أَغلق بابه دونه فهو آمِنُ... ومَنْ دخل المسجد فهو آمِنٌ**»!![3].

ولما دخل رسول الله ﷺ (مكة) واجتمع قريش في المسجد الحرام خطبهم رسولُ الله ثم سألهم: «**يا معشر قريش! ما ترون أَني فاعِلٌ فيكم؟!**»، فقالوا: خيراً، أَخٌ كريم وابن أخٍ كريم، فقال: «**إذْهبوا فأنتم الطلَّقاء**»[4] أي أنتم أحرارٌ.

ولما دخل رسولُ الله (الكعبة) ووجد فيها الأصنام، جعل يَنْكتُها (أي

---

(١) (صحيح البخاري): ٤٨٩٠.
(٢) (السيرة النبوية) لابن هاشم، ج٤، ص٣١ إلى ٤٢.
(٣) (المصدر السابق)، ج٤، ص٤٦.
(٤) المصدر السابق، ج٤، ص٥٥.

يدفعها) بعصاه، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، وتخِرُّ الأصنام على وجهها، ثم أمر فَأُخْلِيَتْ من الأصنام، ومُحِيَتْ عنها الصُّوَرُ المصوَّرةُ على جدرانها.

وأمر رسولُ الله ﷺ (بِلالَ الحبشي) رضي الله عنه أنْ يؤذِّن، فَرَقِيَ فوق ظهر الكعبة وأَذّن، فقال بعض كبراء قريش: أهذا العبد الأسود يُؤَذِّنُ على ظهر الكعبة؟! فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات][1].

وأنزل الله تعالى في تلك الأثناء أو عند دخول رسول الله ﷺ وجيشه الإسلامي (مكة)، سورة (النصر) المباركة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر].

ب ـ غزوة حُنين:

وبعد أن بقي رسولُ الله ﷺ ثمانية عشر يوماً في مكة، خرج منها يوم السبت (٦شوال من السنة الثامنة) على رأس جيش قوامه (١٢٠٠٠) إثنا عشر ألفاً، إذ التحق بهم ألفان من المسلمين الجدد، وتوجّه نحو (حنين) لأنه وصلته معلوماتٌ عن تجمُّع قبائل: (غطفان وثقيف وهوازن) لمحاربته فبادَرَهُم بالهجوم، ولكن بما أن العدوّ نصبوا كمائِنَ من الرّماة على جانبي وادي حنين، ثم هجم فُرْسانهم ومُشاتُهم بقيادة قائدهم الشاب المتهوِّر (عوف بن مالك) هجوماً عنيفاً، بعد أن أمطر كمائِنُهم جَيْشَ رسول الله ﷺ

(١) هكذا قال السيوطي في (لُباب النقول) والذي استند إلى (مصنَّف) عبدالرزاق عن معمَّر عن الزهري، انظر (حاشية الجلالين)، ص٥٤٧، ولكن النيسابوري قال: أنها نزلت عند منصرفه ﷺ من (حنين)، وأنظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٢٤.

على حين غِرَّة بوابلٍ من النَّبل، فقد انهزم وتراجع أكثرُ الجيش تحت هَوْل المفاجأة، وبقي رسولُ الله ﷺ في عدد قليل من خاصَّته[1]، وأمر رسولُ الله ﷺ عمَّه (**العبّاس**) رضي الله عنه وكان رجلاً صَيِّتاً[2]، أن ينادي باسم رسول الله: (**يا معشر أصحاب السَّمُرة!**) أي الشجرة التي بايع الصحابةُ تحتها رسولَ الله ﷺ على القتال في الحديبية، وعندما سَمِعَ الصّحابَةُ السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار منادي رسول الله، نادَوا: (لبَّيك لبَّيك) وعطفوا عطفة رجل واحد، وكان من لا يطاوعه بعيرُه يتركه ويتوجَّه نحو الصوت، ولما تجمّع منهم مائة مجاهد، ثبتوا وصدّوا الهجوم الزّاحف، وقال رسولُ الله ﷺ: (**الآن حَمِيَ الوطيسُ**)، ثم رجع سائِرُ الجيش، وما لبثَ أن انهزم العدّو، وبما أنَّهم اصطحبوا معهم نساءَهم وأطفالَهم ومواشِيَهم فقد أصبحت كلُّها غنيمةً بيد المسلمين[3].

وأنزل الله تعالى عن غزوة حنين قوله المبارك:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة].

هذا وقد أعطى رسولُ الله ﷺ من غنائم (حنين)، مقادير كثيرة لعدد من أشراف وكبراء قريش وغيرها من القبائل الذين أسلموا بعد فتح مكة، والّذين اشتهروا بـ(المؤلَّفة قلوبهم)، وكان قد وقع في قلوب الأنصار شيءٌ بسبب ذلك التصرُّف من رسول الله ﷺ، ثم حَدَّثَتْهُم أنفسهم بأنه ربما يستَقِرُّ رسولُ الله في مكة، ولا يرجع معهم إلى المدينة! ولما أحسَّ رسولُ الله

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام، ج٤، ص٨٥.
(٢) الصّاتُ: الشديدُ الصوت. المعجم الوسيط، ص٥٢٧. و(صَيِّت) شديد الصوت. المصباح المنير. ص١٨٢.
(٣) (المصدر السابق)، ج٤، ص٨٧، ٨٨.

الحكيم بهذا، جمع الأنصارَ وحدهم في مكان، وبيَّن لهم حكمة ذلك التصرُّف في الغنائم، بأنه إنَّما أراد به تأليفَ قلوب أولئك الجُدَدِ في إسلامهم، بشيءٍ من متاع الدنيا، ولكنكم أنتم مُستغْنون عن هذا ووكّلتكم لإيمانكم، ثم قال:

«أو ما ترضون أن يأخذ الناسُ بالشاة والبعير إلى رحالهم، وتأخذوا أنتم بيد رسول الله إلى رحالكم؟!».

وكذلك أجاب عن تساؤلهم حول بقائِه في مكة أو عودته معهم إلى مدينته المنوّرة، بقوله: **(بل المحيا محياكم والممات مماتكم)**.

ثم قال في ختام خطابه الرقيق الحكيم معهم:

(اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار).

وعند ذلك ـ أي بعد ذلك البيان النّبوي الحكيم ـ بكى الأنصار حتى اخضلَّت لحاهم، رضي الله تعالى عنهم جميعاً[١].

ثم توجَّه رسولُ الله ﷺ بمن معه إلى (الطائف) لأنَّ فلول المشركين المنهزمة في حنين، انحازوا إليه، وتحصَّنوا مع أهله المشركين بحصونه، وبالرغم من محاصرتهم أسابيع، لم يتمكّنوا من دخوله لحصانة قِلاعه، فتركهم رسولُ الله ﷺ وتحرَّك راجعاً إلى المدينة، ولما طلب منه أحد الصّحابة أن يدعو على أهل (طائف) قال بدلاً من ذلك:

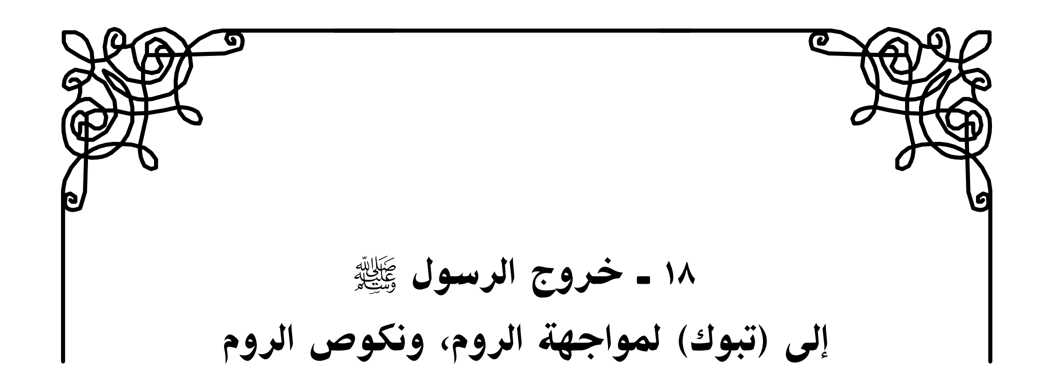
(أللّهم اْهد دَوْساً وائت بهم مُسلمين)، وقد استجاب الله دُعاءَ نَبِيِّه فيما بعد، وجاؤوهُ مسلمين من ضمن من جاءه، من وفود القبائل الداخلة في الإسلام أَفواجاً[٢].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) المصدر السابق، ج٤، ص(١٤١ إلى ١٤٣).

(٢) المصدر السابق، ج٤ ص١٨٢ إلى ١٨٧.



١٨ ـ خروج الرسول ﷺ إلى (تبوك) لمواجهة الروم، ونكوص الروم

وفي رجب من السنة التاسعة خرج رسولُ الله ﷺ في فصل الصيف الحارّ، على رأس جيش يتجاوز عدده ثلاثين ألفاً (٣٠٠٠٠)، لمواجهة الروم، وسار حتى بلغ (تبوك)، ولكن الروم لم يجرؤوا على المواجهة، بل تراجعوا أمام جيش الإسلام، وبقي رسولُ الله ﷺ هناك أياماً، ثم رجع إلى المدينة، بعد أن أَقرَّتْ له بالجزية وصالحته، أو أَسْلَمتْ الكياناتُ القَبَلِيَّةُ النصرانيَّةُ، أو المشرِكَةُ التي في طريقه.

هذا وقد نزلت الآيات (٢٩ إلى ١٢٩) من سورة (التوبة) كلّها تعليقاً على غزوة (تبوك) وأحداثها، ومواقف أهل الإيمان الصادقين، والمنافقين والأعراب المتظاهرين بالإسلام، في وقائع تلك الغزوة التي كانت بحق غربلة وأية غربلة للمجتمع الإسلامي ومكوِّناته، وقد سَلَّطَتِ الآياتُ المباركاتُ الإحدى والمائة (١٠١) من تلك السورة، الأضواءَ الكاشفة على كلّ من أهل الإيمان الباذلين أرواحَهم وأموالَهم في سبيل الله، وإعزاز دينه ونَبِيِّه ﷺ، وأهل النفاق المخادعين، سواء من تذرَّع منهم بشتى الذرائع الواهية، للتخلُّف عن رسول الله في تلك الغزوة، أو من خرج منهم مُكْرَهاً وعلى مَضَض، تَسَتُّراً على نفاقه وكفره، والأعراب المتظاهرين بالإسلام، والمُتَحَيِّنين للفرص للنيل من الإسلام المسلمين.

وبما أنّنا سنتحدّث بإذن الله بالتفصيل عن كيفية التعامل مع أهل الكفر

بأصنافهم الخمسة، وفي حالتي السلم والحَرْب في الباب الرابع ـ أي الكتاب الثاني عشر ـ وكذلك نتحدّث في نهاية الباب الثالث ـ أي الكتاب الحادي عشر ـ عن الجهاد والقتال في سبيل الله، ولآيات هذه السورة المباركة حصّة الأسد في كلا الموضوعين، لِذا سنكتفي هنا بإشارة مختصرة إلى عناوين بعض المواضيع التي تحدّثتْ عنها آيات هذه السورة، من أَجل إلقاءِ الضوء على غزوة (تبوك) والتي لم يجر فيها قِتالٌ، ولم تحدث فيها مواجَهَةٌ، ولكن خَصَّص لها كتابُ الله الحكيم، أَوْسَعَ مِساحَةٍ للحديث عنها، من بين كل الغزوات الأخرى، التي أَلْقى كتابُ الله الضوءَ الكافي على كلٍّ منها، لاِستخراج ما فيها من دروسٍ وعبرٍ وحِكمٍ وأحكامٍ:

١ ـ **التكييف والتأصيل الشرعي لغزو الروم والقتال مع أهل الكتاب المتربِّصين، ما لم يُعْطوا الجزية، ويخضعوا للدولة الإسلامية: الآيات (٢٩ إلى ٣٥).**

٢ ـ **توبيخ المسلمين (أي بعضهم) على التلكّؤ عن الجهاد، وعدم نصرة رسول الله ﷺ، وبيان أن الله تعالى ناصِرٌ رسولَه: الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠).**

٣ ـ **بيانُ أن الجهاد واجبٌ على المسلمين ـ عند الضرورة ـ في جميع حالاتهم: الآية (٤١).**

٤ ـ **توجيهُ عتابٍ رقيق لرسول الله ﷺ، بسبب إِذْنه لمن استأذنه في عَدَمِ الذَّهاب معه إلى غزوة تبوك، من أهل النفاق، وبيان أن المستأذنينَ هم المنافقون، ولكن المؤمنين لا يستأذنونه: الآيات (٤٣ إلى ٤٦).**

٥ ـ **بيان بعض مواقف المنافقين قبل الغزوة (أي غزوة تبوك) وأثناء الإستعداد لها، كتربُّصهم بالإسلام والمسلمين، وتذرُّعهم بأعذار واهية للتخلُّف، وبُخْلِهم، وأَحْلافهم الكاذبة، وجبنهم، وطمعهم في أموال الزكاة، بالرغم من عدم استحقاقهم لها: الآيات (٤٧ إلى ٦٠).**

٦ ـ **إيذاؤهم لرسول الله ﷺ بالطعن فيه، وحَذَرُهم من نزول ما يَفْضَحُهُم من القرآن، والإعتذار بما هو أقبح من الذنب: الآيات (٦١ إلى ٦٦).**

٧ ـ التعريفُ بأهل النفاق ذكوراً وإناثاً، وبيان عاقبتهم الوخيمة وتذكيرهم بما جرى للأمم الكافرة قبلهم: الآيات (٦٧ إلى ٧٠).

٨ ـ التعريفُ بأهل الإيمان ذكوراً وإناثاً وبيان عاقبتهم المحمودة: الآيتان (٧١، ٧٢).

٩ ـ الأمرُ بالرسول ﷺ بأن يتعامل ـ في حالتي الحرب والسّلم ـ مع الكفار (المعادين) والمنافقين، بالغلظة والشدة: الآية (٧٣).

١٠ ـ توضيحُ موقف المنافقين الإنتقادي للمنفقين في سبيل الله للتجهيز للغزو، للمُكْثِرين والمُقِلِّين على السّواء، وتنبيه رسول الله ﷺ أنه لا ينفعهم استغفاره لهم: الآيات (٧٥ إلى ٨٠).

١١ ـ بيانُ فَرَح المنافقين المُتَخلِّفين عن الغَزْو بتخلُّفهم، وتثبيطهم لغيرهم، وأمرُ الله تعالى رسولَه ﷺ، بأَلّا يستصحبهم معه للقتال فيما بعد، وأَلّا يحضر جِنازَةَ أحدٍ منهم، ولا يُصلِّي عليهم ولا يُعجَبَ بأموالهم: الآيات (٨١ إلى ٨٥).

١٢ ـ بيانُ موقف المنافقين المعتذرين بأعذار باطلة، وبيان موقف المؤمنين المسارعين للجهاد، وذوي الأعذار الصادقين منهم، وأنه لا حَرَجَ عليهم ولا يُلامون: الآيات (٦٨ إلى ٩٦).

١٣ ـ بيانُ مواقف الأعراب المتظاهرين بالإسلام، والصادقين في الإيمان، والثناء الرّبّاني العَطِر على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين الجيّدين لهم، من أجيال المسلمين المتعاقبة: الآيات (٩٧ إلى ١٠١).

١٤ ـ بيانُ موقف المعترفين بخطئِهم، والخالطين بين الصالح والطالح من الأعمال وتأميلهم بعفو الله ورحمته: الآيات (١٠٢ إلى ١٠٥).

١٥ ـ تسليطُ الأضواء الكاشفة على مؤامرة بعض المنافقين بقيادة (أبو عامر الراهب)، من بنائِهم لمسجد يتخذونه قاعدة للتعاون مع الرّوم ـ كطابور خامسٍ ـ وتسمية الله العليم الخبير، مسجدَهم ذلك بـ(مسجد الضّرار): الآيات (١٠٧ إلى ١١٠).

١٦ ـ التعريفُ بأهل الإيمان، وذكر خصالهم الأساسية: الآيتان (١١١، ١١٢).

١٧ ـ نَهْيُ الله تعالى نَبِيّه والمؤمنين عن الإستغفار للمشركين، وإن كانوا أقارب لهم: الآيات (١١٣ إلى ١١٦).

١٨ ـ إعلانُ الله الرحيم جلّ وعلا، توبته على النبيّ والمهاجرين والأنصار المُتَّبِعين له في غزوة (تبوك)، والتي كانت في ظروف صعبة، ومن ضمنهم الثلاثة الذين أُخِّر إبداءُ الموقف تجاههم، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية: الآيات (١١٧ إلى ١١٩).

١٩ ـ بيانُ عدم جواز تخلُّف المسلمين عن رسول الله ﷺ في الغزوات، وبيانُ الأجر العظيم الذي ينالونه على مشاركتهم إيّاه في الجهاد: الآيتان (١٢٠، ١٢١).

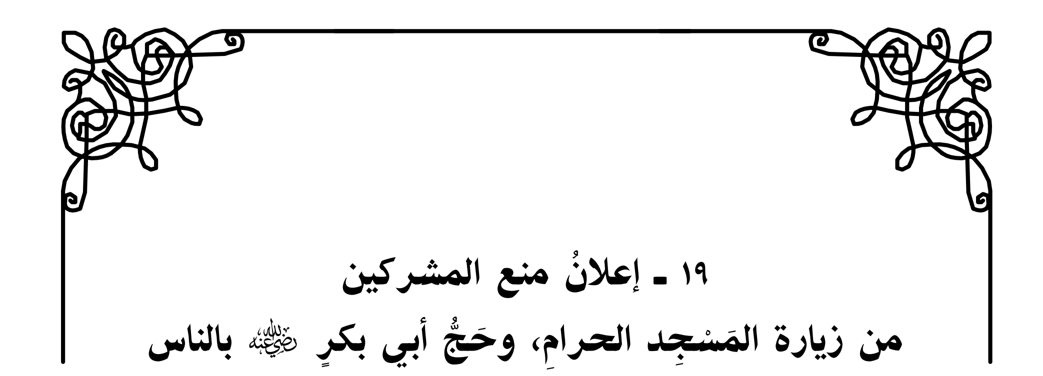
٢٠ ـ عَدَمُ جواز خروج المسلمين كلهم للجهاد ـ في الحالات الإعتيادية التي لا تقتضي النفير العام ـ ووجوبُ تفرُّغ مجموعةٍ من كل جماعة منهم للتفقُّه في الدين، وتفقيهُ الفقهاء المجتمعَ عامةً والمجاهدين خاصةً، بعد رجوعهم من الجهاد: الآية (١٢٢).

٢١ ـ وجوبُ شروع المسلمين المجاهدين بقتال الكفّار القريبين منهم ـ طالما كانوا أعداءً حربيّين ـ، ووجوبُ استعمالِ الغلظة والشدّة عليهم، إضافة إلى التَحَلّي بالتقوى في كل حال: الآية (١٢٣).

٢٢ ـ بيانُ موقف كلٍّ من أهل الإيمان وأهل النفاق، من نزول القرآن، فأما أهلُ الإيمان: فيزدادون به إيماناً ويستبشرون، وأما أهلُ النفاق: فلا يزدادون به إلّا رِجساً وكفراً، كالمريض الذي أفسد المرض مِزاجَهُ، فيتضرّر بالطعام والشراب الجَيِّدَيْن: الآيات (١٢٤ إلى ١٢٧).

٢٣ ـ التعريفُ برسول الله ﷺ من خلال أوصافه الجليلة التي يتعامل بها مع المسلمين، من شفقته عليهم أن يصيبهم الأذى والضرر، وحرصه على هدايتهم، ورحمته ورأفته بهم: الآية (١٢٨).

٢٤ ـ الأمر برسول الله ﷺ عند تولّي المنافقين وضعاف الإيمان عن طاعته، أن يقول: ﴿... حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة].



١٩ ـ إعلانُ منع المشركين من زيارة المَسْجِد الحرامِ، وحَجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالناس

وفي نهاية ذي القعدة أو بداية ذي الحجة من السنة التاسعة، أرسل رسولُ الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه، أَحَبَّ الناس إليه، كي يحجَّ بالناس نيابةً عنه[١]، وبعده أنزل الله تعالى بداية سورة (التوبة) أو (البراءة)، من الآية (١ إلى ٢٨)، فأرسل علياً رضي الله عنه كي يقرأ تلك الآيات في يوم النَّحْر (العشر من ذي الحجة)، ولمّا ذهَبَ عليٌّ رضي الله عنه والتقى بأبي بكر رضي الله عنه، فسأله: (أَأَميرٌ أم مأمور؟) فأجابه عليٌّ: (بل مأمورٌ)[٢]، وقد أرسل رسولُ الله ﷺ عليّاً لقراءة تلك الآيات على الناس، مع أن أبا بكر كان أمير الحج، لأنه كان من عادة العرب ألّا يبلِّغ عن الشخص الأول منهم بلاغاً مُهمّاً، إلّا رجل من قرابته، وقد قال رسولُ الله بهذا الصدد: «**لا يؤدِّي عَني إلّا رجلٌ من أهل بيتي**»[٣].

فقرأ (عليٌّ) رضي الله عنه هذه الآيات، وأَلّا يَحُجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريانٌ، كما جاءَ في صحيح البخاري وغيره[٤].

---

(١) كما في (صحيح البخاري): ١٦٢٢ و(صحيح مسلم): ١٣٤٧، و(السيرة النبوية) لابن هشام ج٤، ص١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٠.

(٤) (صحيح البخاري): ٤٦٥٥.

وهذه الآيات تتضمَّن الإعلان عن براءة الله تعالى ورسوله ﷺ عن المشركين المعاهدين، ومنعهم عن زيارة المسجد الحرام بعد ذلك العام (العام التاسع)، إذ تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة]. وتُخْتم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةً فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٨﴾.

وسبب عدم كتابة (بسم الله الرحمٰن الرحيم) في بداية سورة التوبة، هو عدم أمر رسول الله ﷺ بذلك، وقد علَّل (عليٌّ) ﷺ عدم كتابة البسملة في أول سورة التوبة، بأنَّ البسملة أمانٌ، وهذه السورة ـ أي بدايتها ـ نزلت لرفع الأمان، كما رواه عنه (الحاكم)[1].

هذا وقد تخبّط بعضُ المفسِّرين في تفسير هذه الآيات، التي سَمَّوْها (آيات السيف) أو (آية السيف) والمقصود بها عند الإفراد: الآية الخامسة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [التوبة]، وبَلَغ ببعضهم الخَطَأُ في تفسيرها، أن جعلوها ناسخة لكثير من الآيات التي لا يمكن أن يتطرق إليها النسخُ أصلاً ـ على فرض وجود آيات منسوخة الآن في القرآن ـ وذلك كقوله تعالى:

١ ـ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ...﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٢ ـ ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

٣ ـ ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ...﴾ [النحل: ١٢٥].

(١) أُنظر: المستدرك: ٣٢٧٣، إذ قال: وروى أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس عن عليّ ﷺ: أنه قال: البَسْمَلة أمان وبراءة نزلت بالسّيف، وانظر: روح المعاني، ج٥، ص٣٢٦.

٤ ـ ﴿...وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر][1].

ولا شك أن هذا فهم عجيبٌ ليس لهذه الآيات وحدها، بل لأصل الإسلام والإيمان، وحكمة الله في خلق البشر أيضاً!

وبما أنَّنا سَنُفَصِّل القول في هذا الموضوع بإذن الله وتوفيقه، في الباب الرابع من هذا الكتاب، (أي الكتاب الثاني عشر من هذه الموسوعة)، وسَنُفَسِّرُ هناك هذه الآيات وما يُماثِلُها، التفسيرَ الصَّحيح الذي ينسجم مع طبيعة دين الله الحق، وحكمة الله في خلق البشر، والتفسيرَ الذي لا يُحْوِجُنا إلى القول بأن كثيراً من الآيات التي لها ارتباط بالتعامل مع أهل الكفر، منسوخةٌ بآية السَّيف! لِذا نُرْجيءُ الحديثَ عن هذا الموضوع الآن.

ولكن الذي أرى توضيحه هنا بإيجاز، هو:

أولاً: أن المقصود بقوله تعالى:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة]، ليس كلَّ المشركين المعاهدين، بل المقصود به هم المُخِلّون بعهودهم فقط، وذلك بدليل أن الله تعالى استثنى من المشركين الذين لهم عهد، الذين بقوا على التزامهم وتمسّكهم بعهودهم، كما قال تعالى في نفس السياق:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة].

وكذلك قال:

﴿...كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة].

(١) أُنظر على سبيل المثال: (تفسير الجلالين) حيث يعتبر هذه الآيات كُلَّها وأخرى كثيرة مثلها، منسوخةً بآية السَّيف!!

ثانياً: ليس المقصود بـ(أربعة أشهر) في قوله تعالى:

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾ [التوبة].

هو الأشهر الحُرُم الأربعة المعروفة، والتي يحرم فيها القتال وهي: (ذو القعدة، ذو الحجة، محرّم، رجب) بل المقصود بتلك الأشهر الأربعة، هو:

أن يؤْذِنَ رسولُ الله ﷺ القبائِلَ المشركة المعاهدة مع الدولة الإسلامية، والتي أَخَلَّتْ بشروطِ المعاهدة كلياً أو جزئياً، ويُعْلِمَهمُ أنَّه بعد مدة أقصاها أربعة أشهر، تعتبر تلك العهود والمواثيق مَلْغَيةً، وذلك كي يَسُدَّ رسولُ الله ﷺ والمسلمون الطريقَ، أمامَ أولئك المشركين المتلاعبين بالعهود، عن الإضرار بهم، تحت سِتارِ عهودٍ ومواثيقَ مُزيَّفة لا يلتزمون بها!

وحكمة جعل أربعة أشهر فاصلاً زمنياً بين إعلامهم بذلك، وبين اعتبارهم أهل حرب، بسبب إلغاءِ عهودهم التي سبق وأن أَلْغَوْها هم بأنفسهم، هي:

أ) إبعادُ شبهة الخيانة ونَقْض العهد عن الدولة الإسلامية، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال].

ب) إعطاءُ الفرصة لأولئك المشركين، كي يتدبّروا في أمرهم، فلعلّهم يهتدون، ولا تَضْطَرُّ الدولَةُ الإسلامية إلى إعلان الحرب عليهم، ليس من جرّاء كفرهم، بل من جرّاء عدم التزامهم بالعهود والمواثيق، كما قال تعالى معلِّلاً قتالَ أولئك: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة].

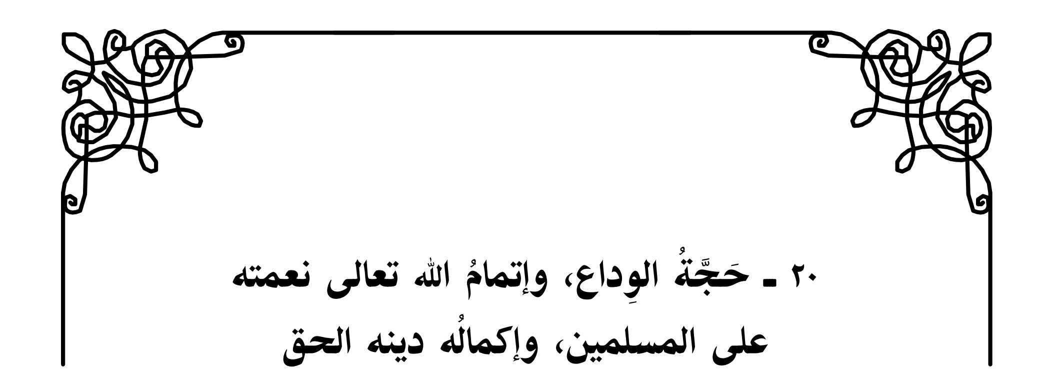
وواضحٌ أنَّ حجَّ أبي بكر ﷺ نيابةً عن رسول الله ﷺ في العام التاسع، وتبليغَ علي ﷺ وكالَةً عنه ﷺ، مَنْعَ المشركين عن زيارة المسجد

الحرام والطواف بالكعبة عُرْياً، كما كان هو دينهم في السابق، مَهَّدا لِحجَّة الوداع في العام التالي، كي يصفو الجَوُّ تماماً لآخر حجَّةٍ يَحُجُّها رسولُ الله ﷺ، ويُعَلِّمَ المسلمين فيها مناسِكَ الحج والعمرة، ويُعْلَنَ فيها إِتمامَ النِّعمة وإِكمالَ الدينِ.

هذا وقد سمَّى بعضُ أهل السِّيَرِ، العام التاسع بـ(عام الوفود) لكثرة مجيء وفود القبائل فيه إلى المدينة، وإعلان إسلامها وانْضوائها تحت لواء الدولة الإسلامية، على يد رسول الله ﷺ، وتَجاوزَ عدد تلك الوفود سبعين (٧٠) وفداً[١].



(١) أنظر: (السيرة النبوية) ج٤، ص١٨٢ إلى ٢٤٧، حيث فُصِّل فيها الحديث عن الوفود وحواراتها مع رسول الله ﷺ.



٢٠ ـ حَجَّةُ الوِداع، وإتمامُ الله تعالى نعمته على المسلمين، وإكمالُه دينه الحق

وفي أواخر ذي القعدة من السنة العاشرة توجّه رسولُ الله ﷺ ومعه (١٢٠٠٠٠) مائة وعشرون ألفاً مِن الحُجّاج، إلى مكة لأداءِ الحج والعمرة، وكان (قارناً) ـ أي جامعاً بين الحج والعمرة ـ، وأكمل مناسك الحج والعمرة، وكان يكرِّر قوله: **(أيها الناس! اسْمَعوا قولي، فإنِّي لا أدري لَعَلِّي لا أَلْقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقوف أبداً)** رواه مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما[١] وكان ﷺ يقول: **(لتأخذوا مناسككم فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أَحُجُّ بعد حَجَّتي هذه)** رواه مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها[٢].

وقد خطب في المسلمين يوم عرفة، خُطْبَتَه المشهورة، التي أكّد فيها على أُخوَّة المسلمين فيما بينهم، وعدم تجاوزهم لدماءِ وأموال وأعراض بعضهم بعضاً، وكذلك أكّد فيها على مراعاة النساء وإحسان العشرة معهنَّ، وبيَّن فيها الحقوقَ والواجبات الزوجية الأساسية، بين الطرفين.

وقد أنزل الله تعالى وهم وقوفٌ بِعَرَفَةَ، على سيِّد المرسلين، قولَهُ الكريم:

---

(١) صحيح مسلم: ٨٣٨.

(٢) صحيح مسلم: ١٩٧٧.

﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ...﴾ [المائدة: ٣].

كما يدلّ عليه هذا الأثر الذي روي[١] بروايات متعدِّدة، هذه إحداها:

«روى البخاري في صحيحه، وكذلك أورد النيسابوريُّ في (أسباب النزول) بسنده إلى طارق بن شهاب أنَّه قال:

جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال:

يا أمير المؤمنين! إنكم تَقْرؤن آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلَتْ، لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال: أي آية هي؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ: عشية يوم عرفة في يوم الجمعة»[٢].

وكذلك أورد النيسابوري في (أسباب النزول) أن عبد الله ابن عباس ﷺ قال عن هذه الآية ـ أو الجملة المباركة ـ:

(فإِنّها نزلت في عيدين اتَّفقا مِن يومٍ واحد: يوم جمعة، وافق ذلك يوم عرفة).

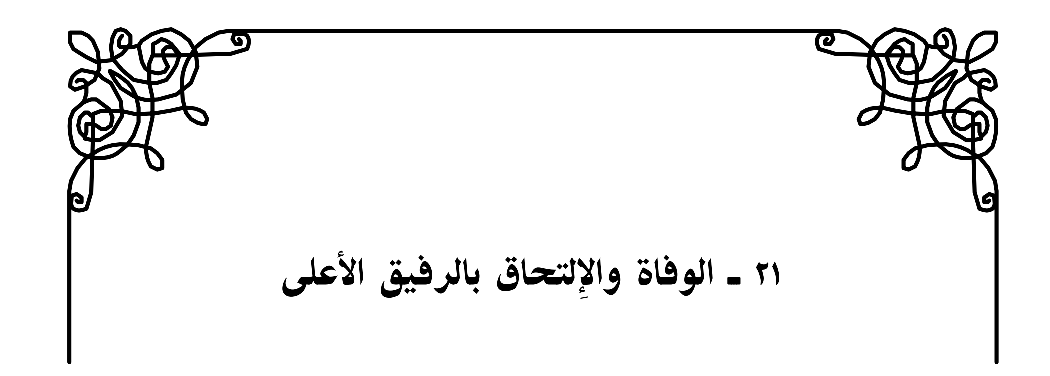
هذا وقد خطب النبيُّ ﷺ في أيام التشريق بـ(مِنى)، وكذلك في (المسجد الحرام) أكثر من خطبة، يبيِّن لأمته مَعالِمَ دينهم وأحكامَهُ عامة، ومناسِكَ الحج والعمرة خاصة.

وبعد أن أكمل رسولُ الله ﷺ والمسلمون مناسِكَ الحجِّ والعُمرة، رجع قافِلاً إلى المدينة المنوَّرة.



(١) لا يقصد بهذه الصيغة تضعيف تلك الروايات، كما هو مصطلح أهل الحديث.

(٢) (صحيح البخاري): ٤٦٠٦.



٢١ ـ الوفاة والإلتحاق بالرفيق الأعلى

١) إشارات التوديع:

وقد سبقت وفاتَهُ إشاراتٌ فَهِمَها بعضُ الصّحابة ﷺ بأَنّها تدلُّ على قُرْبِ أَجَل رسول الله ﷺ، وفي مقدمتهم صديقه الحميم (أبو بكر) ﷺ، منها:

١ ـ نزول سورة (النّصر):

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر]، ويفهم منها أن يستعدّ للرحيل.

٢ ـ نزول قوله تعالى:

﴿...ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وذلك لأن إكمالَ الدين يعني: قُرْبَ انتهاء وظيفة رسول الله ﷺ في أمته.

٣ ـ قوله في حجّة الوداع ـ وقد سمِّيت بهذا الإسم بعد وفاته ﷺ ـ:

أ ـ «**فإِنِّي لا أدري لَعَلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً**» رواه مسلم[1].

---

(١) صحيح مسلم: ٨٣٨.

ب ـ (لتأخذوا مناسِككم، فإِنّي لا أدري لَعَلِّي لا أَحُجُّ بعد حَجَّتي هذه)[1].

٤ ـ وفي أوائل صفر سنة (١١)، خرج ﷺ إلى (أحد) فصلَّى على الشهداء كالمودِّع للجميع أحياءً وأمواتاً، ثم انصرف إلى المِنْبَر، فقال:

«**إني فَرَطٌ لكم وأنا شهيدٌ عليكم، وإِنِّي والله لأَنظر إلى حوضي الآن، وإِني أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض (أو مفاتيح الأرض) وإِني والله ما أخاف عليكم أن تُشْركوا بعدي، ولكنِّي أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها**» رواه البخاري ومسلم[2].

٥ ـ وفي رمضان السنة العاشرة اعتكف (٢٠) يوماً بدل (١٠) أيام، كما كانت عادته من قبل، ودَارَسَهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ القرآن مرَّتين، بَدَل مرةٍ واحدة[3].

٢) بداية مرض الوفاة:

وكانت بِداية مرضه الذي توفِّي فيه (٢٨) أو (٢٩) من (صفر سنة ـ ١١) يوم الإثنين، حيث شهد جنازةً بالبقيع، فلمّا رجع وهو في الطريق، أخذه صُداعٌ في رأسه ﷺ[4].

٣) مُدّة مرضه ﷺ:

وكانت أيام مرضه (١٣ أو ١٤) يوماً، وصلَّى بالناس وهو مريضٌ أحد عشر (١١) يوماً، وصلّى (أبو بكر) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ حسب أمره ﷺ كما جاء في الصَّحيحين ـ سبع عشرة (١٧) صلاةً في حياته، وقبيل وفاته، وهي:

---

(١) صحيح مسلم: ١٩٧٧.
(٢) (صحيح البخاري): ٤٠٤٢، و(صحيح مسلم): ٢٢٩٦.
(٣) (صحيح البخاري): ٣٦٢٤.
(٤) (السيرة النبوية)، لابن هشام: ج٤، ص٢٩١.

صلاة العشاء من يوم الخميس، وصلاة الفجر من يوم الإثنين وخمس عشرة صلاة فيما بينهما، كما جاء في: (سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد)[1].

٤) آخر يومٍ من حياته المباركة:

روى أَنَسُ بن مالك ﷺ:

«**أن المسلمين بَيْنا هم في صلاة الفجر يوم الإثنين، وأبو بكر يُصلِّي لَهُم، لم يَفْجَأْهم إلّا رسولُ الله ﷺ كشف سِتْرَ حُجْرة عائشة ﵂، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسَّم يضحك، فنكص أبو بكرٍ على عقبيه ليصِلَ الصَفَّ، وظنَّ أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهَمَّ المسلمون أنْ يفْتَتِنوا في صلاتهم فَرَحاً برسول الله ﷺ، فأَشار إليهم بيده رسولُ الله ﷺ أن أتِمّوا صلاتَكم، ثمَّ دَخَلَ الحُجْرَة وأَرْخى السِّتر**». رواه البخاري[2].

وعن عائشة ﵂:

دعا النبيُّ ﷺ (فاطِمَةَ) ﵂ فَسارَّها بشيءٍ، فبكتْ، ثم دعاها فَسارّها بشيءٍ، فَضَحِكَتْ، قالت عائشة ﵂ فسألنا عن ذلك ـ أي فيما بعد ـ فقالت:

«**سارَّني النبيُّ ﷺ أنه يُقْبَضُ في وَجْعِهِ الذي توفِّي فيه فبكيتُ، ثم سارَّني فَأَخبرني أَنِّي أَوَّلُ أهله يَتْبَعُهُ، فَضَحِكْتُ**» رواه البخاري[3].

وكان عند شدَّة الوجْع يقول: «**لا إلٰه إلا الله، إنَّ للموت سكراتٍ**» رواه البخاري[4].

---

(١) ج١٢ ض٢٤٤، والكتابُ لـ (محمد بن يوسف الصالحي الشامي). وهو بدوره نقله عن (الحافظ ابن حجر) في (فتح الباري).
(٢) (صحيح البخاري): ٤٤٤٨.
(٣) (صحيح البخاري): ٤٤٣٤.
(٤) (صحيح البخاري): ٤٤٤٩.

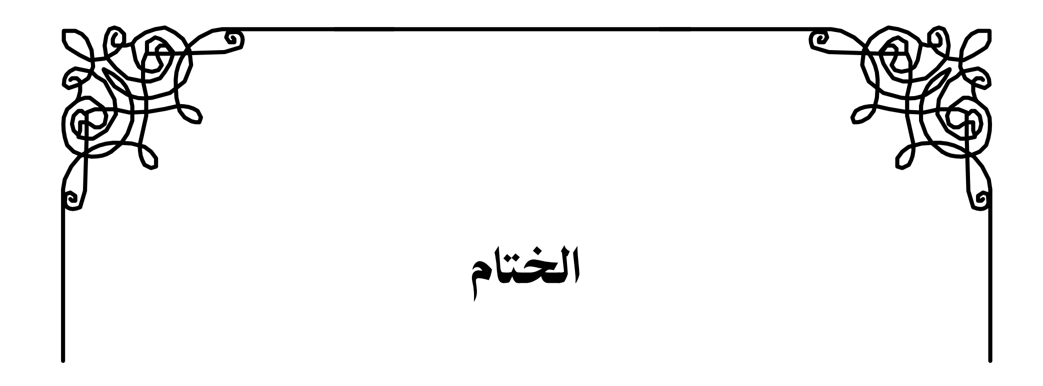
وكذلك دعا الحسن والحسين ﵄ فقبَّلهما وأوصى بهما خيراً، ودعا أزواجَه فوعَظَهُنَّ وذَكَّرهُنَّ.

وتصِفُ عائشةُ ﵂ آخِرَ لحظةٍ من حياته ﷺ بقولها:

كان رسولُ الله ﷺ وهو صحيحٌ يقول: «إنَّه لَم يُقْبَضْ نبيٌّ قَطُّ حتّى يَرى مَقْعَدَهُ من الجنَّة، ثم يُحيَّا أو يُخَيَّر» فلما اشتكى وحَضَرَهُ القبضُ ورأسُهُ على فَخذِ عائشة، غُشيَ عليه، فلمّا أَفاق شَخَصَ بَصَرُهُ نحو سَقْفِ البيت ثم قال: «**أَللَّهم في الرفيق الأعلى**» فقُلْتُ: إذاً: لا يُجاوِرُنا، فَعَرَفْتُ أنه حَديثُهُ الذي كان يُحَدِّثُنا وهو صحيح» رواه البخاري: ٦٠٢٨، ومسلم: ٢٤٤٤.

وهكذا خُتِمَتْ حياةُ خاتم النبيين وسيِّد المرسلين المباركة الحافلة بالعبادة لله تعالى، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله جلّ وعلا.

فصلوات الله وبركاته وسلامه عليه وعلى آله أجمعين من الصَّحب والأزواج والقرابة والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وجعلنا الله بكرمه وَمنِّه، منهم، آمين.



الختام

وأَودُّ أن نختم هذا الفصل الأول: (إسم خاتم النبيين ﷺ، ونَسَبُهُ، وموجز سيرته) بالأسطر الآتية عن كتاب الله الكريم الذي كان منهاج رسول الله ﷺ وصراطه المستقيم، ومحورَ حياته المباركة الحافلة بالعبادة والطاعة لرب العالمين، ودعوة الناس إليه، والجهاد في سبيله، لجعل دينه الذي ارتضاه سبحانه لعباده منهاجاً ونظاماً لحياتهم الخاصة والعامة، كما أراده سبحانه ظاهراً وغالباً على كل دين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة].

لقد أنزل الله تعالى كتابَه الكريم وقرآنَه العظيم، في غضون ثلاثة وعشرين (٢٣) عاماً على نبيّه الكريم ﷺ، ثلاث عشرة سنة في مكة المكرَّمة، وعشر سنوات في المدينة المنوَّرة، وتحديداً لِحَجْمِ القرآن النازل في كل من (مكة) و(المدينة) نقول:

سور القرآن الكريم (١١٤) سورة، قُسِّمتْ إلى (٣٠) جزءاً، نَزلت منها (٨٦) سورة في (مكة) والتي تُمَثِّلُ ثُلْثَيْ القرآن، وبالتحديد أكثر من (١٨) جزءاً منه، ونزلت (٢٨) سورة في (المدينة)، والتي تُمَثِّلُ ثُلُثَ القرآن، وبالتحديد أكثر من (١١) جزءاً.

والقرآن المكِّي يَدُورُ كلُّه حولَ الأصول الكلية للدين، من:

١) تعريفٍ بالله تعالى وخالقيَّته وربوبيته ومالكيته وألوهيته وولايته وحاكميته، وأسمائه الحُسْنى، وصفاته العُلى وشؤونِهِ المُثْلى، والإيمان

به جلّ شأنه خالقاً ورباً ومالكاً وإلٰهاً ووليّاً وحاكِماً، واتخاذه وحده إلٰهاً ربّاً ووليّاً وحاكماً.

٢) وتوضيح للوحي والنبوَّة، وذكرِ قصص الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، والتنبيهِ على سنن الله الحكيمة الحاكمة على حياة البشر.

٣) وبيانٍ لبعض الأمور الغيبية عنّا، من الملائكة والجِنّ والروح، وكيفيةِ خلق الله تعالى للسموات والأرض.

٤) وتجليةٍ للفضائل النفسية والأخلاق الحسنة والآداب الرفيعة، وكذلك لأضدادِها، من الرذائل النفسية والخصال المذمومة والتصرّفات القبيحة.

٥) وبيانِ حكمة الخلق العام (أي الوجود المرتبط بالبشر) عموماً والإنس والجِنّ خصوصاً، ثم مصيرِ الخلق كلِّه، بما فيه الإنس والجِنّ، وذكرِ أمور الآخرة، بدءاً بالموت وحياة البرزخ إلى الساعة، ثم القيامة والحشر والحساب والجزاء والجنة النار.

وأما القرآن المَدَنِيُّ فتركيزُه على تنظيم المجتمع، من شتَّى نواحيه الشعائرية والإجتماعية والأُسَرية والسياسية والَإقتصادية والقضائية، وكيفيةِ الدفاع عن الإسلام دعوةً ودولةً، وجَعْلِه ديناً ظاهراً على كل الأديان والمناهج، ولكن بدون إغفالِ التذكير بالقضايا الأساسية للدين، والذي تولّى القرآنُ المَكِّيُ شرحَها وتفصيلَها، والتأكيدِ دَوْماً على أنَّ الفَلَكَ الذي يدور فيه الدِّينُ كلُّه، بعقيدته وشريعته، هو العبادة لله تعالى بمعناها القرآني الشامل.

وقد حَقَّق رسولُ الله الأعظم، ونبيه الخاتم ﷺ، ثم أصحابُه الكرام رجالاً ونساءً رضوان الله عليهم: العبادَةَ[١] الشخصية والجماعية لله تعالى، على أتَمِّ وجهٍ ممكنٍ للبشر، في جميع مجالات الحياة، وصار رسولُ الله ﷺ

(١) أي: العبادة بمعناها الحقيقي الواسع الشامل لكل نواحي الحياة.

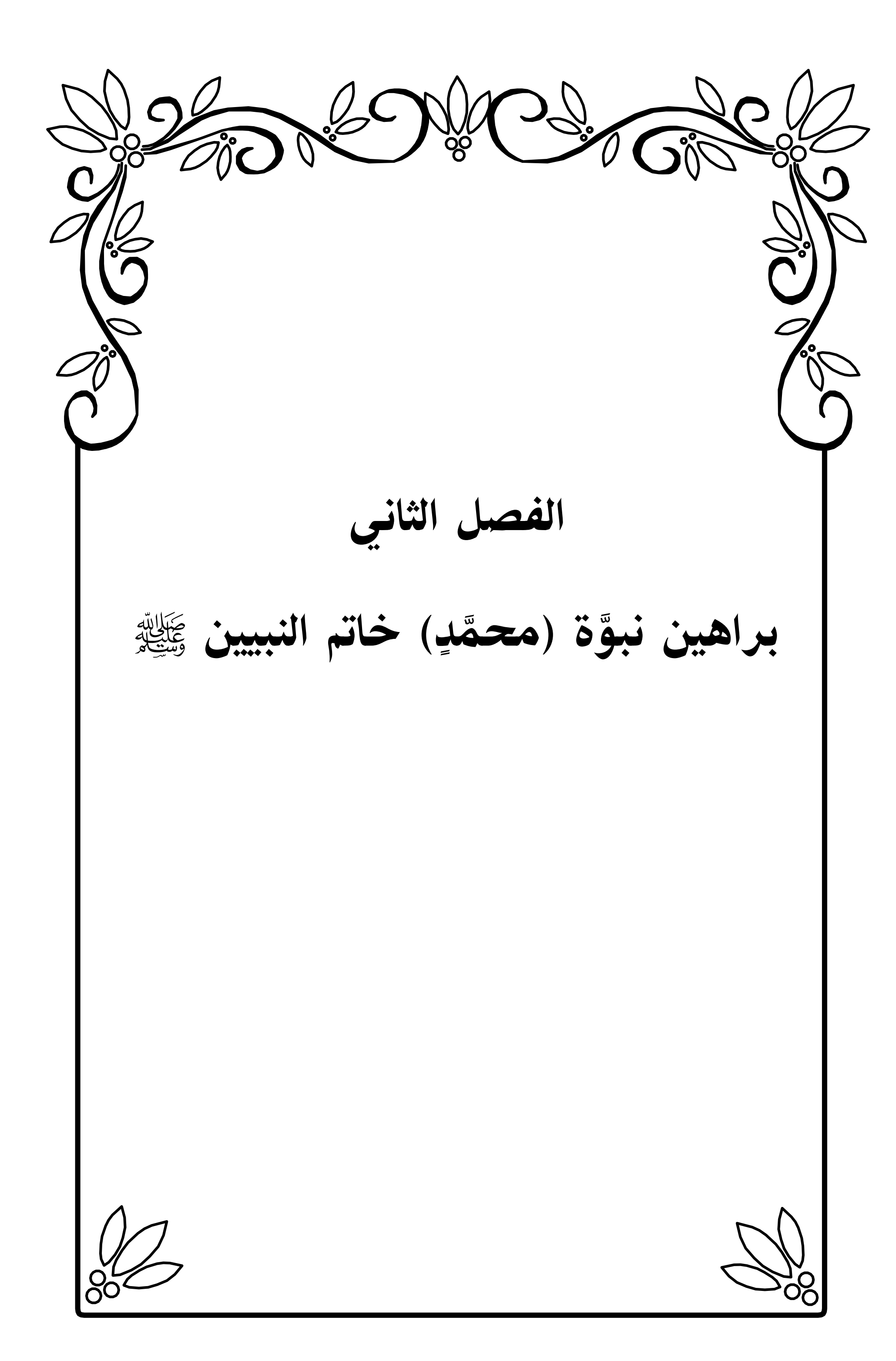
وصحابته الكرام ﷺ، أحسن قدوةٍ وأسوةٍ في مجال التدين الصحيح والعبادة الصحيحة لله تعالى، للبشرية عامة وللأجيال المسلمة خاصة.

وبناءً عليه:

فسيرة رسول الله ﷺ مع جماعته المؤمنة الأولى ومجتمعه الإسلامي الأول ودولته الإسلامية، هي تجسيدٌ لكتاب الله الحكيم وحقائقه وأحكامه وحِكمه في عالَم الواقع، ولا شك أن في تخصيص الله العليم الخبير قريباً من ثُلُثَي كتابه اَلحكيم، بالمرحلة المكية، مرحلة التربية والإعداد الفكري والمعرفي والإيماني والخُلُقي، لعبرةً وأي عبرة، لمن يريد أَنْ يَنْسُجَ على مِنْوال رسول الله ﷺ وصحابة الكرام: (الجماعة الإسلامية الأولى) و(المجتمع الإسلامي الأول).

وبِهذا نختم هذا الفصل الأول، وننتقل إلى الفصل الثاني بتوفيق الله.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الثاني

براهين نبوّة (محمَّدٍ) خاتم النبيين ﷺ

براهين نُبُوِّة (محمَّد) ﷺ سيِّد الأنبياء والمرسلين، كثيرة جداً، ولكنِّي أرى أنه يمكن تقسيمها إلى خمسة أنواع، وتندرجُ تحت كل نوعٍ منها مفردات كثيرة، وهذه هي عناوين تلك الأنواع الخمسة، والتي سنتحدَّث عن كلّ منها باختصار، في مبحث خاص:

١) بشارة الكتب السابقة، والأنبياء السابقين عليهم السلام، بمجيئه، وإيمانُ المنصفين من أهل الكتاب به ﷺ.

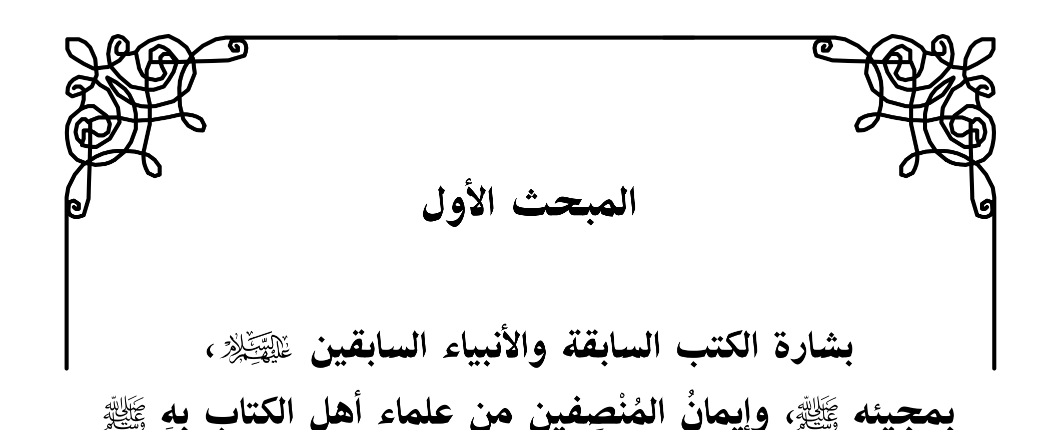
٢) القرآن العظيم، البرهان الأعظم.

٣) خاتم النبيين ﷺ نَفْسُهُ.

٤) صحابته الكرام رضوان الله عليهم.

٥) أمته عموماً، وخواصُّ أمته خصوصاً.

ونبدأ بتوفيق الله الوهّاب جلّ شأنه، وتبارك اسمه، وتعالى جِدُّه، ولا إله غيره، بالمبحث الأول:



المبحث الأول

بشارة الكتب السابقة والأنبياء السابقين عليهم السلام، بمجيئه ﷺ، وإيمانُ المُنْصِفين من علماء أهل الكتاب بِهِ ﷺ

ذكر الله تعالى هاتين الحقيقتين: (بشارة الكتب السابقة والأنبياء السابقين بمجيء خاتم النبيين) و(إيمان المنصفين من أهل الكتاب بِهِ) في آيات كثيرة، وسنتحدَّث عن كل منهما في مطلبٍ مستقل، وذلك في ضوء بعض آيات الله البيِّنات الواردة بهذا الصَّدد، إذاً فلنستمع الآن إلى كلام الله المبارك جلّ وعلا:

١ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران].

٢ - ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة].

٣ - ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].

٤ - ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران].

٥ - ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء].

٦ - ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة].

٧ - ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام].

٨ - ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس].

٩ - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد].

١٠ - ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد].

١١ - ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

١٢ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء].

١٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص].

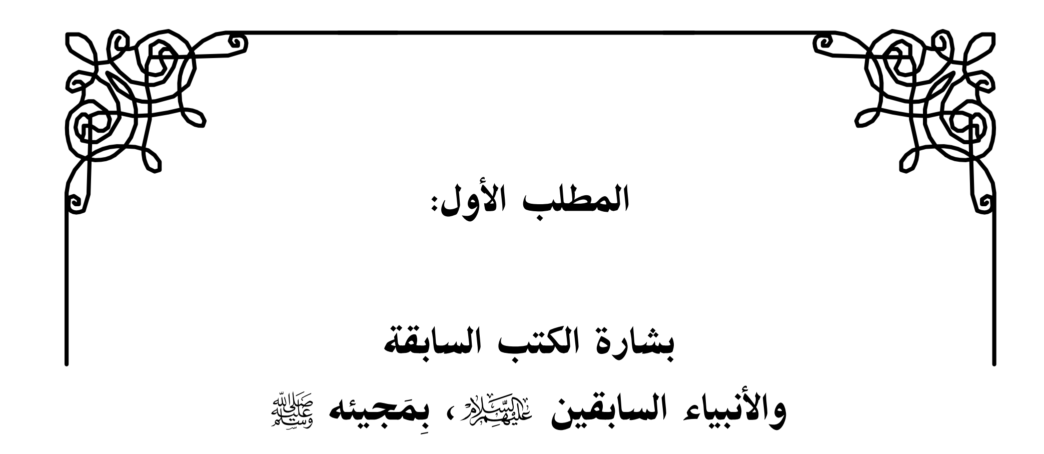
١٤ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت].

١٥ ـ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ].

١٦ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف].

١٧ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف: ٦].

ونبدأ بالمطلب الأول:



المطلب الأول:

بشارة الكتب السابقة
والأنبياء السابقين عليهم السلام، بِمَجيئه صلى الله عليه وسلم

أولاً: الآيتان (٨١، ٨٢) من (آل عمران):

يُخبِرُنا عالِمُ الغَيْب والشهادة تبارك وتعالى، في هاتين الآيتين، بأنّه قد أخذ العهد والميثاق من الأنبياء الكرام الذين أعطاهم الكتاب والحكمة، أن يؤمنوا بالرسول الذي يأتي مُصَدِّقاً لما معهم ويَنْصُرُوه، ثم استجوبهم سبحانه تأكيداً للميثاق وقال لهم: هل أَقْرَرْتُمْ وأخذتم ميثاقي وعهدي؟! وأجابوا كلُّهم: أنْ نَعَمْ، قد أَقْرَرْنا، وعند ذلك قال سبحانه: إذاً: فاشهدوا وأنا معكم شهيدٌ على هذا.

ثم يبيِّن سبحانه أَنَّ مَنْ أَعْرضَ عن الإيمان بالنبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه فهو ـ أياً كان ـ، يُعتبر خارجاً عن نطاق دين الله الحق والفطرة التي فطر الناس عليها.

ومن الجَليِّ أَنَّ المقصود بـ(رسول) في قوله تعالى: ﴿...ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ...﴾ [آل عمران: ٨١]، هو (محمَّد) خاتم النبيين وسيِّد المرسلين، صلى الله عليه وآله وسلَّم، وذلك بدليل:

أ ـ أنه هو الذي جاءَ بعد النبيِّين كلِّهم عليهم السلام، وخُتمت به النبوَّة.

ب ـ وأنه هو الذي أوتي الكتاب الذي هو مصدِّق لكل الكتب السابقة

ومُهَيْمنٌ عليها جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ... ﴾ [المائدة: ٤٨].

ج - ثم هو وحده الذي أرسله الله تعالى بعد آدم ونوح عليهما السلام على مستوى البشرية كلّها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا... ﴾ [سبأ: ٢٨]، ومعلوم أن الرسول الأعظم والنبي الخاتم ﷺ، هو وحده الذي تتحقّق فيه حِكْمَةُ أَخْذِ الميثاق من الأنبياء كلِّهم، على الإيمان به ونُصْرَتِهِ، إذْ غيره لا يحتاج إلى أن يؤخذ له ميثاق واسِعٌ شامِلٌ كهذا.

وقد كان مِصداق ذلك الميثاق العمومي، مُتَلَئْلأ ومُتَجلياً قبل بعثة رَسول الله (محمَّد) ﷺ، حيث كانت البشرية بكافة شعوبها تنتظر بِلَهْفَةٍ وشَوْق مجيءَ الرسول المبشَّر به على ألسنة كل الرسل والأنبياء عليهم السلام، ولم يكن ذلك إلّا نتيجة إخبار الكتب الربانية السابقة ـ قبل تحريفها ـ وتبشير الأنبياء السابقين، الأمم والشعوب السابقة بمجيء النبيِّ الخاتم ورسول الله الأعظم ﷺ، الذي يُرْسِلُهُ الله تعالى لِيُكْمِلَ عَمَلَ الأنبياء والرسلِ الكرام، ويُصدِّقهم كُلَّهم، ويصحِّحَ الأخطاءَ والإنحرافاتِ التي ارتكبها أَتْباعُهُم، وشوّهوا بها الوجْهَ المشرق الوضّاح، لدين الله الحق الذي أرسل به كُلَّ رُسُله وأنبيائه عليهم السلام.

ومِمّا يدلّ على ما ذكرنا: هذا الأَثَرُ الذي أخرجه (إبن أبي حاتم) عن (ابن عباس) رضي الله عنهما: (**أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلمّا بعثه الله من العرب، كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم (معاذ بن جبل) و(بشر بن البراء) و(داود بن سلمة)** رضي الله عنهم: **يا معشر اليهود! اتَّقوا الله وأَسْلِموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بِمحمَّدٍ، ونحن أهل شركٍ، وتُخْبِروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال: (سلام بن مشكم) أحد بني النضير: ما جاءنا بشيءٍ نَعْرِفُه، وما هو بالذي كنّا نذكر لكم، فأنزل الله:** ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ

﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة][1].

ثانياً: الآية (٦) من (الصف):

وفي هذه الآية يبيِّن الله تعالى أَنَّ عيسى عليه السلام، لما أرسله الله إلى بني إسرائيل، أخبرهم بأنه (مصدِّق) للتوراة ولموسى عليه السلام الَّلذَيْنِ سبقاه، وبأنه مُبَشِّرٌ بالنبيّ الخاتم والرسول الأعظم، الذي يأتي بعده، واسمه (أحمد) صلى الله تعالى عليه وسلَّم.

ثالثاً: الآيات (١٩٢ إلى ١٩٧) من (الشعراء):

وفي هذه الآيات بعد أن يبيِّن الله تعالى أن هذا القرآن تنزيلٌ من رب العالمين (والرب لا يمكن أن يَدَع مربوبيه ويُهْمِلهم، من غير دين ومنهج وهداية)، وأن الذي جاءَ به منه سبحانه، وأنزله على قلب (محمَّد) ﷺ هو الروح الأمين (جبريل) عليه السلام، وذلك الوحي والكلام الربّاني، مُعَبَّر عنه بلغة عربية واضحة، بعد هذا، يُخْبِرُ جلَّ شأنه أن القرآن مذكور في الكتب السابقة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء]، ثم يقول سبحانه:

﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء]، أي: أوليس في اطِّلاع عُلماءِ بني إسرائيل على القرآن، وعلى النبي الخاتم الذي

---

(١) أنظر: (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي، ص١٧، رقم: ٢٢. وكذلك نقل أثراً آخر أخرجه الحاكم في (المستدرك) والبيهقي في (دلائل النبوَّة) عن يهود خيبر وأنهم كانوا يستفتحون على (غطفان) برسول الله ﷺ قبل مبعث رسول الله، والإستفتاح: طلب النصر من الله تعالى. أنظر: ص١٦ و١٧، رقم: ٢١، وقد ذكر هذا الأثر (الواحدي) في (أسباب النزول) ص١٥. قال السُّديُّ: أنهم كانوا اذا اشتدَّ الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبيِّ ﷺ وقالوا: اللّهم انا نسألك بحق نبيِّكَ الذي وعدتنا أن تَبعَثَهُ في آخر الزمان، أن تنصرنا اليوم على عدوِّنا، فيُنْصَرون. أنظر: روح المعاني ج١، ص٤٤٤.

وأنظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج١ ص٣٣، وقال المؤلفان: قلنا: سنَدَهُ ضعيف.

يَنْزِلُ عليه، برهاناً وبيِّنة للناس على كون (محمَّدٍ) ﷺ رسولاً، وأنه تَلقَّى القرآن من ربِّه تبارك وتعالى؟!

ومن الواضح أن علماء بني إسرائيل ما كان يمكنهم الإطِّلاع على صفة القرآن وصفة النبي الخاتم، لولا أن الكتب السابقة والأنبياء السابقين عليهم السلام، بشَّروا بهما.

رابعاً: الآيتان (١٤٦) من (البقرة) و(٢٠) من (الأنعام):

وفي هاتين الآيتين أعلن الله تبارك وتعالى، أن علماء أهل الكتاب يعرفون رسولَ الله ﷺ بنعته وصفته، بسبب تبشير كتبهم وأنبيائِهم به، كما يعرفون أولادَهم وأبنائَهم، عندما يرونهم من بين أولاد الناس وغلمانهم!

خامساً: الآية (٩٤) من (يونس):

يخاطِبُ الله تعالى نَبِيَّهُ الخاتم ﷺ، بأنه إنْ كان في شك مِمّا أنزله الله تعالى إليه من كتابه الكريم، فَليسأل علماءَ أهل الكتاب الذين اطَّلعوا على كتب الله السابقة، بِشأن (محمَّد) ﷺ ونُبوَّته، ثم يؤكِّد سبحانه لنبيه ﷺ، بأنّه قد جاءه الحق من ربِّه، لِذا لا يجوز أن يكون من المتردِّدين.

وأنا أرى ـ والله هو العليم الحكيم ـ أن المقصود بهذا الخطاب، هو التأكيد على: أن حقانية القرآن ونبوَّة خاتم الأنبياء ﷺ، ثابتة وواضحة في الكتب السابقة، وعند العلماء الراسخين في العلم، والمنصفين من أهل الكتاب، كما سنبين هذا في المطلب التالي، وإنما قلت هذا، لأن الله تعالى هو أعلم بنَبِيِّه، مِنْ علمه هو بنفسه، وقد رُوِيَ عنه أنه قال ﷺ: «**لا أشكُّ ولا أسأل**»[1]، ثم لا يعقل أن يَشُكَّ رسولُ الله ﷺ في نبوَّتِهِ، وكتاب الله المنزَّل إليه، وفي أمته من أهل الإيمان الكاملين من لا يتطرق الشك حوله إلى قلوبهم! فكيف يشك هو، وهو أوّل المسلمين وسيّد المؤمنين، في الأولين والآخرين؟

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في (المصنَّف) و(الطبري) في (التفسير) عن قتادة، انظر: (روح المعاني) ج٦ ص٢٤٣.

وتوضيحاً لما قلته في فهمي لمعنى الآية، نأتي بهذا المثال، والمثل يُضربُ ولا يُقاس، كما قيل:

يُوجّه مدرِّسٌ سؤالاً لأحد طلاّبه الأذكياء الذين يعلم يقيناً أنه يعرف الجواب، ولكنه يقول له تنبيهاً على ذكاء طالبٍ آخر ومعرفته: (إذا لم تعرف الإجابة الصحيحة، فبإمكانك أن تسأل فلاناً)، فهنا لا يقصد المدرِّس التشكيكَ في مقدرة الطالب الذكيِّ على الإجابة، بَلْ يقصد تنبيهَهُ على أن رفيقه الطالب أيضاً، عنده معرفة بالجواب.

هذا فيما يتعلّق بتبشير الكتب السابقة والأنبياء السابقين عليهم السلام، بالنبي الخاتم، ورسوله الأعظم، ونوره الأتم صلى الله عليه وسلم.

وربما ههنا يتساءل مُتسائِلٌ:

وهل هناك الآن بقيّة من تلك المبشِّرات التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، وأَوْدَعها كُتُبَه، وألْزَم أنبياءَهُ عليهم السلام، أن يُبَلِّغوا بها أُمَمهم؟!

والجواب:

نعم ما زالت هناك بَقِيَّة من تلك المبشِّرات في الكتب المتداولة الآن بيد أهل الكتاب، بالرغم من التحريف والكتمان والنِّسيان الذي تعرَّضت له تلك الكتب، كما تحدثنا عن هذا تفصيلاً في الكتاب الخامس عند الحديث عن كتب الله تعالى، فلا نعيدُ ما قلناه هناك، ولكن على أساس قوله تعالى: ﴿...وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ...﴾ [يوسف]، نَنْقُلْ هذا النّص من (الكتاب المقدّس) والذي فيه إدانةٌ صريحةٌ من (إِرْميا) ـ الذي يعتبره (الكتاب المقدّس)، أحد أنبياء الله تعالى في بني إسرائيل ـ لأهل الكتاب بتحريفهم لكتب الله تعالى، حيث يقول (إِرميا):

(كيف تدَّعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب بينما حوَّلها قَلَمُ الكتبة المخادِعُ إلى أكذوبة! سَيَلْحَقُ الخِزْيُ بالحكماء ويعتريهم الفَزَعُ والذُّهولُ لأَنَّهم رفَضوا كلمة الرب)[1].

---

(١) التفسير التطبيقي للكتاب المقدَّس، العهد القديم، سفر إِرميا الإِصحاح: ٨، ص١٤٩٣.

هذا ويُمكِنُنا أَنْ نقتبس عدّة أمثلة من (الكتاب المقدس) بعهديه القديم والجديد، من تلك البقية الباقية من تلك المُبَشِّرات، ولكن نكتفي بهذا النَّص الذي هو واضح الدلالة جِدّاً، على أن المقصود به هو خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسَّلام، لأن الأوصاف التي أُطْلِقَتْ على (خادِمِ الربِّ) لا تنطبق إلّا عليه هو ﷺ:

جاء في (كتاب أشعياء) والذي يعتبره (الكتاب المقدّس) هو الآخر من أنبياء الله تعالى، هذا النص، وهو كلام منسوبٌ إلى الله تعالى:

«مهمة خادِمِ الربّ:

هوَ ذا عبديَ الذي أَعضُدُه، مُخْتاري الذي ابتَهَجَتْ به نَفْسي، وضَعْتُ روحي عليه ليسوسَ الأُمَمَ بالعدل، لا يَصِيحُ، ولا يَصْرُخُ، ولا يرفعُ صوتَه في الطريق، لا يكسِرُ قَصَبةً مَرْضَوضةً وفَتيلةً مُدَخِّنةً لا يُطْفيء، إنّما بأمانةٍ يُجْري عَدْلاً، لا يَكِلُّ ولا تُثَبَّطُ له هِمَّةٌ، حتى يُرَسِّخَ العَدْل في الأرض وتنتظر الجزائر شَريعَتَهُ.

هذا ما يقول الله خالق السموات وباسِطُها وناشِرُ الأرض وما يُسْتَخْرَجُ منها، الواهِب أهلَها نَسْمَةً، والمُنْعِم بالروح على السائرين عليها: أنا هو الرب، قد دعوتك بالبِرِّ، أَمْسَكْتُ بيدك وحافظت عليك، وجعلتك عَهْداً للشَّعب، ونوراً للأمم، لِتَفْتَح عُيونَ العُمْي وتُطْلِقَ سَراحَ المأسورين في السِّجنِ، وتُحَرِّر الجالسين في ظلمة الحبْس.

أنا هو الرب وهذا اسمي، لا أُعطي مَجْدي لآخَرَ ولا حَمْدي لِلْمَنْحوتات.

ها هي النبوّات السالِفةُ تَتَحقَّقُ، وأُخرى جديدة أُعْلِنُ عنها وأُنْبِيءُ بها قَبْلَ أَنْ تحْدُثَ»[1].

والجمل التي تحتوي على أوصافٍ، لا تنطبق تلك الأوصاف إلّا على النبي الأميّ الخاتم، ورسول الله الأعظم (محمَّد) ﷺ، هي:

(١) انظر: (التفسير التطبيقي للكتاب المقدَّس) العهد القديم، كتاب إشعياء، الإصحاح (٤٢)، ص(١٤٣٧). وعاش (إشعياء) بين سنتي (٦٨١ ـ ٧٤٠) قبل الميلاد.

١.   **(وضعتُ عليه روحي ليسوس الأُمَمَ بالعَدلْ).**

٢.   **(إنّما بأمانةٍ يُجْري عَدْلاً).**

٣.   **(لا يكلُّ ولا تُثَبَّط له هِمَّة، حتى يرسِّخَ العَدْلَ في الأرض).**

٤.   **(وتنتظر الجزائِرُ شريعَتَه).**

٥.   **(. . .وجعلتك عهداً للشعب ونوراً للأمم. . .).**

٦.   **(. .وتطلق سَراح المأسورين في السِّجن، وتحرِّر الجالسين في ظلمة الحَبْسِ).**

٧.   **(أنا هو رب وهذا اسمي، لا أُعطي مَجْدي لآخر. .).**

أَجل مَنْ تأمّل هذه الأوصاف، ثم نظر إلى سيرة رسول الله ﷺ، وجدهما متطابقتين، إذ خاتم النبيين وسيّد المرسلين، هو وحده من بين الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى، بعد (أشعياء)، وأبرزهم (زكريا ويحيى وعيسى) عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الذي:

١ ـ مكّن الله تعالى له ولأمته، وساس الأمم بالعدل الإسلامي.

٢ ـ وأجرى العَدْلَ بأمانةٍ بتطبيق شريعة الله العادلة.

٣ ـ ولم يكلَّ ولم تُثبَّطْ له هِمة، إلى أَن رسَّخ وثبَّت العَدْلَ في الأرض.

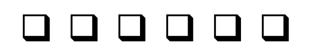
٤ ـ وبلغت شرعته التي أنزلَها الله عليه، جَزائِرَ البحر.

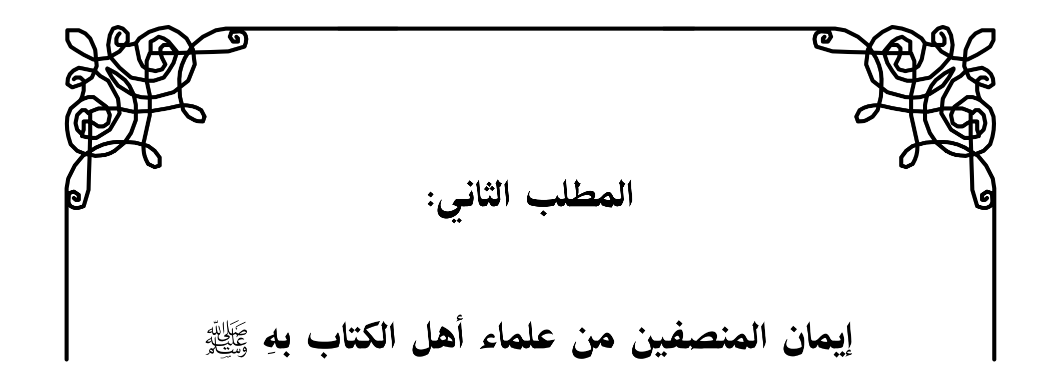
٥ ـ وأصبح نوراً للأُمم.

٦ ـ وأَطْلَق سَراحَ المأسورين في سجون الظَّلَمة الطواغيت المُسْتَعِبدِين للشعوب، وحَرَّر المستضعفين الجالسين في ظلمة الحَبْس.

٧ ـ ثم هو وحده الذي خُتمتْ به النبوّات، وَلَم يُعْطِ الله تعالى مَجْدَه ـ أي النُبوَّة ـ من بعده لأحد!

ونَنْتقل الآن إلى المطلب الثاني:





المطلب الثاني:

إيمان المنصفين من علماء أهل الكتاب بهِ ﷺ

ذكر سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في آيات كثيرة، أَدْرَجْنا بعضها في السابق ـ في بداية هذا الفصل ـ، لِذا نكتفي هنا بالإشارة إليها بذكر أرقامها وأسماء السور الواردة فيها:

١ ـ الآية (١٩٩) من (آل عمران).

٢ ـ الآية (١٦٢) من (النّساء).

٣ ـ الآيات (٨٢، ٨٣، ٨٤) من (المائدة).

٤ ـ الآية (٣٦) من (الرعد).

٥ ـ الآية (٤٣) من (الرعد) أيضاً.

٦ ـ الآيات (١٠٧، ١٠٨، ١٠٩) من (الإسراء).

٧ ـ الآيات (٥٢ إلى ٥٥) من (القصص).

٨ ـ الآية (٤٧) من (العنكبوت).

٩ ـ الآية (٦) من (سبأ).

١٠ ـ الآية (١٠) من (الأحقاف).

وقد نزلت هذه الآيات كلُّها أو جُلُّها في مناسبات إسلام بعض المنصفين من علماء أهل الكتاب، وهذه إشارة إلى بعض تلك المناسبات:

١) الآية (١٩٩) من (آل عمران):

قال النيسابوري في سبب نزولها في (أسباب النزول):

«قال جابر بن عبدالله، وأنس، وابن عباس، وقتادة: نزلت في (النّجاشي) وذلك لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: (أخرجوا فصلُّوا على أخٍ لكم مات بغير أرضكم)، فقالوا: ومَن هو؟ فقال: (النجاشي) فخرجَ رسولُ الله ﷺ إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سَرير النَّجاشي وصلَّى عليه، وكبّر أربع تكبيرات، واستغفر له وقال لأصحابه: استغفروا له، فقال المنافقون: أُنظروا إلى هذا، يُصلِّي على عِلْج حَبَشيٍّ نصراني لم يره قط، وليس على دينه!! فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١].

وقد روى هذه القصة مختصراً (السيوطي) أيضاً، وقال: رواه النسائي عن (أنس) وروى ابن جرير نحوه عن (جابر)، والحاكم في (المستدرك) عن (عبدالله بن الزبير) رضي الله عنهما[٢].

٢) الآيات (٨٢، ٨٣، ٨٤) من (المائدة):

أورد كل من النيسابوري والسيوطي في سبب نزول هذه الآيات، أنّها نزلت بمناسبة إسلام بعض علماء النّصارى الحبشيين، لما وفدوا على رسول الله ﷺ مِنْ قِبَلِ النّجَاشي، أو لمّا استمعوا إلى جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يقرأ عليهم القرآن هناك، ومن ضمنهم النجاشي نفسه، رضي الله عنه وعنهم[٣].

---

(١) أُنظر ص٧٨، ورواه إبن جرير في تفسيره (١٤٦/٤) والهيثمي في المجمع (٣/ ٣٨، ٣٩) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبدالرحمٰن بن أبي الزناد وهو ضعيف.

(٢) لُباب النقول، ص٧٠، رقم: ٢٣٧.

(٣) أسباب النزول، للنيسابوري، ص١١٢ و١١٣، ولُباب النقول، للسيوطي، ص١٠٧ و١٠٨، رقم: ٣٧٤ و٣٧٥ و٣٧٦، وأورد هذه القصص الثلاث الواحدي في (أسباب النزول) ص١١٦و ١١٧.

٣) الآيات (٥٢ إلى ٥٥) من (القصص):

قال السيوطي في سبب نزول هذه الآيات:

«أخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة القرظي: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم (رفاعة)، يعني أباه، إلى النبي ﷺ فآمنوا، فأوذوا فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ...﴾»[1].

٤) الآية (١٠) من (الأحقاف):

قال السيوطي في سبب نزولها:

«أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عوف بن مالك الأشجعي قال:

انطلق النبيُّ ﷺ وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: يا معشر اليهود! أروني اثني عشر رجلاً منكم، يشهدون أن لا إلٰه إلّا الله، وأن محمَّداً رسولُ الله، يَحُطُّ الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغَضَبَ الذي عليه، فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم انصرف فإذا رجل من خَلْفِهِ فقال: كما أنت يا محمَّد، فَأَقْبَلَ فقال: أَيُّ رجُلٍ تعلموني فيكم، يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً، كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك، ولا من أبيك من قبلك، ولا من جدِّك قبل أبيك، قال فإنِّي أشهد أنه النبي الذي تجدون في التوراة، قالوا: كذبت، ثم ردّوا عليه: وقالوا فيه شرّاً، فأنزل الله: ﴿...أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ...﴾ [الأحقاف: ١٠]»[2].

وكذلك قال السيوطي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ...﴾ في نفس الآية السابقة:

---

(١) لباب النقول، ص١٩٦، رقم: ٦٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٢، رقم: ٨١٩. وأخرجه أَبو يَعْلى والحاكم بسند صحيح في المستدرك: ٥٧٥٦، والطبراني في الكبير: ٨٣، وأحمد في المسند: ٢٤٠٣٠ وهو صحيح، أنظر: (روح المعاني)، ج١٣، ص٢٣٠ (الحاشية).

[أخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقّاص ﷺ قال: في (عبدالله بن سلام) نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ...﴾، وأخرج ابن جرير عن (عبدالله بن سلام) قال: فيَّ نزلَتْ][1]، ورواه البخاري: ٣٨١٣ ومسلم: ٣٤٨٣.

وقد روى البخاري إسلامَ (عبدالله بن سلام) ﷺ، والذي كان حِبْراً عظيماً من أحبار اليهود، بالصورة التالية:

«لما سَمِعَ (أي عبدالله) بمقدم رسول الله ﷺ المدينة في (بني النّجار)، جاءه مُسْتَعْجِلاً وألْقى إليه أسئلة لا يعلمها إلّا نبيٌّ، ولما سمع ردودَه عليها، آمنَ به ساعته ومكانه، ثم قال له (أي للنبي ﷺ):

إن اليهودَ قَوْمٌ بُهْتٌ، إنْ علِموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَّتوني عندك، فأرسل رسولُ الله ﷺ فجاءت اليهود، ودخل (عبد الله) البيت، فقال رسولُ الله ﷺ: أيُّ رجلٍ فيكم عبدالله بن سلام؟! قالوا: أَعْلَمُنا وابنُ أَعْلَمِنا وأخيرُنا وابن أخيرنا، (وفي لفظ) سيِّدُنا وابن سيِّدنا (وفي لفظ آخر) خيرنا وابن خَيْرنا، وأفضلُنا وابن أفْضَلِنا، فقال رسولُ الله ﷺ:

أفرأيتم إنْ أَسْلَمَ عبدالله؟!

فقالوا: أَعاذَهُ الله من ذلك (مرتين أو ثلاثاً)، فخرج إليهم عبدالله، فقال:

أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمَّداً رسول الله،

قالوا: شَرُّنا وابن شَرِّنا ووقعوا فيه، (وفي لفظ) قال:

يا معشر اليهود! اتقوا الله فوالله الذي لا إلٰه إلّا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحقٍ، فقالوا: كَذَبْتَ» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٢١٠)).

وأما غير المنصفين وأصحاب الأغراض والمصالح المادية والإمتيازات الشخصية، من علماء اليهود والنّصارى، فقد أعماهم الحِقْدُ والحَسَدُ وذهب

(١) المصدر السابق، ص٢٣٢، رقم: ٨٢٠ و٨٢١.

بهم البُغْضُ للنبي الخاتم، ولقومه الذين بعث فيهم ـ أي العرب ـ بعيداً، حيث كان اليهودُ يُبْغِضون العَرَبَ أَشدَّ البُغْضِ، ولهذا لما جاء النبيُّ الخاتم ﷺ فيهم، ازدادوا بُغضاً وحقداً وحسداً وعداوة، كما قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة].

ومِمّا يدلُّ على أنَّ علماء أهل الكتاب (اليهود والنّصارى) في عصر رسول الله ﷺ، كانوا مُسْتَيقنين بنبوَّة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولكن الحقد والحسد والحفاظ على المصالح والأغراض الدنيوية، هي التي أدَّت بأكثرهم إلى الكفر به، بل وعداوته أشدّ العداوة، بالإضافة إلى آيات بيِّنات في كتاب الله، هذه أمثلة منها:

١. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿...وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾...﴾ [البقرة].

٣. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].

٤. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ

﴿بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة].

أَجَلْ، ومما يَدُلُّ على كون علماء أهل الكتاب في عصر الرسول ﷺ كانوا متأكِّدين من صدقه ﷺ بالإضافة إلى الآيات المباركات السابقة، هو الأحاديث والآثار الآتية:

١» أورد النيسابوري في (أسباب النزول) في سبب نزول الآية (٦١) من (آل عمران) بِسنده إلى جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنَّه قال: **قَدِمَ وفْدُ أهل (نَجْران) على النبي ﷺ (العاقِب) و(السيِّد) فدعاهما إلى الإسلام فقالا: أَسْلَمْنا قبلك، قال: (كَذَبتُما إن شئتُما أخبرتكما بما يمنعكما من الإسلام) فقالا: هات أَنْبِئْنا. قال: (حُبُّ الصَّليب، وشُرْبُ الخَمْر، وأكل لَحْم الخِنْزير). فدعاهما إلى الملاعنة، فواعداه على أن يغادياه بالغداة، فَغدا رسولُ الله ﷺ فأخذ بيد عليٍّ وفاطمة وبيد الحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فَأَبَيا أَنْ يُجيبا، فأقَرّا له بالخراج، فقال النبي ﷺ: (والذي بعثني بالحق، لو فعلا لمُطِرَ الوادي ناراً)»**[1].

قال جابر: فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران].

هذا بالنسبة لعلماء النَّصارى الجاحدين، وأما بالنسبة لعلماء اليهود والكاتمين للحق، فَأَمْرُهم أَدْهى وأَمَرُّ، كما تدلّ عليه هذه الآثار:

٢» قال النيسابوري في (أسباب النزول) عند الحديث عن قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران].

---

(١) ص٥٦، وأورد السيوطي في (لباب النقول) هذا الخبر باختصار، ص٥٧، رقم: ١٨٩، وأورده ابن كثير في تفسيره (٤٩٣/١)).

«. . . وقال الكلبي: إن ناساً من علماء اليهود أولي فاقةٍ، أصابتهم سنةٌ فاقتحموا إلى كعب بن الأشرف بالمدينة، فسألهم كعب: هل تعلمون أن هذا الرجلَ، رسولُ الله في كتابكم؟ قالوا نعم، وما تَعْلَمُهُ أنت؟ قال: لا، فقالوا فإنّا نشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: لقد حَرَمكم الله خيراً كثيراً، لقد قَدِمْتُمْ إلي وأنا أريدُ أن أُميرَكُمْ وأكسوَ عيالكم، فحَرمكم الله وحَرَمَ عيالكم. قالوا: فإنَّه شُبِّه لنا فَرُوَيداً حتى نَلْقاه، فانطلقوا، فكتبوا صِفَةً سوى صِفَتِهِ، ثم انتهوا إلى نَبيِّ الله فكلَّموه وساءلوه، ثم رَجَعوا إلى كعبٍ وقالوا: لقد كنّا نرى أنّه رسولُ الله، فلما آتيناه إذا هو ليس بالنعت الذي نُعِتَ لنا، وَوَجَدْنا نَعْتَهُ مُخالِفاً لِلذي عندنا، وأَخْرَجوا الذي كتبوا، فنظر إليه كعبٌ ففرِحَ، فمارهم[1] وأنفق عليهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[2].

٣» وكذلك قال النيسابوري عن الآية السابقة وسبب نزولها:

«وقال عِكْرَمة:

نَزَلَتْ في أبي رافع، ولُبابة بن أبي الحقيق، وحُيَيْ بن أَخْطَبْ وغيرهم من رؤساء اليهود، كَتَمُوا ما عهد الله إليهم في التوراة مِنْ شأن (محمَّد) ﷺ، وبدّلوه وكتبوا بأيدهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله، لِئلاّ يفوتهم: الرَّشا والمآكل التي كانت لهم على أتباعهم»[3].

٤» وقال كل من النيسابوري والسيوطي في سبب نزول قوله تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) مارَهُمْ، أي أعطاهم الميرة، وهي الزّاد والذخيرة، كالحنطة والشعير وغيرها. مختار الصحاح، ص٥٥٢، لفظ: م ي ر.

(٢) أسباب النزول للنيسابوري، ص٦٠.

(٣) أُنظر: أسباب النزول، للنيسابوري، ص٧٦، ولباب النقول في أسباب النزول، ص٦٨، رقم: ٢٣٣، وانظر: صحيح البخاري: ٤٥٦٦، وصحيح مسلم: ١٧٩٨.

أن عبدالله بن عباس ﵄ قال:

«إنّما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، سألهم النبيُّ ﷺ عن شيء فكتموه إيّاه، وأخبروه بغيرهِ، فخرجوا وقد أروه أنهم قد أَخْبروُهُ بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرِحوا بما أَتَواْ من كتمانهم ما سألهم عنه»[1]
ورواه البخاري: ٤٥٦٧، ومسلم: ٢٧٧٧.

٥» ونختم هذه الآثار بهذه القصة التي جاءت في (سيرة ابن هشام):

«قال ابن إسحاق:

حُدِّثْتُ عن (صفية بنت حُيَي بن أَخْطَب)، (أم المؤمنين ﵂) أنّها قالت:

كنت أحبَّ وَلَدِ أبي إليه، وإلى عمِّي أبي ياسر، لَمْ أَلْقَهُما قطّ مع وَلَدٍ لهما، إِلّا أخذاني دونه، قالت:

فَلمّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة ونزل (قباء) في بني عَمْرو بن عوف، غدا عليه أبي (حُيَيْ بن أَخْطَبْ) وعمِّي (أبو ياسر بن أخطب) مُغَلِّسَيْنِ[2]، (قالت) فلم يرْجعا حتى كانا مع غروب الشمس، (قالت) فأتيا كالَّيْنِ كَسْلانين ساقطين، يمشيان الهُوَيْنى (قالت) فَهَشِشْتُ إليهما كما كنت أَصْنَعُ، فوالله ما التفت إليَّ واحِدٌ منهما، مع ما بهما من الغَمِّ! (قالت) وسَمِعْتُ عمِّي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيَيْ بن أَخْطَبْ: أَهُوَ هو؟! قال: نعم والله، قال: أتعرِفُهُ وتُثْبِته؟! قال: نَعَمْ، قال: فما في نفسك منه؟!

قال: عداوته والله ما بقيت!»[3].

هذا، وما زال المنصفون من علماء أهل الكتاب وخاصة من النّصارى

---

(١) أسباب النزول للنّيسابوري، ص٧٦، ولباب النقول للسيوطي، ص٢٤٨.
(٢) أي: في ظلمة آخر الليل. مختار صحاح، ص٤١٨، لفظ: غ ل س.
(٣) ج٢، ص١٦٥ و١٦٦.

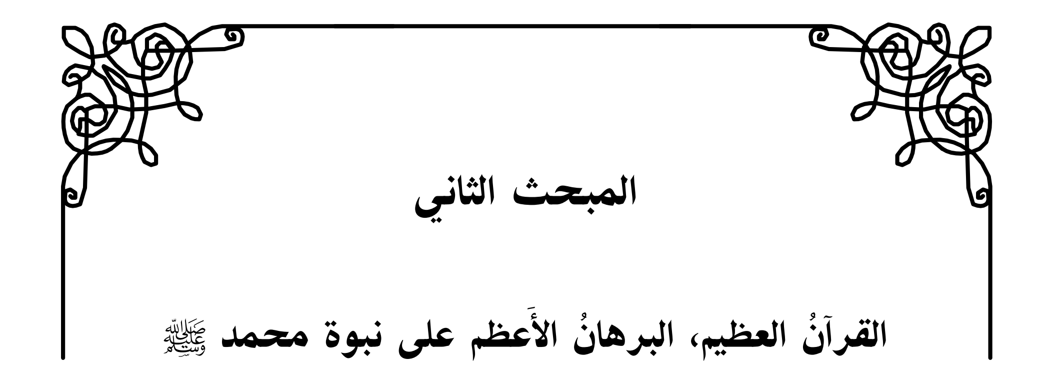
يدخلون في دين الله الحق، بعد أن تنفتح أعينُهم على حقائق الكتاب والسنة، وخاصة في عصرنا الحالي الذي مكَّن التقدُّمُ العلميُّ البَشَرَ من الإِطِّلاع على بعض أسرار الخلق في الأنفس والآفاق، والتي أشار إليها أو نصَّ عليها أو أكثرِها، دينُ الله الحق المتمثل في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

كما أن هناك أيضاً الحاقدون المغرضون منهم، الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى في آل فرعون:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

وبهذا نختم هذا المبحث الأول، وننتقلُ إلى المبحث الثاني والذي يتضمَّن نوعاً آخر من أنواع براهين نبوّة خاتم النبيين وسيِّد المرسلين (محمَّد)، صلى الله عليه وآله وسلَّم.





المبحث الثاني

القرآنُ العظيم، البرهانُ الأَعظم على نبوة محمد ﷺ

كما ذكرنا في الفصل الرابع من هذا الباب، (أي الكتاب الخامس من هذه الموسوعة)، أَنَّ القرآن هو البرهان الأَعظم على نبوَّة خاتم الأنبياء (محمَّد) ﷺ.

وسنشير إلى برهانية القرآن الحكيم، على نبوَّة (محمَّد) ﷺ ورسالته الخاتمة، من أربع حيثيات، وذلك في أربعة مطالب:

١ ـ إعجازُ القرآن الجنَّ والإنس، عن أَن يأتوا ولو بسورة مثله.

٢ ـ كيفية خطابات القرآن مع النبي الخاتم ﷺ.

٣ ـ منحى القرآن في الحديث، منحًى غير مخلوقي.

٤ ـ الردُّ القرآني المُفْحِمُ على كلِّ الشُّبه الَّتي تحومُ حول كونه ربّانيَّ المصدر.

وسنتناول الحديث عنْ هذه المطالب الأربعة تِباعاً، في ضوء أنوار الآيات المباركات التي نُدْرِجُها في كل مطلبٍ على حِدَة، ونبدأ الآن بالمطلب الأول:





المطلب الأول:

إعجازُ القرآن الجنَّ والإنس عن أَن يأتوا ولو بسورةٍ مِثْلِهِ

ونختار هذه المجموعة من الآيات المباركة التي جاءت في هذا المجال:

قال الله تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

٢ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور].

٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود].

٤ ـ ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس].

٥ ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

أَجَلْ إن إعجازَ كتاب الله العظيم الجِنَّ والإنس كلَّهم، منذ نزوله وإلى الآن، عن أَن يأتوا ـ جواباً على تحدِّيه المتكرِّر لهم ـ بسورة واحدة فقط، مثل سُوَرِه ـ كسورة الكوثر مثلاً ـ لَبُرْهانٌ عظيمٌ، أَعظم ما يكون البرهان، على أن القرآن ليس كلام أحدٍ سوى الله الخالق جلّ شأنه، وبالنتيجة: فالنبيُّ الأُمِّي الخاتَمُ الذي أنزل إليه ـ أي محمَّد ﷺ ـ هو نبي الله ورسوله حقّاً.

وبما أنّنا تناولْنا الحديثَ عن إعجاز القرآن العزيز في الكتاب الخامس، فَنُحِيْلُ إليه، ولكنِّي أودُّ التنبيهَ على موضوع سبق وأن تحدثنا عنه في مَوضعٍ سابق، ولكن نكرِّر الحديث عنه هنا أيضاً تأكيداً وتوضيحاً:

والموضوع المقصود، هو:

أن كتاب الله الحكيم لم ترتَّبْ فيه المواضيع (جمع موضوع) تحت عناوين محدّدة، وفي أبواب وفصول، كما نفعل نحن البشر في تنظيم وترتيب أفكارنا، عندما نريد التعبير عنها، كلاماً أو كتابة، بل جاءت فيه المواضيع المختلفة المتعدّدة، بعضها بِجَنْبِ بعض.

وربَّما يُخَيَّلُ إلى الناظر السَّطحيِّ أن في هذا المسلك نَقْصاً مّا، اقْتَضَتْهُ الحالة الفكرية الساذجة التي كان عليها المخاطَبون الأولون بكلام الله!

ولكن الأمر ليس كذلك، بل إنَّ في هذا الأمر لحكمة، كما هو الحال في سائر أمور كتاب الله الحكيم، وتلك الحكمة هي[1]:

أن كتاب الله الكريم وقرآنه العظيم، كتابُ هدايةٍ ومِنْهاجُ حياةٍ، للفرد والمجتمع، بكل ما تشتمل عليه كلمتا (هداية) و(منهاج) من مفاهيم وأبعاد، وليس هو كتاب علم خاصٍ، أو حتى مجموعة علومٍ مُحدَّدة، يرادُ به تعليم الناس ذلك العلم، أو تلك العلوم.

---

(١) أشار الشهيد سيد قطب رحمه الله في (ظلال القرآن) إلى هذه المسألة.

وبناءً على هذه الحقيقة ـ أي كون القرآن كتاب هداية للفرد وشرعة ومنهاج حياة للمجتمع[1] ـ وبما أن حياة الإنسان فَرْداً ومجموعاً لا يُشاهَدُ فيها هذا الفَصْلُ والفَصْمُ الذي نراه في أبواب كتاب مؤلَّف وفصوله المرتّبة، بل الحياة البشرية انعكاس عن فطرة البشر، بما تحتوي عليها الفطرة من غرائز وأشواق ونزعات شتّى، لِذا: ينبغي للكتاب الذي يراد به أن يكون هدايةً كاملةً وشريعةً شاملةً، لحياة الإنسان فرْداً ومجتمعاً، كونه على نفس الشاكلة الفطرية التي فطر الله عليها البشر، وانعكستْ على حياته الخاصة والعامة.

وقد جاء كتاب الله الحكيم على هذا المِنْوال فِعْلاً:

فعلى سبيل المثال:

يتحدَّث كلام الله المبارك في النِّصف الأول من الجزء الثاني من سورة (البقرة) عن كلّ من:

١) تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام.

٢) الأمر بالذكر والشكر.

٣) الأمر بالصبر والصّلاة.

٤) النهي عن إطلاق كلمة (الأموات) على المقتولين في سبيل الله تعالى.

٥) بيان حقيقة أن الإبتلاء شيء لازم للإيمان.

٦) الأمر بالسّعي بين الصَّفا والمروة.

٧) وعيدٌ شديد للذين يكتمون آيات الله وبيِّناته.

٨) ذكر توحيد الله في ألوهيته.

---

(١) وسنفصل القول في كيفية كون القرآن هداية للفرد ومنهاجاً للمجتمع، في الباب الثالث كلِّه (أي الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر) بإذن الله تعالى.

٩) ذكر توحيد الله في خالقيته وربوبيته.

١٠) بيان وخامة عاقبة الشرك بالله، المتمثّل في اتِّخاذ غيره أنداداً وأولياء.

١١) الأمر بأكل الحلال الطيِّب، واجتناب الحرام الخبيث.

١٢) تعريف البِرِّ والبارّ.

١٣) إيجاب القصاص في القتل العمد.

١٤) إيجاب أو استحباب الوصية.

١٥) بيان وجوب صيام رمضان، وبيان رخصة الإفطار وإعطاء الفدية لمن يشق عليه الصوم جداً، وللمريض والمسافر.

١٦) ذكر آداب الدعاء.

١٧) ذكر بعض أحكام الصيام والإعتكاف.

١٨) تحريم أكل أموال الناس بالباطل، ودفع الرِّشوة.

١٩) بيان حكمة حالات القمر المختلفة.

٢٠) الأمر بالقتال في سبيل الله تعالى، وتحريم الإعتداء.

٢١) الأمر بالإنفاق في سبيل الله تعالى (أي الجهاد المالي) تجنّباً للوقوع في الهَلاك المتمثِّل في تسلّط الأعداء.

٢٢) الأمر بإتمام الحج والعمرة وبيان كثير من أحكامهما.

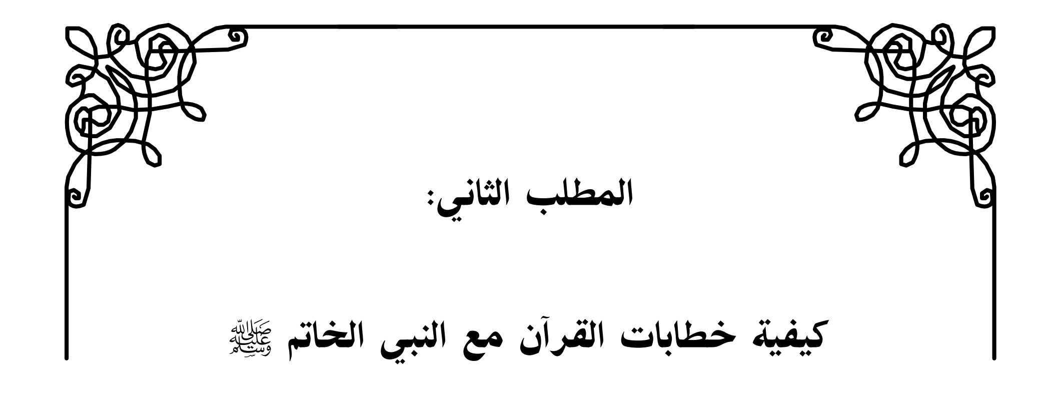
وحياة الإنسان نفسها هي على هذه الشاكلة كذلك، إذْ تتوارد فيها الحالات المختلفة تواردًا فطرياً:

فالإنسان المسلم يُصلِّي مستقبل القبلة عندما يحين وقت الصَّلاة، ثم يذكر الله تعالى ويُسبِّحُهُ ويحمده بعد الصّلاة، ثم تأتيه نعمة تحتاج إلى الشكر، وبعد أن يأتيه بَلاءٌ يُحْوِجُهُ للصَّبر... وهكذا.

وقد نوَّع الله تعالى من دون تكرارٍ بالمعنى المعهود لكلمة التكرار، ذكر المواضيع المهمّة التي تُشَكِّل أصولَ الدين، وأحكامَه الكلية، وحقائقه

وحِكَمَهُ الأساسية، في أكثر سور القرآن المباركة، لكي تترسَّخ في العقل والقلب بشتّى صور وأساليب التعبير، وتتوضَّح مفاهيمها أكثر فأكثر، وهذا أيضاً يقتضي أن يكون ترتيب تلك الأصول والأحكام والحقائق والحكم المتنوِّعة، المرتبطة بالإيمان والإسلام والعبادة والتقوى، والأخلاق والآداب، والحلال والحرام، والروح والجسد، والعقل والقلب، والفرد والأسرة، والمجتمع والدولة، والسلم والحرب، والدنيا والآخرة، والغيب والشهادة... إلخ، على هذه الشاكلة، التي هي وجهٌ آخر من وجوه إعجاز كتاب الله الحكيم.





المطلب الثاني:

كيفية خطابات القرآن مع النبي الخاتم ﷺ

وهذه أيضاً حيثية أخرى من حيثيّات وجوانب بُرهانية القرآن على نبوَّة سيِّد المرسلين (محمَّد) ﷺ.

والآن لِنَسْتَمِعْ إلى ثلاث مجموعات من خطابات كلام الله الحكيم مع رسول الله ﷺ، كي تتبيَّن لنا دلالة: (كيفية خطابات القرآن مع النبي الخاتم) على نبوَّته ورسالته ﷺ:

أ - المجموعة الأولى:

١) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص].

٢) ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

٣) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ...﴾ [الكهف: ١١٠].

٤) ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر].

٥) ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر].

ب - المجموعة الثانية:

١) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام].

٢) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [عبس].

٣) ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام].

٤) ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود].

٥) ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

ج - المجموعة الثالثة:

١) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف].

٢) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ

عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٦٧) لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٦٨)﴾ [الأنفال].

٣) ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٤٣)﴾ [التوبة].

٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١) قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (٢)﴾ [التحريم].

٥) ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا (٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا (٤٠)﴾ [الأحزاب].

٦) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا (١٠٥) وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (١٠٦) وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا (١٠٧) يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا (١٠٩) وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (١١٠) وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١١١) وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا (١١٢) وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ

﴿أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء].

والآن لننظر إلى كلٍ من هذه المجموعات الثلاث، من الآيات المباركات التي خُوطِبَ فيها النَّبيُّ الخاتم ﷺ:

أ) ـ المجموعة الأولى:

هذه المجموعة كلُّها أوامِرُ جازِمةٌ من الله تبارك وتعالى لنبِّيه الكريم ﷺ، وكلُّها تدور حول التوحيد، أي: اتِّخاذُ الله وحده إلٰهاً وتقديم العبادة له وحده، وهذه تعقيبات موجزة على الآيات:

١) أما سورة (الإخلاص) المباركة، فنزلت على رسول الله ﷺ لما سأله المشركون: **(إنْسِبْ لنا ربَّك)**، كما رواه الترمذي والحاكم وابن خزيمة عن أبي بن كعب رضي الله عنه، والطبراني وابن جرير، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه[(١)].

أو لما سأله اليهود: **(صِفْ لنا ربَّك الذي بَعثك)**، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك أخرجه ابن جرير عن قتادة، وابن المنذر عن سعيد بن جبير[(٢)].

---

(١) لباب النقول، ص٣١٣، رقم: ١٠٤٩، وأسباب النزول، للنيسابوري، ص٢٦٩، وانظر: سنن الترمذي: ٣٣٦٥.

(٢) لُبابُ النقول في أسباب النزول، ص٣١٣، رقم: ١٠٥٠، وأسباب النزول، للنيسابوري، ص٢٦٩.

٢) وأما سورة (الكافرون) فنزلت على رسول الله ﷺ كي يجيب بها الكافرين الذين أرادوا مفاوضته، واقترحوا عليه أن يعبد آلهتهم الباطلة، ويعبدوا إِلهَهُ الحق، حيث أخرج (ابن أبي حاتم) عن سعيد بن مينا قال:

لقي الوليدُ بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأُمية بن خَلَفْ، رسولَ الله ﷺ فقالوا: **(يا محمَّد هَلُمَّ فَلْتَعْبَدْ ما نعبد، ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كلِّه)**[1].

٣) وأما الآية (١١٠) من (الكهف) فأمر الله تعالى فيها رسوله، أَنْ يؤكِّد للناس كلاً من:

١. بشريَّته هو ﷺ، وأنه لا امتياز له على سائر الناس من ناحية البشرية.

٢. وتوحيد الله تعالى ووحدانيته في ألوهيَّته.

٤) وأما الآيات (٦٤، ٦٥، ٦٦) من (الزُّمر)، فنزلت جواباً على اقتراح للمشركين على رسول الله ﷺ، مفاده أن يعبد هو آلهتهم سنةً، إنْ لم يَكُفَّ عن شتم آلهتهم، وكذلك يعبدوا هم إلٰهه سنةً، كما أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

٥) وأما الآيات (١١، ١٢، ١٣) من (الزّمر) فيأمر الله تعالى فيها نَبيهُ ﷺ أَن يُعْلِنَ للكفار بأنه مأمورٌ من الله تعالى أن يعبده عبادة خالصة لا شوب فيها، وبأن يكون أول المسلمين، وبأنه يخاف إنْ عصى ربَّه بالشرك فما دونه، عذابَ الله تعالى في يوم عظيم، وهو يوم الحساب والجزاء.

---

(١) لباب النقول، ص٣١٠، رقم: ١٠٤٥، وأسباب النزول، للنيسابوري، ص٢٦٧.

(٢) لباب النقول، ص٢٢٤، رقم: ٧٩٢، وكذلك: ص٣١٠، رقم: ١٠٤٣ وأخرجه الترمذيُّ وصَحَّحَهُ.

ب) ـ المجموعة الثانية:

وهذه المجموعة من الآيات البيّنات كلّها عتابات وتحذيرات وجَّهها الله تعالى في مناسبات شتّى، لنبِّيه الخاتم ﷺ:

١) أما الآية (٣٥) من (الأنعام) فَعِتابٌ موجَّه إليه بسبب مُبالَغتِهِ ﷺ في الإغتمام، من جرّاء عدم اهتداء الكفار المتعنِّتين المعاندين المطالبين بالآيات والمعجزات المحسوسة، وهذه الآية هي الموضع الوحيد في كتاب الله الذي قيل فيه للرسول ﷺ: ﴿...فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٢) وأما الآيات (١ إلى ١٢) من (عبس)، فهي نزلت عتاباً لرسول الله ﷺ بسبب تقطيبه جبينه المبارك تجاه (ابن أمّ مكتوم)، عندما طلب منه أن يرشده، وكان منشغلاً بدعوة أحد كبراء المشركين، إذْ أخرج الترمذي والحاكم عن (عائشة) رضي الله عنها قالت:

«أنزل (عبس وتولّى) في ابن أمّ مكتوم الأعمى، أتى رسولَ الله ﷺ فجعل يقولُ: يا رسولَ الله أَرشِدْني، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من عظماءِ المشركين، فجعل رسولُ الله ﷺ يُعْرِضُ عنه ويُقْبِلُ على الآخر، فيقول له: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس].

وكذلك أخرج أبو يعلى مثله عن أنس رضي الله عنه[١].

كما وأورده النيسابوري في (أسباب النزول) عن عائشة، وقال أخرجه الحاكم في صحيحه[٢].

وروى النيسابوري أنَّ رسولَ الله ﷺ كان فيما بعد، عندما يَلْقى ابن أم

(١) أُنظر (لباب النقول في أسباب النزول) ص٢٨٦، رقم: ١٠٠٣، وانظر (سنن الترمذي): ٣٣٣١، و(أسباب النزول) للواحدي، ص٢٥٢.

(٢) أسباب النزول، ص٢٥٨.

مكتوم يقول له: (**مَرْحباً بالذي عاتبني فيه ربِّي**)[1].

٣) وأما الآية (٥٢) من (الأنعام) والتي ينهى فيها ربُّ العالمين رسوله المبعوث رحمة للعالمين ﷺ، عن أن يطرد ويُبْعِدَ المؤمنين (المستضعفين) الذين يعبدون الله بإخلاص واستمرار، فسبب نزولها والآيات التي بعدها، هو ما ذكره كلٌّ من (النيسابوري) و(السيوطي) في (أسباب النزول) عن (سعد بن أبي وقاص) ﷺ قال:

«نزلت هذه الآية فينا، ستة، فيَّ، وفي ابن مسعود، وصهيب، وعمّار والمقداد، والبلال، قالت قريشٌ لرسول الله ﷺ: إنّا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطردهم، فدخلَ قلْبَ رسولِ الله ﷺ ما شاء الله أن يدخل، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ...﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال النيسابوري: رواه مسلم، وقال السيوطي: أخرجه ابن حِبّان والحاكم[2].

٤) والآية (١٢) من (هود)، فيها تحذيرٌ شديد من الله العزيز الحكيم لنبيه الكريم ﷺ، بسبب اهتمامه الزائد بِمُطالبة الكفار إتيانه إياهم بالمعجزات المادية والمحسوسة، ويُبيِّن له سبحانه ويؤكِّد أنه ـ أي النبي ـ ليس سوى نذير، إذاً: فَليقُمْ هو بما كُلِّف به ولا يهتمَّ بغير ذلك، إذ القرآن برهان كافٍ ووافٍ لمن أراد الإيمان، والمعاندون المتذرِّعون بِشتّى الذّرائع، لا يستحقون الإهتمام والإغتمام.

٥) والآيات (٧٣، ٧٤، ٧٥) من (الإسراء) يُحذِّر فيها ربُّ العِزّة سبحانه رسوله ﷺ من أن يتأثّر ولو أدنى تأثُّرٍ، بمحاولات المشركين الرامية إلى ثَنْيِهِ عن صراط الله المستقيم، المتمثِّل في توحيده وعبادته بإخلاص، ويُوعِدُهُ بأنه إذا ما مال إليهم وإلى ما يدعونه إليه أقلَّ

---

(١) أسباب النزول، ص٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص١١٩ و١٢٠، ولباب النقول، ص١١٣ و١١٤، رقم: ٣٩٢، وصحيح مسلم: ٢٤١٣.

ميل، فَسَيُعذِّبُه العزيزُ الحكيمُ عذاباً مُضاعفاً في الدنيا والآخرة.

وقد أورد النيسابوري والسّيوطي قصّتين متشابهتين في سبب نزول هذه الآيات:

قال النيسابوري:

(وقال قتادة: ذُكر لنا أن قُريشاً خَلَوْا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصُّبح، يكلّمونَهُ ويُفخِّمونه ويُسَوِّدونه ويقاربونه، فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحدٌ من الناس، وأنت سيِّدنا يا سيِّدَنا، وما زالوا به، حتى كادَ يقارِبُهُم في بعض ما يُريدُون، ثم عَصَمَهُ الله تعالى عن ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية)[1].

وقال السيوطي:

(أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريقٍ إسحاق عن محمَّد بن أبي محمَّد عن عِكْرمة عن ابن عباس قال: خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجال من قريش، فأتوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمَّد! تعال تَمسَّحْ بآلهتنا، ونَدخُلُ معك في دينك، وكان يحبّ إسلام قومه، فَرَقَّ لهم، فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ . . . إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٣٢ ـ ٧٥].

ثم قال السيوطي عن هذه الرواية:

(قلت هذا أَصحُّ ما ورد في سبب نزولها، وهو إسناد جيِّد وله شاهد)[2].

ج) ـ المجموعة الثالثة:

وأما هذه المجموعة من الآيات، فهي كلّها انتقاداتٌ موجَّهة من ربّ

---

(١) أسباب النزول، ص١٦٦، وٱنظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج٢ ص٤٥٠، ٤٥١، وقال المؤلفان: قلنا: وهذا مُرْسَلٌ صحيح الإسناد..

(٢) لباب النقول، ص١٦٣، رقم ٥٦٠.

العالمين تبارك وتعالى إلى رسوله الخاتم ﷺ، وتصحيح لبعض أخطائه الإجتهادية، وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ أنَّ الإجتهادَ الخَطَأَ، لا مؤاخَذَةَ عليه[1]، ولكن المقام الرفيع للنبِّي الخاتم ﷺ اقتضى هذا النوعَ من الخطاب:

١) أما الآيتان (٢٣، ٢٤) من (الكهف) فَيُصحِّحُ فيهما ربُّ العالمين جلّ وعلا، موقِفَ رسوله ﷺ عندما سئل عن كل من:

(أصحاب الكهف) و(ذي القرنين) و(الروح)، لَما سأله كفّار قريش عنها، فقال ﷺ أجيبكم غداً، ونسيَ أن يقول: (إنْ شاء الله تعالى) فمكث خمس عشرة ليلة لا يُحْدِثُ الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أَرْجَفَ أهلُ مكة، وحَزِنَ رسولُ الله ﷺ بسبب ذلك، ثم جاءه جبريل بسورة الكهف، وبقول الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

كما ذكر ذلك (السيوطي) ونسبه إلى (إبن جرير الطبري) عن (ابن عبّاس) رضي الله عنهما[2].

٢) وأما الآيتان (٦٧، ٦٨) من (الأنفال) ففيهما تنبيهٌ من الله العليم الخبير سبحانه وتعالى، لنبيِّه عن خطأٍ اجتهادي آخر، وهو عدم قَتْله الكفار قَبْلِ الأَسْرِ يوم بدر، وأَخْذِه الفدية منهم، وبيَّن الله تعالى أنّه من الخطأ: أخذُ الفِدْية من أسرى الكفار الذين لم تُخْضَدْ شَوْكَتُهم بعد، ويُتوَقَّعُ منهم خَطَرٌ تجاه الإسلام والمسلمين، وأما بعد خَضْد

(١) كَمَا قَالَ ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ اَلْحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ. وَإِذَا حَكَمَ، فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٧٣٥٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٧١٦).

(٢) لباب النقول، ص١٦٨، رقم: ٥٨١، ورواه أبو نعيم في (دلائل النبوة)، (٢/٢٧٠). وانظر: صحيح البخاري: ١٢٥ و٤٧٢١، وصحيح مسلم: ٢٧٩٤، إذ يذكران سبب نزول: (ويسألونك عن الروح...) وأنه نزل بسبب سؤال اليهود رسولَ الله ﷺ عن الروح.

شوكتهم، فيجوز بل قد يجب أسرهم، ثم إطلاق سراحهم، سواء بالمنِّ عليهم، أو بأخذ فديةٍ ومقابلٍ منهم، وهذا هو وجه التوفيق بين قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ [الأنفال: ٦٧].

وبين قوله:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ...﴾ [محمد: ٤].

فحكم الأسرى، يختلف قبل الإثخان ـ أي إذلال الكفار وإخضاد شوكتهم ـ وبعد الإثخان.

وقد أورد كل من (النيسابوري) و(السيوطي) أكثر من رواية في مسألة استشارة رسول الله ﷺ أصحابه في (أسرى بدر) وأخذه بقول (أبي بكر) رضي الله عنه، المُشير إلى اللِّين وأخذ الفدية، وعدم أخذه برأي (عمر) رضي الله عنه، المائل إلى الشدّة وقتل أولئك الأسرى[1].

وقد نسب (النيسابوري) إحدى الروايات إلى (مسلم)، ونسب (السيوطي) إحدى الروايتين إلى أحمد والترمذي والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه[2].

---

(١) وقد ذكرنا في كتاب: (نقض فكرة التطرُّف) وفي تفسيرنا لسورة (الأنفال) في المجلد السابع من تفسيرنا باللغة الكوردية، أن القول بجواز قتل الأسرىٰ يتعارض مع قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً...﴾ [محمد: ٤]، وأن العتاب الموجَّه للنبي ﷺ، مُنْصَبٌّ على أخذه الكفار أسرىٰ قبَل الإثخان، وليس على عدم قتله إياهم وأَخْذه الفدية منهم، كما قال جُلُّ المُفَسِّرين!
ومن الواضح أن الروايات المتصادمة المتعارضة مع كتاب الله الحكيم، يجِبُ رَدُّها مهما كان سندها، إذْ من المحال أن يقول الرسول ﷺ ما يُنافي كتاب الله.

(٢) أسباب النزول، للنيسابوري، ص١٣٥، ولباب النقول، للسيوطي، ص١٣٠، رقم: ٤٥٥ وانظر: صحيح مسلم: ١٧٦٣، وسنن الترمذي: ١٧١٤ و٣٠٨٤، ومسند أحمد: (٢٤٣/٣) والمستدرك للحاكم: (٢١/٣)

٣) وكذلك الآية (٤٣) من (التوبة) تنبيه وتصحيح ربّاني آخر، لِموقفٍ اجتهادي آخر من النبي الخاتم ﷺ، وذلك عندما أذِنَ بالقعود وعدم الذَّهاب معه إلى تبوك، لبعض المنافقين، وكان الصّواب، في ميزان الله العليم الخبير: عَدَمُ الإذن لهم كي يتبيّنَ الصادِقُ من الكاذب، كما أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدي، قال:

«اثنتان فعلهما رسولُ الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنُهُ للمنافقين، وأَخذُهُ الفِداءَ من الأسرى، فأنزل الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ . . .﴾ [التوبة: ٤٣]»[١].

٤) وأمّا الآيتان (١، ٢) من (التحريم) فيُعاتب الله تعالى فيهما رسوله ﷺ، لأنه حرَّم على نفسه شيئاً من أجل إرضاءِ بعض أزواجه رضي الله عنهن، وكان ذلك الشيء (عسلاً) يأكل منه في بيت إحدى أمّهات المؤمنين، فحسدها بعضهن وأوهَمْنَ للرسول ﷺ بأنهنَّ يَشُمْنَ منه ريحَ (المغافير) ـ ويبدو أنه نباتٌ ذو رائحة غير طيِّبة ـ وذلك كي لا يعود الرسول إلى الأكل أو الشرب من عَسَلها، وكل ذلك بدافع الغَيْرَة، فقرَّر أو حَلَفَ رسولُ الله ﷺ ألّا يُصيبَ منه.

أو المقصود به (أي الشيء المحرَّم) جاريته (مارية) أم ولده (إبراهيم) ﵄، إذْ أَدْخَلها بيت إحدى أزواجه ـ وهي (حفصة) ﵂ ـ فَغَضِبَتْ، فَحَلَفَ لها رسولُ الله ﷺ إلّا يَقْرَبَهَا مرة أخرى، إنْ هي كَتَمَتْ عليه الخَبَرَ، ولكنَّها لم تكتمه بل أَطْلَعَتْ عليه إحدى أزواجه ـ وهي (عائشة) ﵂ ـ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وآيات بعدها، مُحاسِباً رسولَهُ ﷺ على موقفه هذا، ومُرْشِداً إيّاه أن يُكَفِّر عن يمينه، وينقض قرارَه السابق، ومُوَبِّخاً بلْ مُوعِداً تينك الزوجين خصوصاً، وسائرهنَّ عموماً رضي الله

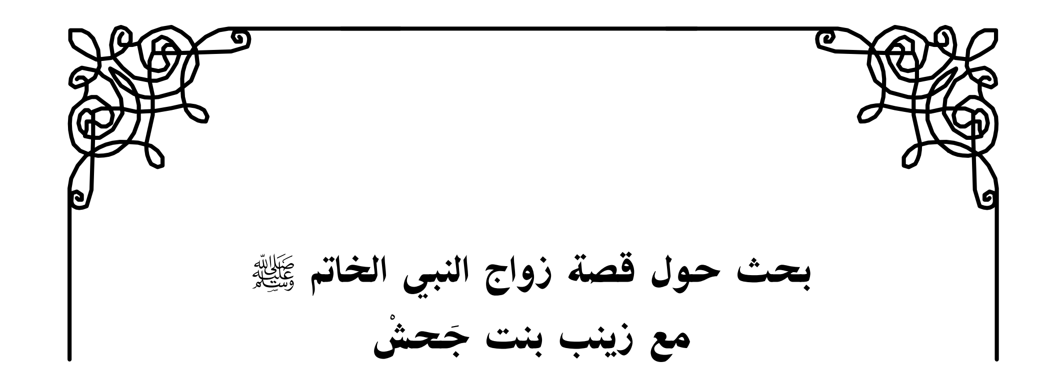
(١) لباب النقول، للسيوطي، ص١٣٥، رقم: ٤٧٦.

عنهن، على إيذائهن لرسول الله ﷺ بسبب غَيْرَتِهنَّ عليه، لِفرط حُبِهِّنَّ له.

وقد أورد كل من (النيسابوري) و(السيوطي) خبري العسل والجارية، وأَسْنَدَ النيسابوري خبر العسل إلى (البخاري ومسلم)[1]، كما أن (السيوطي) أسند خبر العَسَلِ إلى الطبراني عن ابن عبّاس بسند صحيح، وقال: وله شاهد في الصحيحين، وأسند خبر (الجارية) ﵄ إلى الحاكم والنسائي بسند صحيح عن أنس ﵁[2].

(١) أسباب النزول، للنيسابوري، ص٢٥٢ و٢٥٣، ولباب النقول، ص٢٧٠، رقم: ٩٥٩. وانظر: صحيح البخاري: ٥٢٦٦، وصحيح مسلم: ١٤٧٤.

(٢) أسباب النزول، ص٢٥٢، ولباب النقول، ص٢٧٠، رقم: ٩٥٥ و٩٥٦ و٩٥٧.



بحث حول قصة زواج النبي الخاتم ﷺ مع زينب بنت جَحشْ

٥) وأمّا الآيات (٣٧ إلى٤٠) فنزلَتْ بمناسبة زواج رسول الله ﷺ من (زينب بنت جحش) رضي الله عنها، والتي كانت قبله زوجة (زيد) مُتَبنَّاه، قبل الإسلام رضي الله عنه.

وبما أن هذا الموضوع استغلَّه بعضُ الحاقدين على الإسلام وعلى رسول الله الخاتم، للطَّعْنِ فيه وساعدتهم رواياتٌ مكذوبة مُلفَّقة لا أصل لها، حُشِيَتْ بها بعضُ كتب التفسير، لِذا أراه ضرورياً إلقاء بعض الضوء عليه، كي يُفْهَم الموضوعُ في ضوء الآيات المباركات، كما كان في الواقع، من غير إضافة أو نقص. وبداية هذا الموضوع هي: أن رسول الله ﷺ كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن قتادة: «**خَطَب زينب وهو يريدها لزيدٍ، فَظَنَّتْ أنه يريدها لنفسه، فلما عَلِمَتْ أنه يريدها لِزَيْدٍ أَبَتْ، فأنزل الله:** ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]، فرضيت وسلَّمتْ». وكذلك رواه ابن جرير الطبري من طريق عكرمة عن ابن عبّاس[1].

والمقصود في الآية بـ(مؤمن) هو (عبدالله بن جحش) رضي الله عنه إذ أبى أنْ يزوّج أخته (زيداً) رضي الله عنه، لأنه سُبي في الجاهلية وتبنّاه رسولُ الله ﷺ،

(١) لباب النقول، ص٢٠٨، رقم: ٧٢٩.

فكان يراه دونه في الحسب، كما أنَّ المقصود بـ(مؤمنة) هو (زينب) ﵂.

وبما أن زواج (زينب) ﵂ مع زَيْدٍ ﵁ لم يكن زواجَ حُبّ ورضًى، لذلك لم يكونا على وئام وانسجام منذ البداية، بل كانت (زينب) تَتَرفَّعُ عنه وتراه دونها من حيث الحَسَبُ والنَّسَبُ، ولهذا شكاها (زيدٌ) إلى رسول الله ﷺ واستأذنه في طلاقها، ولكنّ رسولَ الله ﷺ أمره بإمساكها، وأن يتقي الله فيها بأن يصبر عليها، وفي تلك الفترة التي تفاقمت المشكلة الزوجية بين زيد وزينب ﵄، أَطْلَعَ الله تعالى نبيَّه ﷺ بأن زينب ستصير إليه، بعد أن تنْفصل عن زَيْدٍ ويُطلِّقها، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ مع علمه بذلك، كان يُلِحُّ على زيدٍ أَلّا يطلِّق زوجته.

وهذا كما أخرج حاكم عن أنسٍ ﵁، قال[1]:

«**جاء زيدٌ بن حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، فقال النبيُّ ﷺ أَمْسِكْ عليك أهلك، فنزلت:** ﴿...وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]».

وقد ذكر ابن كثير أن الحسن البصري رحمه الله سئل عن هذه الآية، فقال:

«**إنّ الله أَعْلَمَ نَبِيَّه أنّها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوّجها، فلما أتاه زيدٌ يَشْكُوها إليه، قال: اتَّق الله وأمسك عليك زوجك، فقال (أي الله تعالى): قد أخبرتُك أَنّي مُزَوِّجكها، وتُخْفي في نفسك ما الله مُبْديه!**»[2].

وعليه: فالمقصود بقوله تعالى:

﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ...﴾ [الأحزاب: ٣٧]، هو ما يلي:

وإذْ تقول يا محمَّد! لزيدٍ الذي أنعم الله عليه بنعمة الإيمان وغيره،

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠٩، رقم: ٧٣٣، وانظر: (المستدرك) للحاكم، (٤١٧/٢) و(دلائل النبوة) لأبي نعيم الأصفهاني (٦٦/٣).

(٢) (تفسير ابن كثير)، ج٣، ص٤٩٩.

وأنعمت عليه بالإحسان إليه، ومنه إعتاقك إيّاه: إبْقِ زوجتك في عصمتك واتَّق الله فيها، وتُخْفي في نفسك عنها ـ بأنك ستتزوَّجها عندما يُطلِّقها زَيْدٌ ـ ما سيُبْديه الله ويُظْهِرُه في كتابه، ويُلْزِمُكَ به، وتخشى الناسَ ـ بأن يقولوا: تَزَوَّج زوجة مُتَبنّاه ـ، لكن الله تعالى أَجْدَرُ بأن تخشاه، ثم لا تبالي بغيره.

وبناءً عليه:

فالحكاية التي توجد في بعض التفاسير، والتي مفادُها أنَّ رسول الله ﷺ وقع في قَلْبِه حُبُّ (زينب)، ولكنَّه كان يكتم ذلك الحب، حتى رأى يوماً (زينب) ﵂ وقال: (سبحان مقلِّب القلوب)! فلما رجع زيدٌ إلى البيت حَكَتْ له قولَ رسول الله، وهناك عَزَمَ زيدٌ على طلاقها، وأن المقصود بقول الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ هو كَتْمُ رسولِ الله ﷺ حُبَّه لزينب ﵂، وخوفه من قالَةِ الناس فيه بذلك السبب!!

أجَلْ انّ هذه الحكاية، علاوةً على أنه ليس لها سندٌ صحيح، بَلْ هو خَبر مَردودٌ من قبل علماء الحديث من جهة السند والرواية، قبل المتن والدِّراية، فهي أيضاً بعيدة كل البُعْد عن المعنى الظاهر المتبادِر إلى الذهن من الآية، وكذلك هي غير منسجمة مع سياق بقية الآيات، ولنوضِّحْ هذا في سبعة بنود:

أولاً: قد بيَّنت الآية الكريمة بوضوح المقصود بـ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وأنه هو: تزويج الله تعالى زينب منه ﷺ، كما صُرِّح به في الآية بعد الجملة السابقة التي وضَّحْنا مفهومَها سابقاً، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، والدليل على أن هذا هو المقصود بما أخفاه رسولُ الله في نفسه، هو: أن الله تعالى لم يُظْهِرْ طِبْقاً لما وَعَدَ به مِنْ أَنَّه سَيُبْديه: ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ إلّا تزويجَ زينب منه، إذاً: كان ذلك هو المَخْفِيُّ في نفس رسول الله، والذي أَطْلَعه الله عليه من دون أن يُلْزِمَهُ به بَعْدُ، لِبَقاء زينب في عصمة زيد ﵄، ولو كان الذي أخفاه الرسولُ ﷺ شيئاً آخر، لَبَيَّنَهُ الله تعالى لنبيِّه، حسبما وَعَدَ به، ولكن لما رأينا بأن الله تعالى لم يُظْهِرْ إلّا تزويجَ زينب منه، علمنا أن ذلك كان هو موعودَ الله فقط.

والذي يظهر لي أن سبب عتاب الله تعالى اللطيف لرسوله ﷺ هو أنّه

كان بالرغم من إطلاع الله إيّاه، بأنَّ زينب ستصير زوجته، بعد طلاق زيد لها، يُلِحُّ على زيدٍ ﷺ بأن يُبقيها في عِصْمَتِهِ ولا يُطلِّقها!

ثانياً: ثم إنَّ الآية الكريمة أعلنتْ بوضوح، الحكمةَ المقصودة بهذا الزواج: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

إذاً:

كانت حكمة ذلك الزّواج الإجباريّ: إبطالَ حُرْمَةِ زواج الرجل بالزوجة المطلَّقة لِمُتَبنّاه، كما كان دَيْدَنَ العرب في جاهليتهم، قبل الإسلام، فكان لا بُدَّ من إبْطال تلك العادة الجاهلية، والتي كانت مترسِّخة جداً فيهم، فاختار الله تعالى نَبِيَّه لتلك المهمة الصعبة، التي لم يكن أحدٌ يَجْرَؤ على التصدِّي لها.

ثالثاً: ثم إن الله تعالى بيَّن أنَّ ذلك الزواج بالنِّسبة لرسول الله ﷺ كان زواجاً إلزامياً، ولم يكن لديه أمامه خيارٌ، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب]، فكان ذلك فَرْضاً فَرَضَهُ الله تعالى عليه للحكمة التي ذكرناها من قبل.

رابعاً: وكذلك بيَّن سبحانه وتعالى في السِّياق نَفْسه، بأن ذلك الزواج الإلزامي كان جزءاً من مهمة رسول الله ﷺ التبليغية، والذي كما قلنا سابقاً، يتمثَّل في إبطال تلك العادة الجاهلية المترسِّخة في المجتمع العربي وغير العربي آنذاك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب].

خامساً: ثم لما تمَّ ذلك الزَّواج المبارك، الذي هو الزواج الوحيد الذي أَبْرَمه الله تعالى من فوق سبع سموات ـ كما كانت (زينب) ﵂ فيما بعد تُفاخِرُ

أزواجَ النبيِّ رضي الله عنهن بذلك كما جاء في (سنن الترمذي) أنها كانت تقول: (زوجكُنَّ أهلوكن وزوَّجني الله من فوق سبع سموات)[1] ـ جعله أعداءُ رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والمنافقين، أخصب مادة دعائية، لِذا أنزل الله تعالى الآية الأخيرة التي ختمت هذا الموضوع، وهو قوله تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب].

أخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«لما تَزوّجَ النبي ﷺ زينب، قالوا (أي الكفار): تزوَّج حليلة ابنه، فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾»[2].

فأعلن الله الحكيم تبارك وتعالى أنَّ زيداً رضي الله عنه ليس ابن محمَّدٍ ﷺ، لِذا فزواجه من مُطَلَّقَتِهِ ليس عليه غبارٌ في ميزان شرع الله، والعادات والأفكار الجاهلية ـ المضادّة للشريعة ـ لا تساوي جناح بعوضة، ولا يحسب لها أي حساب.

سادساً: وبعد كل ما مرّ ذكره، نقول:

إن (زينب) رضي الله عنها كانت ابنة عمَّةِ رسول الله ﷺ وكان رسول الله بلا شك يراها قبل أن يطلب يَدها لِزَيْدٍ رضي الله عنه، بحكم القرابة بينهما، إذاً:

لماذا لم يُعْجَبْ رسولُ الله ﷺ بزينب وهي بِنْتٌ، وأُعْجِبَ بها بعد أن صارتْ زوجة لغيره؟!

ثم ما الذي كان يدفَعُ رسولَ الله، أنْ يُلِحَّ على زينب بأن تتزوَّج زيداً؟

وكذلك لِمَ كان رسولُ الله ﷺ ينصح زيداً بالإبقاء على زينب، بعد أن مَلَّها بسبب تَرَفُّعها عليه، بحكم نَسَبِها، ولأن زيداً كان عبداً مُعْتَقاً؟!

---

(١) انظر: صحيح جامع الترمذي: ٣٢١٣، وَصَحَّحَهُ الأَلباني.
(٢) لباب النقول في أسباب النزول، ص٢٠٩، رقم ٧٣٥.

سابعاً: وأما ذلك القول الملفَّق المنسوب إلى سيِّد المرسلين الموصول قَلْبُهُ بالله تعالى، والمرتبط بالملأ الأعلى دَوْماً، أَعْني: (سبحان مقلِّب القلوب)، فلا يتفوَّهُ به سوى معتوهٍ لم يذق من حلاوة الإيمان، وَلَذَّة الإتصال بالله، شيئاً، وإلّا فالقَلْبُ الموصول بالله والمملوءُ بالإيمان، أثقَلُ وأَرسَخُ وأثبَتُ من أنْ يَهْتَزَّ برؤية امرأةٍ أو غيرها، فكيف إذا كان ذلك القَلْبُ، قَلْبَ أعظم نبيٍّ، وأقربِ عبدٍ إلى الله، وأعلم الناس به، وأخشاهم منه، وأتقاهم له، والذي ينزل عليه جبريلُ عليه السلام، بوحي الله وكلامه المبارك ليل نهار! فوالله ان هذا القلب لا يَهْتَزُّ للدنيا وما فيها، وكيف يهتز وهو منشرحٌ بنور الله، ومُثْقَلٌ بكلام الله العظيم الثقيل؟!

كما قال تعالى وهو يخاطبه:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح]، وقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل].

ولكن يبدو أن مُلَفِّق هذا القول، إمّا أَنه كان من الزّنادقة، أو من مَرْضى القلوب بشهوة النساء، الذين تهتزّ قلوبهم وتطرب عند رؤية أيّ شبح من بعيد يتصورونه امرأةً! ثم قاس نبيَّ الله العظيم ﷺ وقَلْبَهُ العامر بالإيمان، وذِكْرِ الله المستمر، على نفسه الهزيلة وقلبه المريض!

وإلّا أوَ ليس واضحاً مثل الشمس، أن زيداً وزينب رضي الله عنهما لم تَخلُ حياتُهما الزوجية منذ بدايتها، من المشاكل، وذلك ـ كما ذكرناه من قبل ـ بسبب أن زواجَهما لم يتم على أساس حُبّ مُتبادلٍ ورِضىً متقابل، بَلْ بأمر الله تعالى وطلب رسولِهِ، لِحكمةٍ يريدها الله، إذاً:

طالما كان سبب إلحاح زيدٍ، على طلاق زينب رضي الله عنهما واضحاً وجَليّاً، فما الذي أَحْوَجَ أولئك المُلَفِّقين إلى تزوير تلك الحكاية بِرُمَّتِها، وتقوُّلِ تلك المقولة خاصة، إن لم يكن الزندقة، أو مرض القلْبِ؟!

وأودُّ أَن نختم هذا الموضوع بالإجابة على سؤال ربَّما يثور في أذهان كثيرين، وهو:

ما الحكمة في إجبار الله تعالى (زينب) رضي الله عنها من الزواج من (زيد) رضي الله عنه، مع كراهتها لذلك؟!

والجواب:

كان من عادات العرب في جاهليتهم: تفاخُرهم بالأنساب، وجعلهم النَّسَبَ هو الميزان والمعيار لمعرفة أقدار الناس ـ وما زالت تلك العادة الجاهلية موجودة في العرب وغيرهم من الشعوب، فتزداد نِسْبَ تفاخرهم وترتفعُ بمقدار البعد من الإسلام، وتقلّ وتنخفض بمقدار قربهم منه ـ وكانوا على أساس تلك العادة الموروثة التي جعلوها قاعدة راسخة، لا يَقْبَلُ مَنْ يعتبر نفْسَه أعلى كعباً من حيث النسب، أن يصاهر من يعتبره أدنى منه منزلةً، فأراد الله الحكيم أن يُبْطِلَ تلك العادة الجاهلية كذلك، وذلك بأن يزوِّج رسولُهُ المصطفى بأمرهِ سبحانه (زينبَ) ابنةَ عمته الهاشمية، من (زيد) الذي كان عبداً فأُعتِقَ!

وقد اختار الله الحكيم لهذه التجربة الصَّعبة ابنة عمّة رسول الله ﷺ، كي تكون تجربتها حُجّةً على الناس، في أن عدم التزاوج بين مَنْ يعتبرون أشرافاً، وبين من يحسبون أدنى، ليس من الحق والصواب في شيء، بل هي من العادات الجاهلية المتوارثة!

وقد كافأ الله الحكيم (زينب) رضي الله عنها بخضوعها وانقيادها لأمر الله والضَّغْط على نفسها، بأن جعلها من أزواج نبيِّه ﷺ، وزوجته الوحيدة التي عقد الله تعالى عليها النكاح لنبيِّه بنفسه سبحانه، من دون أهلها وكانت رضي الله عنها تُفاخِرُ بذلك بَقِيَّة أمهاتِ المؤمنين، فَتَقُولُ: «**زَوَّجَكُنَّ أَهْلُوكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ!**» (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٣٢١٣)، وَقال الألباني: صحيح).

❊ ❊ ❊

٦) وأما الآيات (١٠٥ إلى ١١٦) من (النِّساء) فكلّها نزلت في حادثة واحدة اقتضَتْ أَنْ يُنَبِّه الله تعالى نبيَّهُ ويُحذِّره بِقوّة، من التأثّر بِظواهر الأمور والكلام المنمَّق لبعض الناس، كي لا يُخْطيءَ في الحكم فيتَّهِم البريء، ويُبرِّيء المُجْرِمَ.

وقد أورد كل من (النيسابوري) و(السيوطي) قِصّةً تختلف بعض الشيء عن الأخرى، في سبب نزول هذه الآيات، ولكن محتواهما واحد، وسنوردُ كليهما لما فيهما من العِبَر، ثم نعلِّق على الآيات باختصار:

أ ـ قال النيسابوري عن هذه الآيات:

«أنزلت كلُّها في قصة واحدة، وذلك أن رجلاً من الأنصار يقال له (طُعْمَةُ بن أبيرِق) أحد (بني ظفر بن الحارث) سرق دِرعاً من جارٍ له يقال له (قتادة بن نعمان) وكانت الدِّرعُ في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق يَنْتَشِرُ من حرفٍ في الجراب، حتى انتهى إلى الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خَبَّأَها عند رجلٍ من اليهود، يقال له (زيد بن السمين)، فالتُمِسَتِ الدِّرْعُ عند طعمة، فلم توجدْ عنده، وحَلَف لهم: والله ما أخذها، وما له بها من علم، فقال أصحاب الدِّرع: بلى والله قد أدلَجَ[1] علينا فأخذها، وطلبنا أَثَرَهُ حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما أن حَلَف تركوه، واتّبعوا أَثَرَ الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي، فأخذوه، فقال دفعها إليَّ طعمة بن أبيرق، وشهد له أُناسٌ من اليهود على ذلك، فقالت (بنو ظفر) وهم قَوْم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فكلّموه في ذلك، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: ان لم تفعلْ هلك صاحبنا وافتضح، وبُرِّيء اليهوديُّ، فَهَمَّ رسولُ الله ﷺ أن يفعل وكان هواه معهم، وأن يعاقب اليهوديَّ، حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ...﴾ [النساء: ١٠٥]، الآيات كلها، وهذا قول جماعة المفسِّرين»[2].

ب ـ وقال السيوطي:

«روى الترمذي والحاكم وغيرها عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منّا، يقال لهم (بنو أبيرق): بِشْر وبَشير ومُبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً

---

(١) أدْلَجَ: جاءَ أوَّل الليل. مختار الصحاح، ص١٩٤، لفظ: د ل ج.

(٢) أسباب النزول، ص٩٩، ١٠٠، وسنن الترمذي: ٣٠٣٦.

يقول الشعر، يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم يُنْحِلُه بَعْضَ العرب، يقول: قال فلان كذا، وكانوا أهل بيت حاجةٍ وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنّما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، فابْتاعَ عمّي رفاعة بن زيد حِمْلاً من الدَّرْمَك[1]، فجعله في مَشْرِبَةٍ له فيها سلاح ودرع وسيف، فَعُدِيَ عليه من تحت، فَنُقِبَتِ المشربة، وأُخِذَ الطعامِ والسلاح، فلما أصبح أتاني عمِّي رفاعة، فقال: يا ابن أخي! إنَّه قد عُدِيَ علينا في ليلتنا هذه، فَنُقِبَتْ مشربتنا، وذُهِبَ بطعامنا وسلاحنا، فتجسَّسْنا في الدار وسألنا فقيل لنا، قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى، إلّا على بعض طعامكم، فقال بنو أبيرق ـ ونحن نسأل في الدّار ـ: والله ما نرى صاحِبَكم إلّا (لبيد بن سهل) رجلٌ مِنّا له صلاح وإسلام، فلمّا سمع لبيد اخترط سَيْفَهُ وقال: أنا أسرق؟ والله ليخالطنكم هذا السيف أو لَتُبَيِّنُنَّ هذه السرقة، قالوا: إليك عَنَّا أيها الرجل، فما أنت بِصاحبها، فسألنا في الدّار حتى لم نشك أنهم أصحابُها.

فقال لي عمِّي: يا ابن أخي! لو أتيتَ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأتيته فقلت: انّ أهل بيتٍ مِنّا أهل جفاءٍ عمدوا إلى عمّي فنقبوا مشربةً له، وأخذوا سلاحَه وطعامَه، فليردّوا علينا سلاحنا، وأمّا الطّعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسولُ الله ﷺ: (سأنظر في ذلك).

فلما سَمِع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: (أَسير بن عروة)، فكلّموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناسٌ من أهل الدّار، فقالوا يا رسول الله! إن قتادة بن النعمان وعَمَّهُ عَمَدا إلى أهل بيتٍ مِنّا، أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة، من غير بيِّنةٍ ولا ثَبْتٍ، (قال قتادة) فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقال: (عَمَدتَ إلى أهل بيت ذكر منهم إسلامٌ وصلاحٌ، ترميهم بالسَّرقة من

(١) الدَّرْمَك: المعجم الوسيط، ص٢٨٢. دقاق كلِّ شيء، التراب الناعم، الدقيق الأبيض. المعجم الوسيط، ص٢٨٢.

غير ثبْتٍ وبيِّنةٍ؟!) فَرَجَعْتُ فأَخبرتُ عمِّي، فقال: ألله المستعان، فلم نَلْبَثْ أن نزل القرآن:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء]، أي: بني أبيرق (واستغفر الله) أي: مِمّا قلت لقتادة، إلى قوله: (عظيماً)، فلما نزل القرآن، أتَى رسولَ الله ﷺ بالسِّلاح، فَرَدَّهُ إلى رِفاعة ولحق بشيرٌ بالمشركين، فنزل على سُلافة بنت سعد، فأنزل الله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ...﴾ [النساء: ١١٥]، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم[(١)].

والآن لنعلّق بإيجاز على الآيات الإثنتي عشرة الواردة في هذه الحادثة:

١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء].

والخطاب موجّه إلى رسول الله ﷺ، فيذكّره سبحانه بحقيقة كون القرآن منزّلاً منه بالحق، فهو محتوٍ على الحق المُطْلَقَ وجاء لإحقاق الحق، لِذا يجب أن يكون حكمك بين الناس ـ أيها الرسول ـ حسبما يُريك الله العليم الخبير من واقع الناس وأحوالهم، وليس على أساس ما يصوِّره لك بعضهم خطأً! ولا تكنْ مدافعاً عن الخائنين الذين يخونون الناس في أموالهم.

٢) ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء].

أي: واستغفر الله من أجل ذلك الدفاع الذي لم يكن في محلِّه، ومن همِّك بمعاقبة المتهم البريء: (اليهود أو المسلم حسب اختلاف الروايتين).

٣) ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء].

---

(١) لباب النقول، ص٩٢، ٩٣: رقم: ٣١٨، وسنن الترمذي: ٣٠٣٦، وسنن أبي داود: ٢٧٣٨، والحاكم في (المستدرك) (٢٢١/٢)، والطبراني في الكبير (١٢٩/١٢)، وعبدالرزاق في (المُصَنَّف): ٩٤٨٣.

وهذه الآية هي الموضع الوحيد الذي استعملت فيه كلمة (الجدال) لرسول الله ﷺ، وكلمة الجدال من غير تقييد، لم تَرِدْ إلّا في حالة الذمِّ.

وإنّما قال سبحانه ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ والمقصود به سرقة أموال الناس، لأنَّ ضرر المعاصي يَعود على العاصي نفسه بالدرجة الأولى، ثم المسلم أخو المسلم ومن خان أخاه، فكأنه خان نفسه.

و(خوّان) صيغة مُبالَغةٍ من (خائن) و(أثيم) صيغة مبالغة من (آثم)، والسارق خائن فيما بينه وبين المسروق منه، وآثم فيما بينه وبين الله تعالى.

٤) ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء].

وكيف يمكن الإستتار والإستخفاء من السَّميع البصير المطَّلع على السرِّ والعَلَن، والعليم بأسرار القلوب وخفايا الصّدور، والمُحيط بكل شيء؟!

وتبييت القول هو تدبيره والتخطيط له باللّيل[1].

٥) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء].

أي لا يكون في القيامة مَنْ يتولّى الدِّفاع عنهم، ولا من يكون وكيلاً عنهم، بل يبقى كل إنسانٍ هو وعمله فقط.

٦) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

وهذا تطميع لـ(طعمة) أو (بشير) السارق، كي يتوب إلى الله تعالى ويستغفره.

---

(١) مختار الصحاح، ص٧٥، لفظ: ب ي ت.

والذنوب بأنواعها لا تَخْلو من أحد الحالين المذكورين، فهي إما إساءة للغير، أو إساءة وظلم للنفس، أي إمّا أن يتعلَّق بها حق الغير أو لا يتعلَّق، فيكون ظلماً للنفس.

وأنا أعتبر هذه الآية المباركة أَرْجى آية في كتاب الله، لأنّ الله تعالى بيَّن فيها أنه مهما اقترف الإنسانُ من الذنوب المتعدّية أو اللاّزمة، فهو إذا ما استغفر الله تعالى ـ أي تاب إليه وطلب منه المغفرة ـ يجد الله تعالى غفوراً لذنوبه، ورحيماً به في جميع أحواله!

ولكن من الواضح أنه ليس المقصود بالإِستغفار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ﴾ الإستغفار اللِّساني المجرَّد، بل المقصود به الرجوع الحقيقي إلى الله تعالى، والذي يُثْمِرُ في صاحبه الإنابةَ والنَّدَمَ والإقلاعَ عن الذنوب، والتصميمَ على الطاعة.

٧) ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء].

أجل، إنَّما وَبالُ الإثم يرجع إلى صاحبه، وهو المتضرِّر به على الحقيقية دون غيره، والله عليمٌ بعباده وتصرُّفاتهم، وهو حكيمٌ في تشريعاته لهم.

٨) ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء].

أجل، إن ارتكابَ الذنوب في ذاته قبيحٌ وسيء، ولكن محاولة رمي الغير به، وسعي المجرم لِتَمَسُّح يده المُلَطَّخة بإنسان نظيف نزيهٍ بريء، أقبح وأسوء.

والبهتان هو إِتِّهام الغير بما هو بريءٌ منه[١]، وهو يشمل كلَّ أنواع

(١) البهْت والبهتان: الكذب المفترى، بَهَتَ فلاناً: قَذَفه بالباطل. المعجم الوسيط، ص٧٣.

الذنوب، وأما الإتِّهام بالزِّنا فَيُسمَّى (قَذفاً)، ولهذا قال رسول الله ﷺ:

«أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ»؟ قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٥٨٩)).

٩) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

وهذا عودة لمخاطبة الرسول ﷺ المباشرة، حيث يذكِّر المولى الكريم الحكيم جلّ شأنه نَبيه ﷺ بمُحاولات أقارب السارق معه، كي يُدافع عن السارق الخائن ـ الذي لم يثبت عليه شيء بعد ـ ويُحِيلَ الإتِّهامَ إلى إنسان آخر يُساعِدُ ظاهر حاله عليه ـ ونقصد به اليهودي الذي وجد جِرابُ الدقيق في بيته ـ، وتذكيرٌ له بأنه لولا تدخُّل الوحي وتبيينه حقيقة الموقف، لاتَّخذَ ﷺ موقفاً خطأً بناءً على ظاهر الحال، ولأَضلَّه المُلِحّون عليه ـ بإيذائِهِ اليهودي البريء ـ عن جادة الصواب، ولكن (فضل الله ورحمته) المتجسِّدَيْن في الوحي المطَّلع على الغيب والشهادة، أَنْقَذ الموقِفَ وعَصَمَ رسولَ الله عن الخطأ في الحكم في تلك القضية.

١٠) ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء].

والنّجوى هو كلام[1] السِرّ الذي يجري بين اثنين أو أكثر في خير أو شرّ، وقد بيَّن سبحانه أنه لا خير في كثير من نَجْوى الناس ومُسارَرَةِ بعضهم بعضاً في الحديث، ثم استثنى ثلاث حالات يكون فيها النجوى خيراً وصواباً:

---

(١) المعجم الوسيط: ص٩٠٥.

١. أن يكون حول التصدّق على الناس، وتقديم العون الماليِّ للمحتاجين.

٢. أن يكون حول الإحسان إلى الغير ومساعدته معنوياً.

٣. أن يكون للمصالحة بين المتخاصمين وإِصلاح ذات بينهم.

ووعد سبحانه المتناجين بهذه الدوافع، ولتحقيق هذه الأهداف، ثواباً عظيماً.

١١) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

أي ومن يُخالِفْ رسولَ الله ﷺ ويُعاديه، بعد أن وَضَحَ له طريقُ الهداية الربّانية، ويسير في ركاب غير المسلمين، ويسلك غير صراط الله المستقيم، فهو يُهْمِلُهُ الله تعالى ويَدَعَهُ وشأنه، ثم يُدْخِلُه جهنّم التي هي بئس المآل.

والمقصود به ذلك السارق الذي هَرَبَ والتحق بالكفار، بعد انكشاف أمره، وكذلك كل من يوالي غير أهل الإسلام ويعادي المسلمين ويخالف طريقهم، لأن: (خصوص السبب لا يمنع شمول المعنى) كما هو مقرّر.

١٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء].

أي: إن الله تعالى لا يغفر الشرك أبداً ـ ما لم يتبْ عنه صاحِبُه ويرجعْ إلى الإيمان والتوحيد ـ، ولكن سوى الشرك من المعاصي، التي هي دون الكفر والشرك، فهو تحت المشيئة، فإن شاء الله غفر لصاحبه، ولو من غَيْر توبة، وإنْ شاءَ عذَّبه به، طالما لم يتب عنه.

وهذا تطميع وتأميل من الله الكريم لذلك السارق الهارب، وكذلك لكل مُذْنبٍ آخر، كي يتوب إلى الله تعالى ويتصالح مع ربِّه الكريم الرحيم

ولا يتمادى في غَيِّهِ، الذي لا يَجْني منه سوى الخيبة والخسران.

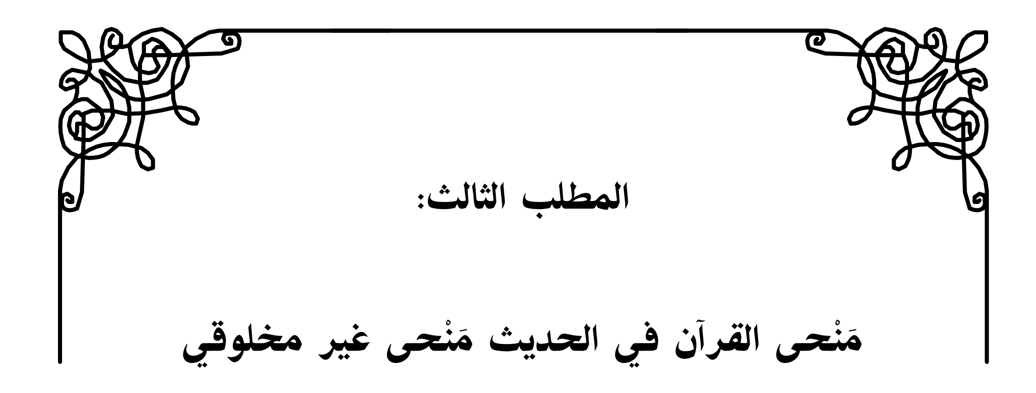
هذا وقد أخرج (ابن سعد) في (الطبقات) أن ذلك السارق الفارّ المرتّد، عاد فيما بعد إلى المدينة ورجع إلى أحْضان الإسلام، وذلك في شهر ربيع من السنة الرابعة للهجرة[1].

وفي نهاية هذا الموضوع: (كيفية خطابات القرآن مع النبيِّ الخاتم ﷺ) أقول: إن المتأمِّل العاقل المُنْصِف، في هذه الخطابات التي ليست سوى أمثلةٍ لغيرها، يُدْرِك بوضوح أنه لا يمكن أن يكون مصدَرَ القرآن وَمُنَزِّلَهُ العظيم، إلّا الله رب العالمين تبارك وتعالى، وبالنتيجة: فإنَّ (محمَّداً) نَبِيُّ الله ورسوله حقاً، وتلَقَّى القرآن العظيم من ربه الكريم العزيز الحكيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل].

والآن إلى الحيثية الثالثة، من حيثيات دلالة القرآن العظيم، على نُبُوَّة سيِّد المرسلين ﷺ.



(١) لباب النقول، ص٩٣، رقم: ٣١٩، إذ قال (ابن سعد) في (الطبقات) فيما قال: (...فلما نزل القرآن في بشير وعثِر عليه هرب إلى مكة مرتداً... وهجاهُ حسان بن ثابت حتى رجع، وكان ذلك في شهر ربيع سنة أربعٍ من الهجرة).



المطلب الثالث:

مَنْحى القرآن في الحديث مَنْحى غير مخلوقي

ونَقْصُدُ بهذا أن كلَّ مَنْ يتدبَّرُ كتابَ الله الحكيم، ويتأمَّلُ في مَراميه واتِّجاهاته في الكلام، يُدْرِكُ يقيناً أن البشر وغير البشر من المخلوقين، لا يمكن أن يصدر عنهم مثلُ ذلك الكلام بِحالٍ، وذلك لأن: الإنسان، أيّ إنسانٍ، عندما يتحدَّث أو يكتب، إنَّما يُعَبِّر عمّا يجولُ في ذِهْنِهِ من أفكارٍ ومعتقدات، وعمّا يجيش في قلبه من خواطر وانفعالات، وإلّا لا يمكن التعبير عن فراغ، وبناءً على هذا: فالمتأمِّل في القرآن يجِد فيه تعبيرات متنوِّعة، وبيانات شتَّى، لَمْ يُعْهَدْ من إنسانٍ أنْ تكلّم فيها، لأنّها ليسَتْ داخلة في إطار المجالات والأَبعاد التي يجول فيها الذِّهنُ البشريُّ، بَلْ ويتطرَّقُ إليها.

والآن لكي تتوضَّح صورة الموضوع أمام أنظارنا، فَلْنَتَدَبَّرْ هذه الآيات كأمثلةٍ فقط:

١ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

٢ - ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد].

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر].

٤ ـ ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

٥ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام].

٦ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

٧ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان].

ونكتفي بهذه الأمثلة السبعة، ونقول:

بِغَضِّ النظر عن الناحية الإعجازية ـ والتي هي متعدِّدة الأوجه كما ذكرنا من قبل ـ في هذه الآيات، كما هو الحال في القرآن كلِّه، فإِنّه لا

يمكن للبشر ـ وغيرهم من المخلوقين ـ أن يتحدَّثوا بهذا الأسلوب، وأن تصدر عنهم هذه التعبيرات!

والآن لكي نُجَلِّيَ استحالَةَ صدورِ مثل هذه التعبيرات من المخلوقين، نُوضِّح معانيَ هذه الآيات والمفاهيم والتي تتضمَّنُها، فيما لو فرضنا أَنَّ غير الله العظيم سبحانه وتعالى تَكَلَّم بِها:

١) الآيات (١٦، ١٧، ١٨) من (ق):

إدِّعاءُ خلق الإنسان ـ كلّ إنسانٍ ـ والإِطِّلاعُ على خواطر قلبه، وأَفكار ذِهْنه، وكلمات لسانه، وتسجيلها كلِّها، وادِّعاءُ القرب من كل إنسان، أكثر من الوريد الذي في صفحة عنقه!

٢) الآيتان (٨، ٩) من (الرّعد):

إدّعاءُ معرفة حَمْل كل أُنثى ـ من إنس وجنّ وحيوان ـ ومعرفة التَغَيُّرات التي تحصل باستمرار في أرحام الإناث كلِّها، من زيادة ونقص، والإِحاطة بمقادير الأشياء كلِّها في كل الوجود: وَزْناً وحَجْماً وعمراً وكثافةً... إلخ، وادِّعاءُ الإِطِّلاع على كل ما هو غيب، أو مشهودٌ، من العوالم والموجودات!!

٣) الآيات (١٦ إلى ٢٥) من (الحجر):

إِدِّعاءُ جعل النجوم في السماء وتزيين السّماء بِها، وصون السماء وحفظها من الشياطين من استراق السّمع والتقاط أخبارها، وقذف السّراق لبعض الكلمات والجمل، التي يتكلَّم بها الملائكة، بالشهب النارية الحارقة الخارقة، وادِّعاءُ بَسْطِ الأرض ونَصْب الجبال الراسخات فيها ـ كي لا تضطرب ـ وإِنباتِ كل أنواع النَّباتات فيها، كل حسب وزنٍ مقدَّر ومحْسوب، وإيداعها الأرزاق التي تؤمِّنُ حياةَ البشر وغيرهم من الكائنات، وادِّعاءُ امتلاكِ خزائن كل شيء وإِنزالِهِ بمقدار معلوم، وإِرسال الرِّياح وتلقيح السُّحب بها، ثم إنزال الماءِ (مطراً وثلجاً وبرداً) وإسقاءِ الناس وإِروائهم به، من دون أن يَقْدِروا هم على خَزْنِهِ، ثم ادِّعاء الإحياءِ والإِماتة ووراثة الأشياء

كلِّها، وادِّعاءُ معرفة كل السابقين وجميع اللاحقين من الجن والإنس، وحشرهم وجمعهم في مكان وزمان محدَّدين!

٤) الآية (٥٩) من (الأنعام):

إِدِّعاءُ الإِنفراد بملكية خزائن الغيب، والإِطِّلاع الدقيق على كل الموجودات في جميع البراري والبحار، ومعرفة كل ورقة على حِدَةٍ من أوراق الأشجار الساقطة (والتي تسقط منها في الخريف بأعداد لا يُحْصِيها سوى خالقها وبارئها)، وادّعاءُ الإحاطة بكل حبَّةٍ ـ من قَمْح وشعير وذَرَةٍ وحمص وعدس ورُزّ وماش... إلخ ـ في مجاهل الأرض، وكذلك كل شيء رَطْبٍ أو يابسٍ، وادّعاءُ أنّها كلَّها مَحْصِيَّة ومُسَجَّلة في كتابٍ وسجلّ واضح!

٥) الآية (٧٣) من (الأنعام):

إدّعاءُ خلق السموات والأرض بالحق والحكمة، وأنَّ يوم ينفخ في الصور يكون القول قوله، والقرار قراره فحسب، وأنه تنحصر الملكية في يده في ذلك اليوم، وادّعاءُ الإِطِّلاع على كل الموجودات المستورة، والإتّصاف بِمُنْتَهى الحكمة والخُبْرَة.

٦) الآية (٥٤) من (الأعراف):

إدّعاءُ الربوبية على المخلوقين ـ من ملائكة وإنْسٍ وجن ـ كلِّهم، وخَلْق السموات والأرض في ست مراحل زمنية، والإِستواء على العرش، وتغشية النهار بِالليل، وجعله يتعقَّبه بِسُرْعَةٍ، وادّعاءُ أنَّ كلاًّ من الشمس والقمر والنجوم، مُسَخَّرات بأمره، وأنه هو وحده مالكُ الخلق والأمر في الوجود!

٧) الآيات (٢٧ إلى ٣٠) من (لقمان):

الإدّعاءُ بأن كلماته من الكثرة، بحيث لو جعلت أشجار وجه البسيطة كلُّها أَقْلاماً، ومياه البحار كلُّها بل وسبعة أضعافها مِداداً (مركّباً) وكتبت بها، لَنَفِدَتْ هي، ولم تَنْفَدْ كلماته، والإدّعاءُ بأن خلق الناس كلهم ثم إحياؤهم

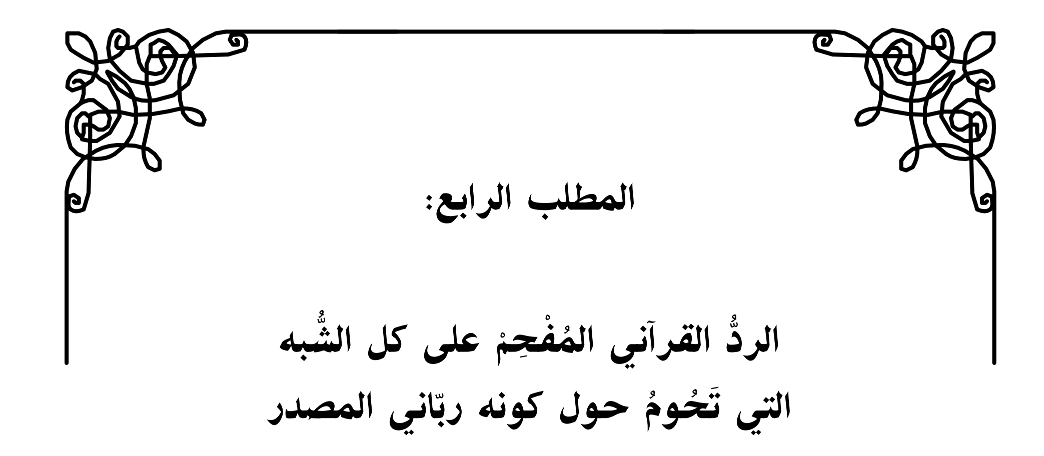
بعد موتهم، سَهْلٌ عليه سهولَةَ خَلْقِ نفسٍ واحدة وإحيائها، وادّعاءُ إدخال الليل في النَهار والنهار في الليل بِلُطْفٍ، وتسخير كل من الشمس والقمر وجعلهما يسيران إلى وقتٍ محدّدٍ، ثم الإدِّعاءُ بأنه هو وحده الحق والثابت، وأن كل ما يُدعى ويُعْبَدُ سواه باطلٌ وزائفٌ وزائلٌ، وأنه هو وحده المتّصف بالعلو المطلق والعظمة المطلقة!

أجَلْ فمن الجَليِّ أنَّ غير الله تعالى لا يمكن أن يتحدّث بهذا الأسلوب، ولا أن يَنْحُوَ هذا المَنْحى في كلامه.

وإنّما صدَّرتُ الجمل التي تحتوي عليها الآيات بكلمة (إدّعاء) لأن مثل هذه التعبيرات إذا نُسِبت إلى غير مصدرها الحق، وهو الله تعالى ـ على حدِّ زعم من ينكرون نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ويعتبرون القرآن كلام الخلق لا الخالق جلّ وعلا ـ فحينئذٍ ستنقلبُ كلها إدّعاءات جوفاء، لأن غير الله الخالق الرب المالك تبارك وتعالى، لا يقدر على فعل أي من هذه الأشياء!

وبهذا نختم الحديث عن هذه الحيثية الثالثة، من حيثيات وجوانب برهانية القرآن العظيم على نبوَّة خاتم النبيين وسيِّد المرسلين ﷺ، ونتنقل إلى الحيثية الرابعة والأخيرة حسب مُخَطَّطنا:





المطلب الرابع:

الردُّ القرآني المُفْحِمْ على كل الشُّبه التي تَحُومُ حول كونه ربّاني المصدر

ولمعرفة كيفية دلالة هذه الحيثية الرابعة، من حيثيات وجوانب برهانية القرآن العظيم على نبوّة رسول الله الخاتم ونوره الأتم ﷺ، لِنستَمِعْ إلى الآيات المباركات الآتية:

١ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

٢ ـ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس].

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

٤ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا (٤) وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا (٥) قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (٦)﴾ [الفرقان].

٥ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا (٣٢) وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان].

٦ - ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت].

٧ - ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧) أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ (٨) أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ (٩) أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ (١٠)﴾ [ص].

٨ - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٨) قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٩)﴾ [الأحقاف].

٩ - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ (٣٣) فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ (٣٤) أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۣيۡطِرُونَ (٣٧) أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ (٣٨)﴾ [الطور].

١٠ - ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (٣) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ (٩) فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ

عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم].

١١ - ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة].

١٢ - ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء].

١٣ - ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء].

١٤ - ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

١٥ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى].

١٦ - ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

١٧ - ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ۚ

مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾[سبأ].

١٨ ـ ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزخرف].

١٩ ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

٢٠ ـ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر].

ومجموع الشُّبه التي أثارها الكفّار المعاصرون لنزول القرآن حول كون القرآن العظيم كلام الله المنزَّل على خاتم النبيين (محمَّد) ﷺ ويمكن أن تُثار اليوم وبعد اليوم، هي هذه الشُّبهات الثلاث عشرة الآتية، والتي ردَّ عليها كلامُ الله الحكيم، أَبْلغ رَدّ ونَسَفها نَسْفاً:

١» القولُ بأنَّ (محمَّداً) ﷺ هو الذي اختلق القرآن، وافتراه على الله وتقوَّله عليه.

٢» القولُ بأن رجلاً أعجمياً ـ أي غير عربي ـ هو الذي عَلَّمَ محمَّداً القرآن.

٣» القولُ بأن محمَّداً ﷺ له يدٌ في القرآن، وساعده عليه آخرون أيضاً.

٤» التساؤلُ بأنه: لماذا أُنزِلَ القرآنُ على (محمَّد)، وهناك من هو أَجْدَرُ منه؟!

٥» التساؤلُ حول سبب عدم نزول القرآن كلِّه على رسول الله ﷺ مرة واحدة!

٦» إتّهامُ رسول الله ﷺ بالجنون.

٧» إتّهامُ النبي ﷺ بكونه ساحراً، ومن ثَمَّ اعتبار القرآن سِحْراً.

٨ و٩» إتّهامُ سيِّد المرسلين ﷺ بكونه شاعراً أو كاهِناً، وبالنتيجة عَدُّ القرآن في عداد الشعر أو الكهانة.

١٠ و١١» إتّهامُ القرآن الحكيم بكونه أساطيرَ الأولين، وأَضغاثَ أَحلام.

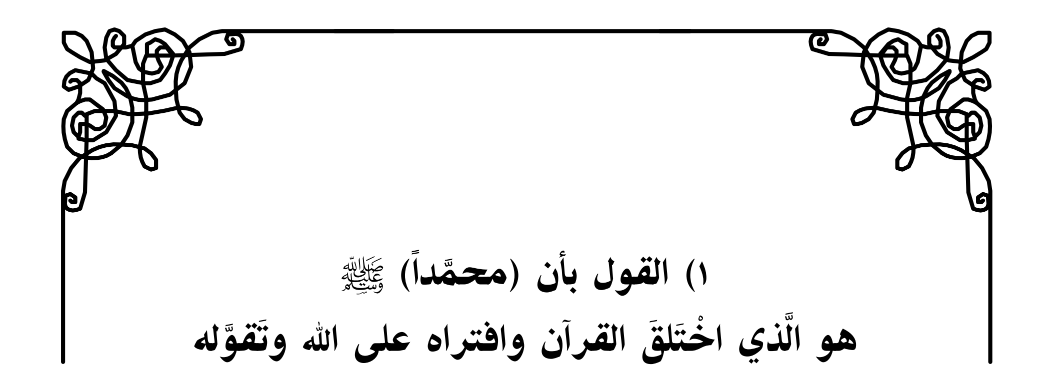
١٢» إتَهامُ الرسول الأعظم ﷺ، بأن الشياطين هي التي تتنزَّلُ عليه بالقرآن.

١٣» الإعتراضُ على عدم نزول القرآن بغير العربية، وعلى شخص غيْر عربي.

والآن لننظر كيف دَحَضَ كتابُ الله الحكيم، تلك الإتّهامات والشُّبهات والإعتراضات، وجعلها كلَّها أَثَراً بعد عين.

ونبدأ بالشبهة الأولى والتي تجمَعُ في طيّاتها كُلَّ الشُّبَهِ الأخرى أو جُلَّها، ومن ثمَّ فالردُّ عليها، ردٌّ عليها كُلِّها أو معظمِها:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



١) القول بأن (محمَّداً) ﷺ
هو الَّذي اخْتَلقَ القرآن وافتراه على الله وتَقوَّله

ونفصِّلُ الردَّ على هذه الشّبهة في البنود التسعة الآتية، في ضوء كتاب الله العزيز نفسه:

أولاً: هذه التّهمة مجرّد ادّعاءٍ زائِفٍ، لأن مُطْلِقيها لم يقيموا عليها دليلاً لا قديماً ولا حديثاً، وكل ادّعاءٍ لم يَسْتَنِدْ إلى دليل، يعتبر باطلاً وزائفاً، لأنَّ الفرق بين الصدق والكذب هو البرهان، كما قال تعالى: ﴿...وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [النمل].

ثانياً: إنَّ (محمَّداً) ﷺ أكدَّ مِراراً بأنه ليستْ له يَدٌ في القرآن العظيم، وأنه ليسَ سوى متَّبع لما يوحيه إليه ربُّه، وأنه يَخافُ إذا ما مَسَّ ولو آيةً من القرآن أَدْنى مِساسٍ، على سبيل التغيير والتبديل، عذابَ ربِّه في يوم عظيم، كما قال تعالى آمِراً إياه أن يقول: ﴿...وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس].

ثالثاً: من المعلوم أن (محمَّداً) ﷺ لم يتحدَّثْ بالقرآن إلّا بعد أن جاوز الأربعين عاماً من عمره، ولو كانت لَهُ فيه يدٌ، لما بقي كل هذه المدة ـ (٤٠) عاماً ـ ساكتاً، إذْ فترة الشباب هي الفترة التي يكون فيها الإنسانُ

أكثرَ نِشاطاً، وأوفر حماساً للقيام بعملٍ ما، وقال تعالى بهذا الصَّدد: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

رابعاً: كان النبي الخاتم ﷺ أُمِّياً لا يقرأ ولا يكتب، فكيف تسنَّى له تأليفُ ذلك الكتاب العظيم المُعجِزْ، من دون معرفة القراءة والكتابة؟! كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت].

خامساً: ثم لو أن (محمَّداً) ﷺ تقوَّل شيئاً على الله تعالى، لم يُؤْمَرْ بتبليغه، لما تركه الله تعالى وشأنه! وكيف يَدَعُ الله العزيزُ الحكيم، مَنْ يفتري عليه الكذِبَ، ويُضِلُّ الناسَ باسمه؟! بل لو فعل ذلك لختم على قلبه ولَمَحى ما ارتسمَ في ذِهنه، كي لا ينشر في الناس باسم الله تعالى وباسم دينه، ما هما منه براء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى].

سادساً: بَلْ وأكثر من هذا، لو أنه فعل ما يزعمه أولئك الكفار ويتّهمونه به، من التقوُّل على الله تعالى، ما لم يَقُلْهُ، لعاقَبهُ أشدَّ العقوبة ولأهلكه سريعاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

سابعاً: ومن المشهور من سيرة (محمَّد بن عبدالله) ﷺ قبل النبوّة، أنه كان مُلَقَّباً بـ(الصادق) و(الأمين) لاشْتِهاره بالصدق والأمانة، إذاً: كيف يَكْذِبُ على الله ويفتري عليه، مَنْ تجنَّبَ الكذب مع الخَلْق، وكيف يَخُونُ الخالِقَ العظيم جلّ وعلا، مَنْ تَنَزَّه عن خيانة الخلق؟

ولهذا جعل سبحانه سُمُوَّ خُلُقِ رسوله ﷺ، بُرهاناً على صِدْقِهِ في نبوّته، كما قال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [القلم].

هذا وقد كان الكفّار المعاصرون لرسول الله ﷺ مُقرِّين بِصدْقِهِ، وخاصة كبراؤهم الذين لم يكن يمنعهم من الإيمان به، إلّا تخوّفهم على مصالحهم وامتيازاتهم، من قبل دعوته الربّانية، التي ركيزتاها الأساسيتان هما:

١. التوحيد المطلق فيما بين العباد وربِّهم.

٢. والعدل المطلق فيما بين الناس بعضهم مع بعض.

وكان التوحيد يَنْسِفُ عقيدتهم الشركية المتوارثة، والعَدْلُ يُزيلُ ظلمهم وجورهم السياسي والإقتصادي والإجتماعي!

وقد روى كل من (السيوطي) و(النيسابوري) في (أسباب النزول) روايات في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]، تُوَضِّح ما نحن بصدده:

قال السيوطي:

«**روى الترمذي والحاكم عن علي** رضي الله عنه: **أَنَّ أبا جهل قال للنبي** ﷺ: **إنّا لا نُكَذِّبك ولكن نُكَذِّب بما جئت به، فأنزل الله:** ﴿...قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]»[(١)].

وقال النيسابوري:

أ) «**قال السُّدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم! أخبرني عن محمَّدٍ أصادق هو أم كاذبٌ؟ فإنه ليس ههُنا مَنْ يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمَّداً لصادق وما كَذَبَ محمَّدٌ قط، ولكن إذا ذهب بنو**

(١) لباب النقول: ٤٤٩، سنن الترمذي: ٣٠٦٤، ومستدرك الحاكم: ٣٢٣٠.

قُصَي باللِّواء والسِّقاية والحجابة والندوة والنبوّة، فماذا يكون لسائر قريش؟! فأنزل الله هذه الآية».

وقال:

ب) **«وقال أبو ميسرة: إنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بأبي جَهْلٍ وأصحابه، فقالوا يا محمَّد، إنّا والله ما نُكَذِّبُك، وإنك عندنا لصادقٌ، ولكن نكذِّبُ ما جئت به، فنزلت:** ﴿... قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]».

وقال:

ج) **«وقالَ مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب، كان يكذِّب النبيَّ ﷺ في العلانية، وإذا خلا مع أهل بيته، قال: ما محمَّد من أهل الكذب، ولا أحسبه إلّا صادقاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية»**[1].

ومن الواضح أن هذه الروايات لا منافاة بينها، بل يُصَدِّق بعضها البَعْض، والجامع بينها هو اتِفاقُ الكفّار المعاصرين لرسول الله ﷺ على صِدْقه، وأن المانع الذي حال بينهم وبين الإيمان به، لم يكن الشكُّ في صدق الداعي الصادق، بل كان تخوّفهم على مصالحهم مِنْ قِبَلِ الدعوة المباركة.

ثامناً: ثم إذا كان (محمَّد) ﷺ هو الذي اخْتَلَقَ القرآن وافتراه من عند نفسه، فما الذي يمنعهم أن يستجيبوا لتحدِّيه المتكرِّر لهم، بأن يأتوا بقرآنٍ مثل قرآنه، أو بعشر سور مِثْلِهِ، أو حتى سورة واحدة فحسب؟! فَليجيبوهُ وليفتروا هم أيضاً، كما افترى ـ بزعمهم ـ إذْ هم عرب مثله، ولغة القرآن هي لغتهم، وهم يعتبرون أنفسهم فرسان ميدان الكلام والبيان!! كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ

---

(١) أسباب النزول، ص١١٩.

ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس].

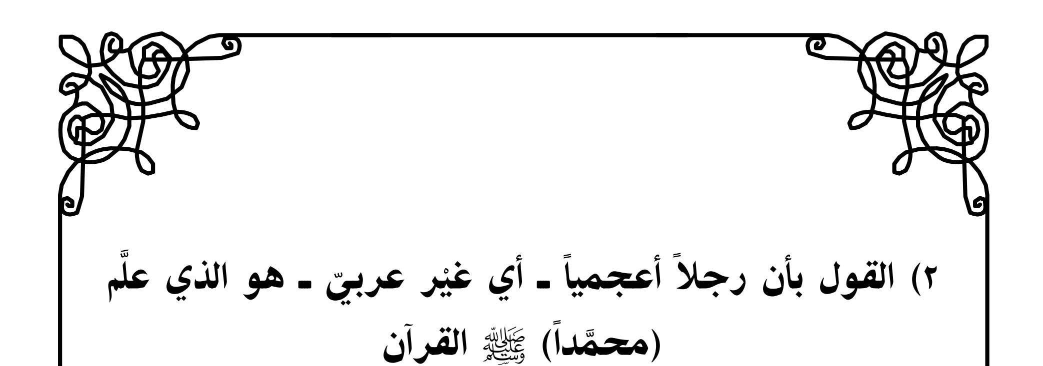
ولكن إذا لم يستجيبوا لهذا التحدِّي، فَلْيعترفوا: أن هذا القرآن العظيم هو كلام رب العالمين، ونابعٌ من مَعين عِلْمِه المحيط بكل شيء، وأن هذا هو سبب عجزهم المطلق، وسكوتهم المُطْبِق أَمامَهُ، كما قال تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود]، وعليه: فليس (محمَّد) ﷺ سوى نبي الله ورسوله ومبلِّغ كتابه ودينه.

تاسعاً: وقد أعْلَن سبحانه مُسْبَقاً، زيادةً وإغراقاً في التحدِّي، أنَّ الكفّار لا يقدرون على الإتيان لا بمثل القرآن كُلِّه، بل حتى بمثل سورة واحدة من سوره، ولو تعاضدوا وتساندوا وتعاونوا فيما بينهم ـ كلّهم ـ كما قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

هذا بالنسبة لكيفية دَحْض كتاب الله وتفنيده للشبهة الأولى.





٢) القول بأن رجلاً أعجمياً ـ أي غيْر عربيّ ـ هو الذي علَّم (محمَّداً) ﷺ القرآن

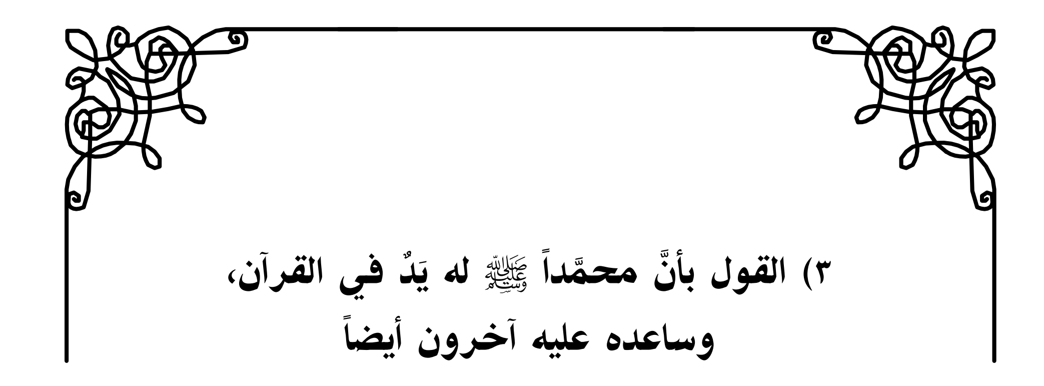
وقد ذكر سبحانه هذه الشبهة ورَدَّ عليها في آية واحدة، كما قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

وقد أورد كل من النَّيسابوري والسيوطي[١] في سبب نزول هذه الآية قصة واحدةً مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، مَفادُها أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يمرُّ في مكة بغلامين نصرانيين لأحد أهل مكة، يقرآن الكتاب بلغتهما فيستمع إليهما، فقال المشركون إنه يتعلَّم القرآن منهما!! فأنزل الله تعالى إكذاباً لهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

ولا شك أنَّ هذا الردَّ القرآني مُفْحِمٌ لقائلي الشبهة المذكورة غاية الإفحام، إذْ كيف يعقل أن يُعلِّم هذا القرآنَ محمَّداً ﷺ شخصٌ أعجميّ لا يعرف العربية، هذا القرآن المنزّل بلسانٍ عربي مبين، الّذي أعْجَز فرسانَ البلاغة والبيان؟!

---

(١) أسباب النزول، للنيسابوري، ص١٦٠، ولباب النقول، للسيوطي، ص١٥٨، رقم: ٥٤١. وأسند السيوطي روايته إلى ابن أبي حاتم، وسمّى الغلامين (يسار) و(جبر)، وسماهُما النيسابوري (يسار) و(خير).
وأنظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج٢ ص٤٢٢، إذْ صحَّح إحدىٰ الروايات وهي التي ترجِعُ إلى (عُبَيد بن مسلم الحضرمي).



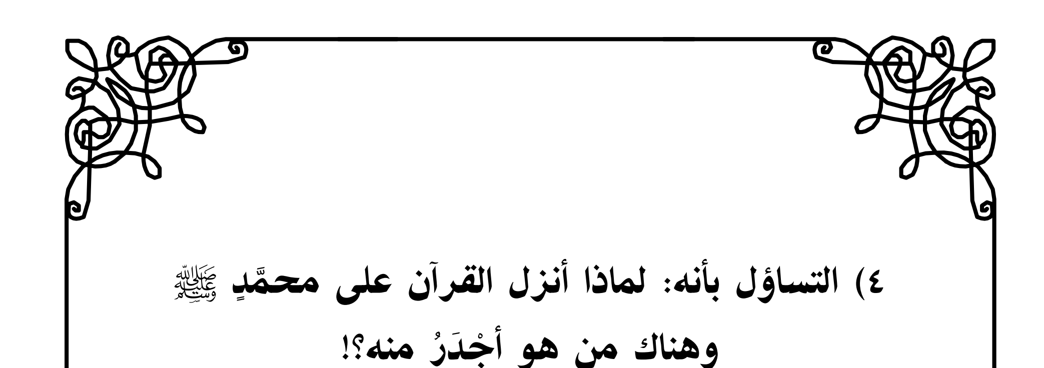
٣) القول بأنَّ محمَّداً ﷺ له يَدٌ في القرآن، وساعده عليه آخرون أيضاً

وهذه الشّبهة كما هو معلوم مُرَكَّبَةٌ من الشبهة الأولى والثانية المارِّ ذكرهما، وقال تعالى عن هذه الشبهة والردِّ عليها:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان].

وكما نرى اكتفى كلامُ الله الحكيم هنا، في الردِّ على هذه الشّبهة، بوصفها بالظلم والزّور، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والزّور هو الكذب، وذلك لأنه لا أظلم مِمِّنْ يَنْسِبُ كلام الله الحكيم إلى غيره، كما أنه لا قول أكذب من هذا الإِتِّهام الباطل.





٤) التساؤل بأنه: لماذا أنزل القرآن على محمَّدٍ ﷺ وهناك من هو أجْدَرُ منه؟!

ذكر سبحانه تساؤلهم هذا في قوله:

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ...﴾ [ص: ٨].

وفي قوله:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف].

وردّ عليهم سبحانه بقوله:

﴿...بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ [ص].

وبقوله:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ...﴾ [الزخرف: ٣٢].

وبقوله:

﴿...ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ...﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وتتضمَّن هذه الآيات والجمل المباركة، هذه الأجوبة المتينة على تساؤلهم المذكور:

١. إن المُثيرَ لتساؤلهم هذا، هو شَكُّهم في كون القرآن نازلاً على محمَّدٍ من الله تعالى: ﴿...بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ...﴾ [ص: ٨].

٢. وسَيَلْقَوْن جزاء تشكّكهم وتشكيكهم الذي ليس له أساس: ﴿...أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص].

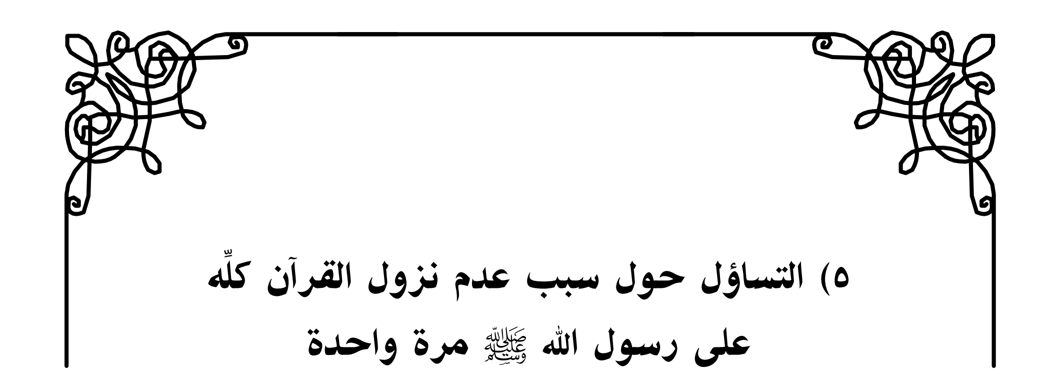
٣. إن خزائن رحمة الله تعالى ليس في اختيارهم، كي يوزِّعوا على مَن يريدون، ما يشتهون، بل هي تحت تصرف الربّ العزيز على أعدائه والوهّاب لأوليائه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص].

٤. ولا أنهم لا يملكون شيئاً من خزائن رحمة الله فَحَسْبُ، بل حتى معيشتهم الدنيوية هذه، إنما هي حسب توزيع الله وتقسيمه الحكيم بينهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ...﴾ [الزخرف: ٣٢].

٥. وتوزيع رحمة الله تعالى والتي النبوّة هي أعلى أنواعها، إنّما هو بيد من يملك السموات والأرض، وهم في ذلك المجال لا يملكون فتيلاً: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾﴾ [ص].

٦. والله تعالى حكيم لا يَهَبُ أحداً شيئاً من رحمته جُزافاً، فهو إذ اختار محمَّداً ﷺ من بين الناس، لهبته العظيمة ورحمته الخاصة: (النبوّة الخاتمة)، فلأنّه علم سبحانه أنه أليق الناس لها، وأجدرهم وأولاهم بها: ﴿...ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ...﴾ [الأنعام: ١٢٤].





٥) التساؤل حول سبب عدم نزول القرآن كلِّه على رسول الله ﷺ مرة واحدة

قال سبحانه في بيان شبهتهم الخامسة هذه ودَحْضها:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان].

حيث علَّل سبحانه عدم إنزاله القرآن كلّه مرة واحدة وإنزالِهِ منجَّماً مُقَسّماً بحسب الأحداث والوقائع، بشيئين:

١ ـ تثبيت فؤاد النبي ﷺ.

٢ ـ ترتيل قراءة القرآن، أي قراءته بِتَمهُّلٍ وتأَنّ كي يسهل حِفْظُه وضَبْطُه.

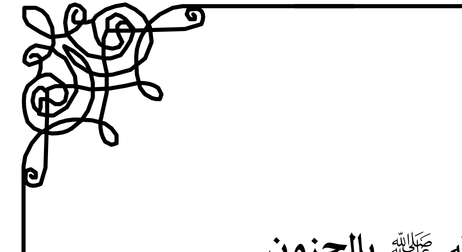
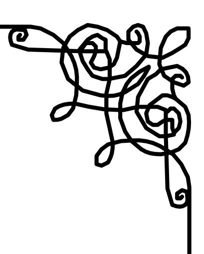
والظاهر أن المقصود بـ(فؤادك) هنا هو (قلبك)، وهذا الموضع هو من المواضع القليلة التي استعملت فيها كلمة (الفؤاد) بمعنى القلب، وأمّا في الغالب فهي بمعنى العقل، كما بينّا ذلك في الفصل الأول من هذا الباب (أي الكتاب الثاني).

وإذا قلنا: إن الفؤاد هنا هو بمعنى العَقل، فيكون معنى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: لِنُثَبِّته في فؤادك، ونُحَفِّظك إياهُ، ويساعد على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، لأن القراءة الواضحة المتأنية مع التدرّج في النزول، يُسَهِّلان عملية حفظ القرآن وضبطه وإتقانه لرسول الله ﷺ.

والمقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان]، أي ولا يذكرون اعتراضاً أو شبهة، إلّا ونأتيك في مُقابلها بما هو حق في ذاته، وكذلك بما هو أحسن وأفضل بياناً وإيضاحاً من إِشكالهم، بما لا يقاس من الدرجات[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) وذلك لأن صيغة التفضيل في مثل هذه المواطن، يقصد بها الفضل والرِّفعة المطلقة، إذْ غير هذا المعنى لا يليق بالله تعالى، وقد يرد كلام بصيغة التفضيل، ولكن لا يراد به التفضيل أصلاً، مثل قوله تعالى: ﴿...فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، إذ لا يوجد غير الله خالق آخر كي يجري التفاضل بينهما، والمعنى هنا: لو فرض وجود خالقين آخرين، غير الله، لكان الله تعالى أحسنهم.

٦) إتِّهام رسول الله ﷺ بالجنون

ولدحض هذا الإتِّهام الزّائف، قال كلام الله المبارك:

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ].

ومعنى هذه الآية:

أَنَّ مجرَّد التفكير الموضوعي الهادىء، يؤدِّي بكم إلى الإقتناع التام بأنَّ محمَّداً ﷺ بعيدٌ كل البُعْد عن الجنون، وإنّما قال تعالى: ﴿...أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ...﴾ [سبأ: ٤٦]، لأنَّ أكثر ما يكون التفكّر نافِعاً ومُثْمِراً، عندما يخلو الإنسان بنفسه، أو يكون هناك شخصٌ ثانٍ يحاوره ويساعده على التفكير.

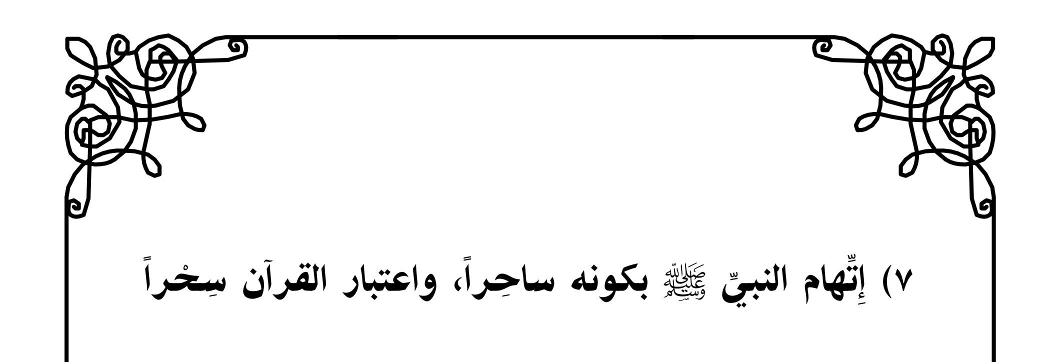
وكذلك قال تعالى في تفنيد اتهام الكفار نَبيَّه الخاتم ﷺ بالجنون: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون]، أي: إن مجرَّد معرفتهم بشخصيَّة رسولهم (محمَّد) كافٍ للإقتناع التام بِصْدْقه، ونفي تلك الشبهات عنه، كيف وهو في القِمَّة من الخُلُق الحَسَن، وسموِّ الأدب، ورجاحة العقل، والرَّزانة!

وقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون]، ومعنى هذه الآية:

إنّ رَمْيَ الكفّار رسولَ الله ﷺ بالجنون، إنّما سببه رفضهم للحق الذي جاءَهم به، فيُبَرِّرون هروبهم من الحق المتمثل في كتاب الله العزيز، باتِّهام (محمَّد) ﷺ بالجنون وغيره من النعوت القبيحة التي يستيقنون أنه منها بَراء!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



٧) إتِّهام النبيّ ﷺ بكونه ساحِراً، واعتبار القرآن سِحْراً

وقد ذكر سبحانه هذا الإتِّهام السخيف المزدوج في آيات كثيرة، ولكن اكتفى في الردِّ عليه بمجرَّد حكايته والتعجيب منه، وذلك لأن شأْنَ كتاب الله العظيم، وشأن نبيِّه الكريم، أعظمُ وأجلُّ من أن يُظَنَّ بهما ذلك، وهذه بعض الآيات بهذا الصَّدد:

١. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس].

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [هود].

٣. ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزخرف].

٤. ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر].

ونكتفي بالتعليق على آيات (المدثر) والتي نزلت كلُّها ـ كما سنذكر

القصة بعد قليل ـ في (الوليد بن المغيرة المخزومي) أحد أكابر قريش في الغنى والدهاء والجاه:

ويبدأ سبحانه بتوجيه التهديد له، ثم يُعدِّد النِّعَمَ التي أنعمها عليه، وطمعه في المزيد منها، ثم يقول تعالى مُبيِّناً موقفه:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ أي: إنه كان جاحِداً بآياتنا ومُعانِداً لها، والجحود والعناد قريبا المعنى[1]، وهو معرفة الحق وعدم الإقرار به كبراً وعلواً، أو حسداً.

وبعد أن يهدِّده العزيزُ الجبّار جلّ وعلا، بأنه سيُكلِّفه يوم القيامة العذاب والمَشَقَّة، أو الصعود من جبل مرتفع، ثم السقوط في الهاوية، ثم الصعود ثانية وهكذا، يُصوِّر سبحانه حالته النفسية والفكرية المُجْهَدة والصَّعبة، وهو يحاول العثُورَ على مَطْعَنٍ في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بقوله:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ [المدثر].

ثم يذكر جلّ شأنه ما تمخّض عنه تفكير ذلك الكافر المكابر العنيد الجاحد، وتقدِيرُه وتأمُّله، بعد أن قَطَّب جَبِيْنَه وكَلَّح وجْهَهُ عَجْزاً عن أن يجد مَنْفَذاً للطعن في كتاب الله الحكيم، بقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر]، أي اتَّهم القرآن بكونه سحراً يُحكى وينقل، وبكونه قول بشرٍ مّا لا على التعيين!

وللمرّة الثالثة والأخيرة يهدِّدُهُ الله ويُوعِدُهُ على إطلاقه هذا الوصف على كتاب الله، بالرغم من يقينه في نفسه بأنه كاذبٌ ـ كما هو واضح في قصة سبب النزول ـ بإدخاله إياه في السقر: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) المعجم الوسيط، ص٦٣٠.

والآن إلى قصة نزول هذه الآيات:

قال السيوطي:

«أخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له، فَبلَغ ذلك أبا جهلٍ، فأَتاه فقال: يا عمِّ! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوك، فَإِنك أتيت محمَّداً لتتعرَّض لِما قِبَلَهُ!، قال: لقد علمت قريش أَنِّي من أكثرها مالاً، قال: فَقُلْ فيه قولاً يبلغُ قومَك أنك مُنكِرٌ له، وأَنَّكَ كارِهٌ له!

فقال:

وماذا أقولُ! فَوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالشِّعر مِنِّي ولا بِرَجزه ولا بقصيده مِني، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يُشْبِه الذي يقولُ شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحَلاوَةً، وإنّ عليه لَطلاوةً، وإنَّه لمُنير أعلاه مُشْرِقٌ أَسْفَلُهُ، وإنه ليعْلو وما يُعْلى، وإنه ليحطِّم ما تحته!

قال: لا يرضى عنك قومُك حتى تَقُولَ فيه!

قال: فَدَعْني حتى أُفكِّر، فلمّا فكَّر، قال: هذا سِحْرٌ يُؤْثَر، يَأْثِرُهُ عن غَيْره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪﴾، إسناده صحيح على شرط البخاري، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق أخرى نحوه»[1].

وقد روى النيسابوري هذه القصة أيضاً مع اختلافٍ يسير في بعض الألفاظ حيث قال:

«قال مجاهد: إنَّ الوليد بن المغيرة كان يغشى النبي ﷺ وأبا بكرٍ رضي الله عنه، حتى حَسِبَتْ قريش أنه يُسْلِمُ، فقال أبو جهل:

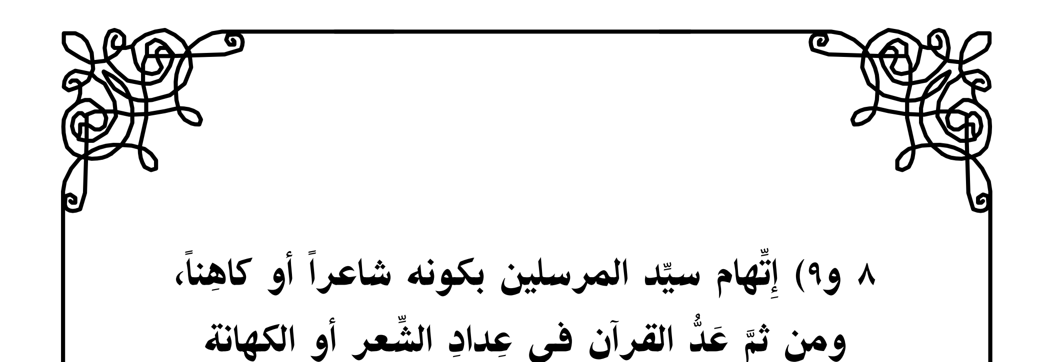
---

(١) لباب النقول، ص٢٧٩، ٢٨٠، رقم: ٩٨٧، وانظر: (أسباب النزول) للنيسابوري، ص٢٥٦، حيث أورد نفس القصة، وصَحَّح الحاكم هذه القصة في (المستدرك) (٢/ ٥٠٦) على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

إِنَّ قريشاً تزعم أنك إنما تأتي محمَّداً وابن أبي قحافة، تُصيبُ من طعامهما! فقال الوليد لقريش:

إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام، وإنكم تزعمون أن محمَّداً مجنون، وهل رأيتموه يتكَّهن قَطّ؟ قالوا: اللَّهم لا، قال تزعمون أنه شاعر، هل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا: لا، قال فتزعمون أنه كذّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: لا، قالت قريش لوليد: فما هو؟! قال: ما هو إلّا ساحِرٌ، وما يقوله سِحْرٌ، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾».





٨ و٩) إِتِّهام سيِّد المرسلين بكونه شاعراً أو كاهِناً، ومن ثمَّ عَدُّ القرآن في عِدادِ الشِّعر أو الكهانة

ذكر سبحانه وتعالى هذين الإتهامين والردَّ عليهما في عددٍ من الآيات البيِّنات، هذه أمثلة منها:

١. ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة].

٢. ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الطور].

٣. ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس].

٤. ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء].

وهذه تعليقات موجزة، على هذه المجموعات الأربع من الآيات المباركات، في أربعة بنود:

أولاً: ففي الآيات (٣٨ إلى ٤٣) من (الحاقة) بعد أن يَنْفي سبحانه

كلاماً سابقاً للكفار يفهم من السياق[1]، يقسم بكل ما نُشاهده وما لا نُشاهده من المخلوقات، وهذا يشمل المخلوقات كلّها، لأنّها إمّا أنها منظورة أو غير منظورة، ولا يوجد قسمٌ ثالث حسبما نعلم، وجواب القسم هو:

أن القرآن مقولٌ لرسول كريم، وهو جبريل ﷺ، أي إن القرآن قولٌ منقولٌ بواسطة مُرْسَلٍ كريم من الله العظيم جلّ وعلا، إلى رسوله (محمَّد) ﷺ، والمقصود بالآيات الكريمة، إيضاح أن قائل القرآن لمحمَّدٍ ﷺ إنما هو جبريل، والذي ينقله هو بدوره من الله تعالى، وليس له فيه دورٌ غير النقل، كما أن محمَّداً ﷺ ليس له فيه أي دور، سوى التلقِّي ثم التبليغ.

وبعد أن وضَّح سبحانه المصدَرَ الحقيقي للقرآن وقائِلَه وتالِيَه الحَقَّ وهو جبريل، عادَ فنفى الشبهاتِ التي يُثيرُها الكفارُ حول القرآن، فقال:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة].

ومعنى الآيتين:

أن الكفّار إنما يرمون القرآن العظيم ويتّهمونه بكونه شعراً وكهانة، وبالنتيجة: كون رسول الله ﷺ شاعراً أو كاهناً، من جرّاء قِلَّة الإيمان، وقِلّةِ التذكّر عندهم، والمقصود بالإيمان القليل والتذكّر القليل، هو إيمان من يؤمن منهم، وتذكّر من يتذكّر منهم، وهم قِلَّة فيهم، هذا إذا كانت (ما) مزيدةً لتأكيد قلّة الإيمان والتذكُّر.

وقد تكون (ما) نافية، ويكون المعنى حينذاك، نفي حتى قليلٍ من الإيمان والتذكّر عنهم، ويكون المقصود بالخطاب الكفّار الذين علم الله منهم، أنَّهم لا يؤمنون ولا يتذكّرون.

ثم يقول سبحانه وتعالى محدِّداً مَصْدَر ومَعِينَ نزولِ القرآن بعد تحديد قائله وناقله:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة].

---

(١) أما كون (لا) زائدة، أو كونها مكوَّنة من لام (ل) القسم، وألف (ا) كان في الأصل فتحة على اللاّم، ولكن أُشْبِعَتْ حَرَكتُها، فصارت ألِفاً، وبالتالي تحوّل (لَأُقْسِمُ) إلى (لا أُقْسِمُ)، فأراهما بعيدين مُتكلَّفين.

وخلاصة معنى الآيات:

أن الله تعالى يُقْسِمُ بكل مخلوقاته المنظورة وغير المنظورة، بأنَّ القرآن إنّما يقوله مُرْسَلٌ كريمٌ ـ وهو جبريل ـ لمحمَّدٍ ﷺ، وأنه ليس شعراً ولا كهانة، ولكن قلة إيمانكم وتذكُّركم ـ أيها الكفار عموماً، أو عدم امتلاككم شيئاً من الإيمان والتذكُّر، أيها الكفار المختومة القلوب خصوصاً ـ هو الذي أدّى بكم إلى إطلاق هذين الإتهامين، وإلّا فالقرآن تنزيلٌ من ربِّ العالمين، وكل قول سوى هذا ليس سوى هُراءٍ.

ثانياً: وفي الآيات (٣٠، ٣١، ٣٢) من (الطور) يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالإستمرار في الدعوة إلى الله، وتذكير الناس حقائق دين الله الحق، ثم يؤكِّد له سبحانه تكذيباً ودحضاً لاتِّهامات الكفّار، بأنه لم يَصِرْ بسبب نعمة ربِّه الكبرى، وهي النبوَّة والرسالة، لا كاهناً ولا مجنوناً، ثم يقول: أم أَنَّ الكفّار يقولون: إنَّ محمَّداً ﷺ شاعِرٌ ننتظر به صروفَ الدهر، كي نتخلَّص منه! فَقُلْ لهم: إنتظروا وأنا معكم من المنتظرين، وهذا تَطْمينٌ من رب العالمين لنبِّيه الخاتم ﷺ بأنه على عكس توقّعات الكفار وظنونهم السيئة، ستكون عاقبته حميدةً، ولكن عواقبهم بِخلاف آمالهم الكاذبة، ستكون وخيمة وأليمة.

وهذا يعتبر من معجزات القرآن في مجال الإنْباءِ بالغيب.

ثم يقول تعالى:

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الطور]، أي: أَوَ عقولُهم هي التي تؤدِّي بهم إلى إطلاق هذه الإتِّهامات التي لا يخفى بطلانُها على عاقل، أم أنَّ طغيانَهم هو السبب وراءَ موقفهم المُشين هذا؟! والمعنى:

أَن هذه الإتِّهامات لا يمكن صدورُها من عقلٍ سليمٍ، فهي تَرَشُّحاتِ قَلْبٍ سقيم!

ثالثاً: وفي الآيتين (٦٩، ٧٠) من (يس) يُبيِّن سبحانه أنه لم يُعَلِّمْ نَبِيَّه ﷺ قولَ الشِّعر، بل ولا يجوز ولا يتسنَّى له ذلك أصلاً!

وهذه الحقيقة كانت مُتَجلِّيةً في رسول الله ﷺ تَجلِّي الشَّمس في الظهيرة، إذْ كان ﷺ بالرغم من فصاحته وبلاغته التي سارت بذكرها الرُّكبان، لم يتأَتَّ لَهُ نَظْمُ الشعر، لا قبل النبوَّة ولا بعدها!

وهذا كلُّه من تدبير الله العليم الحكيم، وذلك لكي لا يكون هناك أَدْنى مجال، أن تحوم حَوْلَهُ شائبة الشك، في أي شأنٍ من شؤونه صلوات الله وسلامه عليه، فمنعه مولاه الحكيم تبارك وتعالى قبل النبوَّة وبعدها، من تَعَلُّمِ القراءة والكتابة ونَظْمِ الشّعر!

وبعد أن ينفي سبحانه صِفَةَ الشاعرية عن نَبِيِّه، ومن ثَمَّ ينتفي احتمال كون القرآن شعراً من أساسه، يعرِّف كتابه الكريم تعريفه الحق، فيقول:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس].

أي:

ليس ما يتلوه (محمَّد) ﷺ باسم ربِّه، إلّا كتاب الله الذي يذكِّر الناس بالحقائق الأساسية التي اعتُجِنَتْ بفطرتهم، وهو قرآن واضحٌ ومُبيِّنٌ لكل الحقائق التي يحتاجها الناس في حياتهم الأرضية، والغاية من إنزالِهِ هو: إنذارُ مَن أراد أن يَحْيا بروح الإيمان ويتنوَّر بنوره، ويتحقق - من جرّاء الإختيار السيئ - وعيد الله في حق الكفار، وبالنتيجة: ﴿... لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ...﴾ [الأنفال: ٤٢].

رابعاً: وفي الآيات (٢٢١ إلى ٢٢٦) من (الشعراء) وفي الردِّ على شبهات الكفار حول النبي ﷺ والقرآن العظيم الذي كلِّف بتبليغه يبيِّن سبحانه أولاً: أنه لا يمكن أن يقترب الشياطين من (محمَّد) نبي الله الخاتم، لعدم تجانسه معهم - وهذا ما سنتحدَّث عنه لاحقاً - ثمَّ يبيِّن سبحانه عدم احتمال كون النبيِّ الخاتم ﷺ شاعراً، بقوله:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء].

فيصف الشعراءَ - الشعراءَ الكفرة لأن الله تعالى استثنى منهم أهلَ الإيمان في الآية (٢٢٧) والأخيرة من سورة (الشعراء) - بثلاثة أوصاف لا ينسجم أي منها مع النبي الخاتم، بل هي معه على طرفي النقيض:

أ ـ الشعراء إنما يتأثَّر بهم ويَنْخدِعُ بهم الضالّون المُبْطِلون، وذلك بسبب وقوعهم تحت تأثير الكلمات الرنّانة والوزن والقافية، والتعبيرات التي تخاطب العاطفة وتحرِّك الغرائز، ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

ب ـ والشعراء يخلطون الكلام بعضه ببعض، ويتحدَّثون في مواضيع شتى لا رابط بينها، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾.

ج ـ وكذلك هم قَوليُّون أكثر من أن يكونوا عَمَليِّين، فيقولون كثيراً ممّا لا ينفِّذونه ولا يَلْتزمون به، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

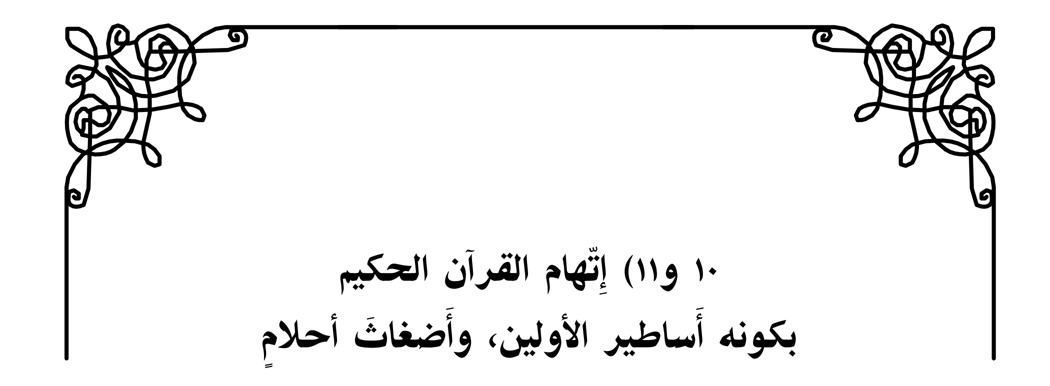
وإذا كان هذا هو شأن الشعراء ـ أي غير المؤمنين منهم أو أغلبهم إلّا المتحلِّين بالصفات التي رتَّبَ الله تعالى عليه الإستثناء، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والذكر الكثير لله تعالى، والإنتصار بعد التعرّض للظلم ـ، فشأن النبيِّ الأمِّي الخاتم ورسول الله الأعظم ﷺ يختلف عن هذا كلياً:

إذْ هو أولاً: إنّما تأثَّر به ويتأثر ذَوُوا العقول الرّاجحة والقلوب الصافية، ومن هم خيرة البشرية وصفوتهم في كل أجيالها المتعاقِبة.

وثانياً: القرآن الذي يتلوه (محمَّد) ﷺ محكم في بنائِه ومفصَّلٌ في آياته ومواضيعه، كما قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود].

ثم ثالثاً: إن محمَّداً ﷺ لا يقول قولاً إلّا وهو أسبق الناس لتنفيذه والإلتزام به، بأفضل ما يكون التنفيذ والإلتزام.





١٠ و١١) إتّهام القرآن الحكيم بكونه أَساطير الأولين، وأَضغاثَ أحلامٍ

ذكر سبحانه اتِّهام الكفّار كتابَ الله الحكيم بكونه (أساطير الأولين) ـ والأساطير جمع أسطورة، وهي الحكاية الملفقة التي لا أساس لها ـ في عدّة مواضع، هذا أحدها مع الردِّ عليه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝﴾ [الفرقان].

أي: وقال الكفّار عن القرآن العظيم هو قصص السابقين الكاذبة، طَلَبَ (محمَّدٌ) أن يكتبوها لَهُ، ثم كانت تُقرأ عليه ـ بعد كِتابَتها ـ صباحاً ومَساءً كي يحفظها!

ثم يقول تعالى مخاطباً نَبِيَّه الكريم ﷺ، مُعلِّماً إياه الردَّ المُفْحِمَ على هذه الفرية المفضوحة:

قل إنّما أنزل القرآن ذلك الرب الذي يعلم أسرار السموات والأرض ـ بدليل احتوائه عليها ـ وهو سبحانه غفور رحيمٌ.

وتعقيبه سبحانه على ذكر هذا الإتِّهام، والردِّ عليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، يفهم منه شيئان:

أولهما: التنبيهُ على أن الله تعالى رحمةً بعباده، وإرادةً في مغفرته إياهم، أنزل كتابه الكريم.

ثانيهما: تطميع الكفار المعاندين وتأميلهم في رحمة الله وغفرانه، إذا ما تركوا الكفر والعناد.

وأمّا اتِّهام الكفار كتابَ الله بكونه (أَضغاث أَحلام) ـ وأَضغاث جمع (ضِغْث) وهو الحُزْمَةُ من نباتاتٍ مختلطةٍ[1] شتّى، والمقصود بأضْغاث الأحلام، هو الأحلام المشوَّشه المختلطة التي يراها الإنسان، ولا يمكن تعبيرُها، لعدم إمكان الربط بين أجزائها المتباينة ـ، فَلَمْ يردْ إلّا في موضعٍ واحدٍ في كتاب الله المبين، وهو:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء].

وكما نرى قد أهْمَلَ كتابُ الله هذا الإتِّهام، واكتفى بمجرّد ذكره ولم يردّ عليه، وذلك لوضوح زَيْفه وبطلانه الذي لا يخفى على ذي لُبّ، ولعلّ الحكمة في ذكر كتاب الله الحكيم لكثير من شبهات الكفار واتهاماتهم الباطلة حول القرآن والرسول ﷺ، ثم إهمالِه لها، وعدم الردِّ عليها، هي:

التنبيهُ على مدى تَفاهَةِ تلك الإتِّهامات، وسَخافَة عقولِ أصحابها فَحَسْبُ!

ومن الواضح أنَّ كثرة ذِكْرِ القرآن لاتِّهام الكفّار كتابَ الله بكونه (أساطير الأولين)، دليلٌ على شدَّة وَلَعِهم بتلك الشبهة وكثرة ترديدهم لها، والظاهر أن السبب الذي أثار هذه الشبهة في قلوبهم الزّائغة هو: احتواءُ القرآن على قصص كثيرة للأنبياء عليهم السلام وغيرهم!

ولكن لو استعملوا عقولَهم بالإتجاه الصّحيح، لَأدْرَكوا أن قصص كتاب الله الحكيم، ليست كغيرها من القصص، سواء كانت صحيحة أو مكذوبة، لأن قصص القرآن تشتمل على أدق الحقائق التاريخية، التي لا يزيدها مرورُ الزمن إلّا صِدْقاً وجِلاءً، ثم هي مملوءةٌ بالعبر والعظات والدروس والأحكام والحِكم، وشَتّان بين قصص يَقُصُّها ربُّ العالمين جلَّ وعلا وبين ما يقصّه القصّاصون، أو حتى ما يكتبه المؤرِّخون.

---

(١) مختار الصحاح، ص٣٣٨، لفظ: ض غ ث.



١٢) اتِّهام الرَّسول الأعظم ﷺ، بأنَّ الشياطين هي التي تَتنزَّلُ عليه بالقرآن

وقد أَوْلى كتابُ الله الحكيم دَحْضَ هذا الإتِّهام عنايةً خاصةً، وذلك لأنَّ كلاًّ من الملائكة الكرام القائمين بدور السِّفارة بين الله وعباده الأنبياء عليهم السلام، والشياطين القائمين بالإغواء والوَسْوَسة، من الغيب المستور عنّا، لِذا إبعاداً للخَلْط واللَّبْسِ في الأذهان، بين إيحاءِ الملائكة ووساوس الشياطين، بيَّن كتابُ الله بِجلاءٍ تام، بَعْضَ خصوصيات هذين العالمين المتضادَّين، فيما يتعلَّق بالعمل الخاص الذي يقوم به كل منهما، أي: الإيحاء والوسوسة، وقد تحدَّثنا عن هذا الموضوع في الفصل الثالث من هذا الباب، (أي الكتاب الرابع من هذه الموسوعة).

وهذه بعض الآيات المباركات التي فَنَّد فيها كتابُ الله الإِتِّهامَ المذكور:

١. ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء].

٢. ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء].

٣. ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [التكوير].

٤. ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة].

٥. ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن].

ونُلخِّصُ الردَّ الذي تحتوي عليه هذه الآيات، في البنود الخمسة الآتية:

أولاً: إن الشياطين لا أَنَّهم لم يأتوا بالقرآن إلى (محمَّد) ﷺ فَحَسْبُ، بَلْ ليس ذلك في إمكانهم أصلاً، وذلك بسبب كونهم ممنوعين بَلْ مطرودين، عن الإستماع للملائكة الكرام، كما في الآيات (٢٠٩، ٢١٠، ٢١١) من (الشعراء).

وقد فصَّلنا القول في موضوع كون الشياطين ممنوعين عن الإستماع للملائكة، في الفصل الثالث من هذا الباب ـ أي الكتاب الرابع ـ.

ثانياً: إن الشياطين إنما تتنزَّل بالوساوس على الكذّابين الآثمين المُنْغمسين في السوء ـ كالسَّحرة والكُهّان ـ فهم الذين يَتلقَّوْنَ الوساوس الشيطانية، وأكثرهم كاذبون فيما يقولونه عنهم، كما في الآيات (٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣).

وإنما تهبط الشياطين على الكذّابين الغارقين في الإثم، لتناسب بعضهم مع بعض، كما أن الملائكة الكرام تتناسب وتَنْسَجِمُ مع الأنبياء عليهم السلام، وأهل الإيمان والإستقامة، وتتنزّل عليهم، كما قال:

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ...﴾ [النحل: ٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ [فصلت: ٣٠].

وإنما قال تعالى عن الذين يتلقون وساوس الشياطين: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾، ولم يقل (كلُّهم) لأنهم قد يتمكّنون من تحصيل شيء من الأخبار الصَّحيحة، كما جاءَ في حديث رسول الله ﷺ: أنهم قد يحصلون على كلمة صحيحة، ولكن يخلطون بها مائة كِذْبَةٍ، كما جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم: «**عَنْ عَائِشَةُ أَنَّهَا قَالَتْ: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُول الله ﷺ عَنْ الْكُهَّانِ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُول الله ﷺ: لَيْسُوا بِشَيْءٍ، قَالُوا: يَا رَسُول الله ﷺ! فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَاناً بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقّاً، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٠٦٦)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٤١٤١).

ثالثاً: إن القرآن الذي يتلقّاه (محمَّد) ﷺ، إنَّما يتلقّاه من (جبريل) الذي هو مُرْسَلٌ كريم من الله تعالى، وهو صاحب قوّة شديدة (فلا يجرؤ الشياطين على التقرّب منه)، وهو عند الله صاحِبِ العرش العظيم، ذو قدْرٍ ومكانةٍ، وهناك في الملأ الأعلى، يُطاعُ أمره وأمينٌ على ما يُعهد به إليه (وهو الوحي).

كما في الآيات (١٩، ٢٠، ٢١) من (التكوير).

هذا بالنسبة لِشَخْصيَّة السفير الربّاني الذي ينزِّلُ القرآن من الله على (محمَّدٍ) ﷺ، ويقوله له ويتلوه عليه.

رابعاً: وإنَّ (محمَّداً) ﷺ الذي تعرفونه عن قربٍ معرفة الصّاحب لصاحبِهِ، ليس مجنوناً ـ بسبب مَسّ الشياطين ـ بل هو موحى إليه من الله عن طريق جبريل عليه السلام، وهو قد رأى جبريل ـ على هيئَته الحقيقية ـ في أُفق السماءِ الواضح، (إذاً: فهو يعرف المَلَكَ الكريم الذي يتلقى منه كلامَ الله، بصورته الحقيقية وليس مُتوهِّماً فيه).

ثم إنّ (محمَّداً) ﷺ ليس بخيلاً بما يتلقاه من خبر الوحي فلا يُخفي مِنْهُ شيئاً، مِمّا أمره الله بتبليغه[1].

(١) وقريء: (وما هو على الغيب بظنين) أي بمتَّهم.

وبناءً عليه:

فالقرآن الذي يتلوه (محمَّدٌ) ﷺ ليس بقول (أي وسوسة) شيطان رجيم، فأين تذهب بِكُمْ عقولُكم، ولِمَ تظنُّون بمحمدٍ ﷺ، والقرآن المنزَّل عليه، تلك الظنون الفاسدة، التي لا يقبلها أي عقلٍ سليم؟!

كما في الآيات (٢٢ إلى ٢٦) من (التكوير).

وكذلك في الآيات (٧٥ إلى ٨٠) من (الواقعة) إذْ يُقْسِمُ سبحانه بمواقع النجوم ـ أي طرقها ومداراتها ـ مبيِّناً أن هذا القسم لو علمتم فحواه لأَدركتم أنه قسم عظيم، ثم يُبيِّن المقسم عليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة]، أي ان هذا القرآن الذي يبلِّغكم به (محمَّدٌ) ﷺ:

١ ـ قرآن كريم، أي ذو كرامة في ذاته، وذو كَرَمٍ وَجُودٍ مع حامِلِهِ.

٢ ـ وهو كان قبل إنزال الله تعالى إيّاه على نَبِيِّه ﷺ، في سِجلّ مصونٍ مستور، وهو اللّوح المحفوظ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج].

لِذا فهو في أصل وجوده، ومن حيث مصدرُهُ وينبوعُهُ: مصونٌ محفوظ وليس في متناول أحدٍ من المخلوقين، كي يتطرق إليه الظن السوء.

٣ ـ ولا يمسّ هذا القرآنَ عند إنزال الله إيّاه على نَبِيِّه ﷺ، إلّا الملائكة الكرام المطهّرون.

٤ ـ وهو مُنزَّلٌ من قبل رب العالمين سبحانه وتعالى.

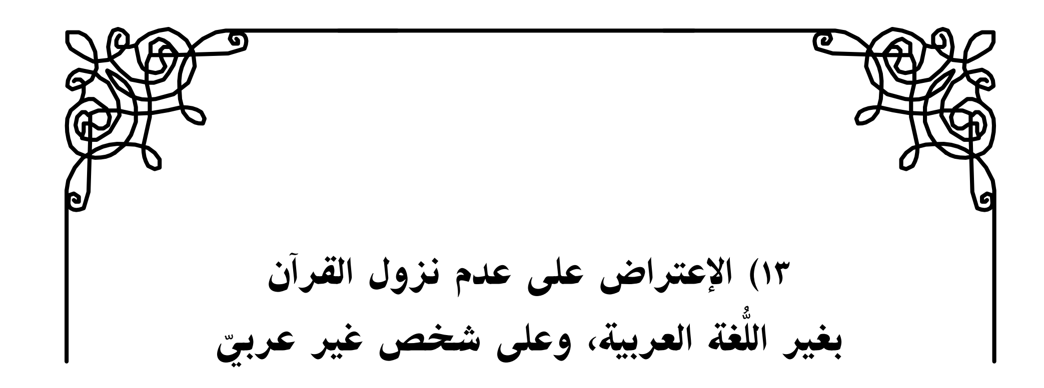
خامساً: إن الله سبحانه وتعالى لا يُطْلِعُ على مُغَيَّباته أحداً من خَلْقه إلّا الرسل المَرْضيّين عليهم السلام، وهؤلاء يجعلُ سبحانه قُدّامهم ووراءَهم حَرَساً من الملائكة، ليعلم الله ـ علم ظهور ـ بأنّ الملائكة الكرام، قد بلَّغوا

رسالات الله إلى رسله عليهم السلام، والله سبحانه أحاط بكل شؤونهم، وعدَّ كل شيء وأحصاه بِدِقَّة.

كما في الآيات (٢٦، ٢٧، ٢٨) من (الجن).

وهذا تأكيد من رب العالمين على أن موضوع إيحائه إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام، مما أولاه الله تعالى عنايةً خاصة، وجعله محفوظاً ومصوناً، ولا مجال فيه البتَّة لتشكيك المتشككين.





١٣) الإعتراض على عدم نزول القرآن بغير اللُّغة العربية، وعلى شخص غير عربيّ

وهذا الإعتراض المزدوج، يوجد مَنْ يَتَبنّاه الآن من الكفرة المنتمين إلى بعض الشعوب غير العربية، فيقول أحدهم:

لماذا لَمْ يُنْزِل الله القرآنَ بلغةٍ أخرى غَيْر اللّغة العربية، وكذلك لِمَ لم يُرْسِل الله نَبِيَّه الخاتم، في شعب آخر غير الشعب العربيّ؟!

وإنما قلت: (من الكفرة المنتمين إلى بَعض الشعوب غَيْر العربية)، لأنَّ الإعتراض على الله تعالى كفرٌ وأي كفر، وهل كفر إبليس إلّا بسبب اعتراضه على أمر الله تعالى؟

ولكن إذا غُيِّرت صيغة السؤال المذكور إلى:

(ما هي حكمة عدم إنزال الله القرآن بغير اللغة العربية؟ وعدم إرسال نبيِّه الخاتم في غير الشعب العربي؟!) فحينئذٍ يتغيّر حكم السؤال، إذ البحث والسؤال عن حكمة أوامر الله تعالى ونواهيه، دَعْ أنه ليس كفراً ولا إثماً، بل وممدوحُ أيضاً، كما استفسر الملائكة عن حكمة جعل (آدم) عليه السلام خليفة لله في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]، ثم بيَّن لهم سبحانه حكمتَهُ في ذلك في الآيات (٣١، ٣٢، ٣٣) في نفس السياق، وقد فصَّلْنا القول في هذا الموضوع في الفصل الثالث من الكتاب الأول.

هذا، ويبدو من الآيتين (١٩٨، ١٩٩) من (الشعراء)، والآية (٤٤) من (فُصِّلت)، والتي هذا نَصُّها:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء].

٢. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت].

أنه كان في المخاطَبين الأوَّلين ـ أي كفار العرب ـ مَنْ أثارَ شبهة هذا الإعتراض، ولهذا فَنَّده كتابُ الله الحكيم بكلا شِقَّيه.

ودَحْضُ كتاب الله لهذا الإعتراض، يَتَلخَّص في البنود الخمسة الآتية:

الأول: لو أن الله تعالى أنزل القرآن على شعب آخر، من الشعوب غير العربية، لما آمن به أولئك المعترضون، الذين لا يؤمنون به الآن بسبب كونه عربياً، ومنزَّلاً على شخصٍ ينتمي إلى شعب غير أعجمي، فهذا الإعتراضُ منهم ليس سوى ذريعةٍ يتذرَّعون بها للتهرّب من الحق، كما في الآيتين (١٩٨ و١٩٩) من (الشعراء).

ثانياً: إنَّ حكمة الله تعالى اقتضَتْ أن يكون (محمَّدُ بن عبدالله بن عبدالمطلب) ﷺ هو نبيَّه الخاتم، لأنه كان أجدر الناس وأفضلهم في علم الله العليم الخبير بهذا المنصب الجليل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام].

ثالثاً: ومن سنن الله الحكيمة أنه لم يُرسِلْ أحداً من رسله السابقين على (محمَّد) ﷺ، إلّا بلسان أقوامهم الذين بُعِثوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم].

رابعاً: وبما أن محمَّداً ﷺ كان عربياً وفي قوم عرب، كان لا بُدَّ حسب حكمة الله وسننه الحكيمة، من أن يكون الكتاب الذي يُنْزَل إليه أيضاً، بلغته وبلغة قومه، ولو أن الله تعالى جعل القرآن بلغة أخرى، لكان حينذاك مجالٌ للإعتراض، للذين يعترضون الآن على عربيَّته، ولا شك أنَّ اعتراضَهم الآن باطِلٌ ولا وجه له، ولكن اعتراضهم في تلك الحالة المفترضة، كان يصبحُ حقاً! كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ...﴾ [فصلت: ٤٤]، أي كيف يعقل أن يكون الرسول عربياً ولكن كتابه الذي أنزل عليه أعجميّ[1]؟!

خامساً: وبالإضافة إلى ما سبق، فقد أشار سبحانه وتعالى في اثنتي عشرة آية من كتابه، إلى كون القرآن عربياً وبلسان عربي مبين، وكما ذكرنا سابقاً في الكتاب الخامس، فإِنَّ كلَّ هذه التأكيدات الربّانية على ذلك، يُفْهم منه أن اللّغة العربية التي اختارها الله العليم الحكيم لتكون لغة خطابه الأخير مع الجنِّ والإنس، تتمتّع بخصائص بيانية فريدة، تجعلها أفضلَ وأدقَّ لغة، تُعبِّر عن وحي الله وكلامه المطلق، التي تضيق كلماتُ البشر وتعبيراتهم، عن أَنْ تَسَعَ حقائِقَ وأحكامَ وحِكَمَ كلامِ الله المطلقة، التي لا يُقيِّدها زمان ولا مكان!

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى في الآية (٤٤) من (فصلت): ﴿...قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ...﴾، بعد ذكره كون القرآن عربياً لكون المرسل عليه الصلاة والسَّلام عربياً، يشير إلى حقيقة أن أهل الإيمان لا تَهُمُّهُمْ عربيةُ القرآن أو أعجميَّتُهُ، لِأَنَّهم يبحثون عن هداية الله وشفائه، وهما موجودان في كلامه المبارك!

---

(١) كلمة (أعجمي) تعني غير العربي من الشعوب، فكل الشعوب غير الشعب العربي تسمَّى الشعوب الأعجمية.

وهكذا ردَّ كلامُ الله الحكيم على كل الشُّبَه التي أَثارها ويُثيرها الكفرة المعاندون حول كتاب الله وكيفية ارتباطه برسول الله ﷺ.

وإنّما أَتينا عليها شبهةً شبهة، لأن كتاب الله اهتمَّ بدحضها وتفنيدها كلّها، وإلّا فهي ليست سوى هروب المجرمين من الإعتراف بالحق الجليِّ، وإنما أرادوا بهذه الشُّبَه السّخيفة، التَسَتُّر على هروبهم، كواضع ورقة التوت على عورته، وإلّا فأين كلامُ الله الحكيم العظيم، وكتابةُ المبارك الكريم، من: السحر، والشّعر، والكهانة، وأضغاث الأحلام، وكلام المجانين، وأساطير الأولين؟!

ثم لو فَرَضْنا أَنَّ كلامَ الله هو شيءٌ من هذه الأشياء، أو هو كلُّها، مع أن بين بعضها وبعضها التناقض، فإنَّ هذه الأشياء تأتي بها السَّحرة والشعراء والكُهّان والحالِمون والمجانين والقصّاصون، وما أكثر كل هذه الأصناف في الكفرة في كل عصر ومصر! إذاً:

لماذا بُهِتوا وعَجَزوا عندما تَحدّاهم كتابُ الله، أنْ يأتوا بِسورة مثله؟!

ثم من ناحية أخرى:

إن هذه الأشياء بينها تناقض وتضادٌّ حادٌّ، فالشعر غير التكهُّن، وهما غير السِّحر، والثلاثة تختلف عن أضغاث الأحلام، وكلام المجانين يختلف عن الجميع، وكذلك أساطير الأولين وعليه:

فكيف يمكن القولُ بهذه الأقوال المتضاربة والتحليلات المتناقضة كلِّها في آنٍ واحدٍ؟! ولكن كما وصف كتابُ الله المبين مواقِفَهُم المتضاربة المتباينة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق]، فهم بسبب تكذيبهم بالحق الذي هو شيء واحدٌ أوقعوا أَنْفُسَهم في حالةِ اضطرابٍ وفوضى، إذ كلمة (مريج) تعني: مختلف ومختلط ومضطرب[١]،

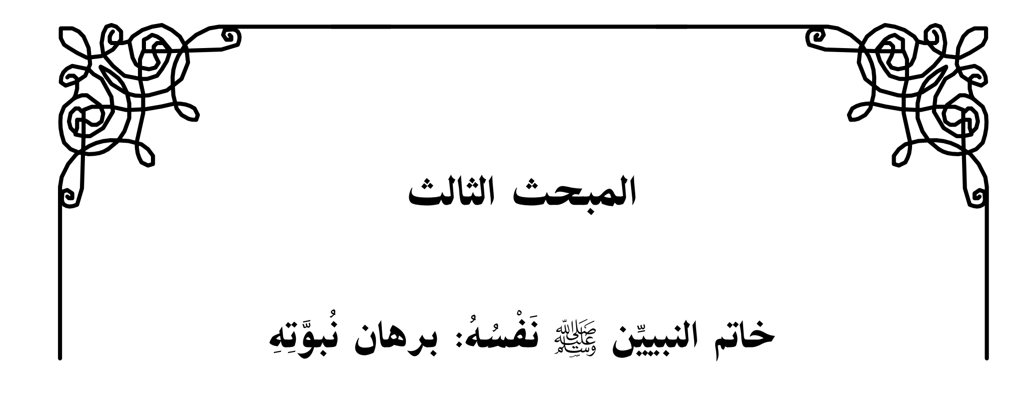
---

(١) المصباح المنير، ص٢٩٣.

ويقال: (مَرَجَ الخاتم في الأصبع، يَمْرُجُ مَرْجاً) أي: قلق ولَمْ يستقر على حال، وذلك مثل الذي ينكر أن: (٢+٢ = ٤)، فهو طالما أنكر النتيجة الوحيدة الصحيحة لهذه المعادلة الرياضية، فَسيظلُّ دَوْماً في خطأٍ وخَلْطٍ وفوضى واضطراب، إلى أنْ يرجع إلى الحق ويُسلِّم به ويَسْتَسْلِمَ له.

وبهذا نختم الكلام عن البرهان الثاني من براهين خاتم الأنبياء (محمَّد) ﷺ، وننتقل إلى البرهان الثالث:





المبحث الثالث

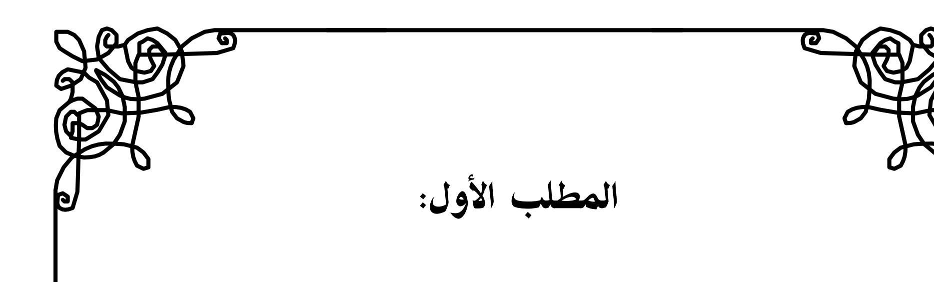
خاتم النبيين ﷺ نَفْسُهُ: برهان نُبوَّتِهِ

أجل إنّ خاتم الأنبياء وسيِّد المرسلين (محمَّداً) ﷺ، نَفْسَهُ: برهانٌ عظيم على نبوَّته، وبُرهانِيَّةُ رسولِ الله ﷺ على نبوَّته، تتجلَّى في جوانب كثيرة من شخصيَّته، ولكن نحن نختصرها ونُلَخِّصها في الجوانب الخمسة الآتية:

1. **إيمانُه ﷺ بالله وتوكُّله عليه، وبصيرَتُه في أمره، وَثباتُه على صراطه، واستقامَتُه على شريعته.**
2. **علومُهُ ومَعارِفُه ﷺ.**
3. **عبادتُه وزُهْدُه ﷺ.**
4. **خلُقُه العظيم ﷺ.**
5. **مُعجزاتُه ﷺ.**

وسنتحدَّث عن كلّ من هذه الجوانب الخمسة، من شخصيَّته المباركة الشاهدة على نبوَّته والنّاطقة بِصِدْقِهِ، بإيجاز في خمسة مطالب، لأن توفية أي من هذه الجوانب حَقَّه، تَتَطلَّب مجالاً واسعاً بل كتاباً مُسْتَقِلاًّ.

ونبدأ بالجانب الأول والأساس من شخصيَّةِ رسول الله ﷺ في المطلب الأول:



المطلب الأول:

إيمانه ﷺ بالله وتوكّله عليه، وبصيرته في أمره، وثباته على صراطه، واستقامته على شريعته: برهان نبوّته

قال الله تبارك وتعالى:

١. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة].

٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ [الأحزاب].

٣. ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف].

٤. ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء].

٥. ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود].

وهذا تعليق موجز على هذه الآيات المباركة المدرجة أعلاه:

١) الآية (٢٨٥) من (البقرة) تتحدَّث عن إيمان رسول الله ﷺ وأتباعه المؤمنين، بالله تعالى وبأصول الإيمان الأخرى المتفرِّعة عنه.

٢) والآية (٤٨) من (الأحزاب) تتحدَّث عن توكُّله ﷺ واعتماده على الله تعالى، وذلك لأنّه ما مِنْ أمرٍ أو نهيٍ ربّاني مُوَجَّهٍ إلى النبي الخاتم ﷺ، إلّا وامتثله ونفَّذه كما هو، من غير زيادة أو نقص، لِذا يُعْتَبَرُ كُلُّ ما أُلْزِمَ به في كتاب الله من أعمالٍ وأحوالٍ، صفاتٍ وأفْعالاً له.

٣) والآية (١٠٨) من (يوسف) تتحدَّث عن بصيرته ﷺ في أمر دينه ودعوته الناس إلى ربِّه تعالى.

٤) والآيتان (٧٣، ٧٤) من (الإسراء) تبيِّنان ثَباتَه ورُسوخَهُ في التزامِهِ بدين الله الحق، بالرغم من بَذْل الكفّار جهوداً كثيرة للتأثير فيه، إذْ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء]، شهادة من الله العظيم لنبيه الكريم ﷺ، بأنه بفضل تثبيت الله تعالى له، أمام محاولات الكفار، لَمْ يَمِلْ عن جادة الحق في كل أموره، حتى ولو شيئاً قليلاً ومِقداراً ضَئِيلاً!

٥) وأما الآية (١١٢) من (هود) فتتحدَّث عن إستقامته ﷺ كما أمره الله تعالى، والفرق بين الثبات والإستقامة، هو أنَّ الثبات يفيد الرّسوخ وعدم التزعزع في الشدائد والمواقف الصعبة، ولكن الإستقامة عامة وشاملة لكل الأحوال وتُفِيد الإستمرارية.

حقاً إن إيمانَ رسول الله ﷺ العميق الراسخ بالله تبارك وتعالى، وثقته القويَّة بِهِ، وتوكُّلَه المطلق عليه، الذي جعله كالطَّود الشّامخ أمام أعاصير المصائب والمشاكل، لا تَلينُ له قَناةٌ ولا يَنْثني له عَزْمٌ.

وبصيرته التامَّة في دين الله، وفقهه العميق الدقيق في كلياته وجُزئياته

الذي جَعَلَه يُبيِّن كتابَ الله، ويُوَضِّحُ كيفيةَ تطبيقه كُلِّه، من أَلِفِهِ إلى يائِهِ، كما أراده الله الحكيم.

وصبرُه وثَباتُه على صراط الله المستقيم، لا يَحيدُ عنه قَيْدَ شَعْرةٍ، في سَرّاءٍ أو ضَرّاء، ولا في حالة فقرٍ أو غِني، وضُعْفٍ أو قوَّةٍ!

واستقامته على شريعة الله وأحكامها ليلاً ونهاراً، وفي الحرب والسِّلْم، وعند الصِّحة والمرض، ووقت الخوف والأمْنِ... إلخ.

إِن هذه الأوصاف العظيمة في نبيِّ الله الأميِّ الخاتم (محمَّد بن عبدالله) ﷺ، لا يمكن تفسيرُ وجودِها فيه، إلّا بإرجاعها إلى نبوَّته ورسالته واتصاله الوثيق بالله وارتباطه المتواصل بذكره سبحانه من خلال الوحي المبارك، كما قال تعالى مخاطباً نبيَّه، ومُذَكِّراً إيّاه نِعمَةَ الوحي الجليلة، التي جعلته يختلف حاله جذرياً، عمّا كان عليه قبل النبوّة والوحي:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

أجَلْ، مَنْ يتأمَّلُ حالَ رسول الله الكريم (محمَّد) ﷺ وذلك التَغيُّر والإنقلاب المبارك العميق العجيب العظيم الذي طرأ عليه بعد عودته الأخيرة من (غار حراء)، والتقائه بالمَلَكِ الكريم (جبريل) عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتكريم الله الكريم وتشريفه إيّاه، بالنبوَّة الخاتمة والرسالة الشاملة، لا يملك نفسه ما دام يملك عقلاً وشيئاً من الإنصاف، إلّا أن يُرْجِع ذلك الإنقلاب العظيم والتغيير المبارك العجيب في (محمَّد بن عبدالله بن عبد المطلب) الأمّي، إلى رب العالمين، وفاطر السَّموات والأرض تبارك وتعالى.

كيف! وقد قَلَب ذلك التغييرُ والإنقلابُ الربّانِيُّ المبارك (محمَّداً) الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ولا الكتاب والإيمان، بل كان ضالاً[1]:

(١) أي ضالّاً عن القضايا التي تتوقف معرفتها على الوحي، وهذا لا يُنافي أنَّه كان قبل=

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى].

وكان ضائق الصدر ومثقل الظهر: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح].

قَلَبَهُ إلى إنسانٍ آخر مختلفٍ تمام الإختلاف عمّا كان عليه في السابق، ثم صيَّره إلى هادٍ للبشرية كلّها، بإذن الله إلى صراط الله المستقيم: ﴿... وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

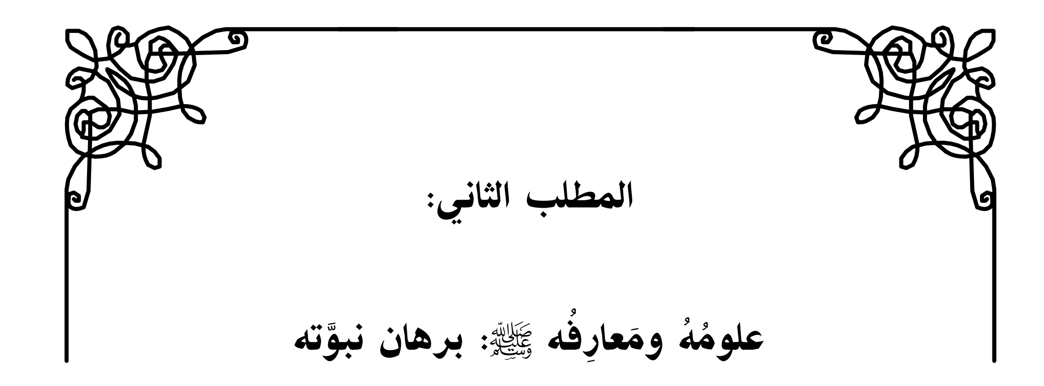
وبشيراً ونذيراً للناس كافة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [سبأ].

ثمَّ صَيَّرهُ سَبَبَ نزول رحمة الله وإصابة فضله، لجميع الإنس والجن: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

ثم ما لَبِث أن أحدث انقلابُهُ، انقلاباً عظيماً عميقاً واسعاً شاملاً في حياة أهل الأرض كُلِّهم، وصار وجودهُ المبارك منعطفاً في تأريخ البشرية للخروج من الظلمات بكلّ أنواعها إلى النور، نور دين الله الحق وهداه التام: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ...﴾ [إبراهيم]!!



= النبوَّة في القِمَّة من الأخلاق والفضائل الفطرية والجِبِليَّة التي فطره الله الحكيم عليها وحَباهُ بها، إذ هذه الحالة الفطرية الطاهرة شيء، والوحي الربّاني الذي أَطْلَعَهُ على أسرار الخلق وحقائق الربوبية والألوهية، وأسماء الله الحُسْنى وصفاته العُلى وشؤون المُثْلى، وحقائق الإيمان وأحكام الشريعة وحِكَمها، شيء آخر.



المطلب الثاني:

علومُهُ ومَعارِفُه ﷺ: برهان نبوَّته

قال الله سبحانه وتعالى:

١. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٢. ﴿...وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء].

٣. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه].

إنَّ العلوم والمعارف التي فاض بها عَقْلُ رسول الله الكبير وقَلْبُه العظيم، وذلك في شتّى المجالات، كما تجلّى ذلك في سنته المباركة، هي الأخرى جانب آخر من جوانب شخصيته الدالّة على نبوَّته، وذلك لأنه لم يُعْهَدْ في تأريخ البشرية، ولم يَحْدُثْ قط، أن يُصْبِح رجلٌ أُمِّيٌّ لا يعرف القراءة والكتابة، ليس علاّمة وعارفاً فَحَسْبُ، بل ومُعَلِّم العلاّمين، وأستاذ العارفين أيضاً!

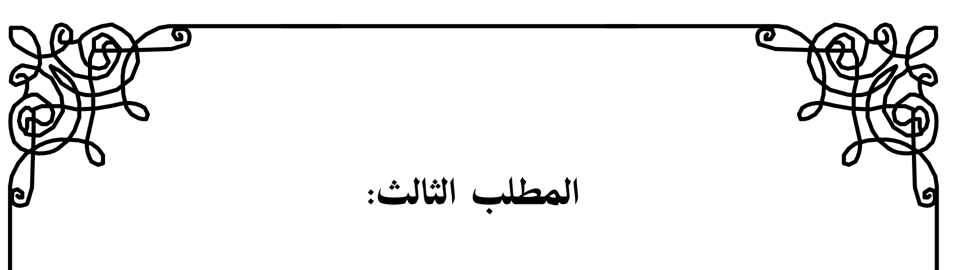
أَجَلْ إنَّ أمر (محمَّد) ﷺ بكلِّ (معروف)، ونَهيه عن كلِّ (منكر)، وتحليله لكل (طيِّب)، وتحريمه لكلِّ (خبيث)، ووضعه كُلَّ (إصْرٍ)[1] عن كاهل الناس، وقطعه كل (الأغلال) الفكرية والإجتماعية والسياسية الّتي كُبِّلوا بها، عنهم، كما في الآية (١٥٧) من (الأعراف)، وكما يتجلَّى مِصْداق ذلك في سنته وسيرته كالشمس في الظهيرة، لا يمكن تفسيره إلّا بالإقرار بكونه ﷺ نَبِيَّ الله ورسولَه المصطفى، ومُسْتَقِياً علومَهُ ومعارِفَه من معين الوحي الصّافي، الذي لا كَدَرَ فيه البتة.

هذا وقد أَلَّف العلماءُ المعاصرون كُتُباً، وكتبوا مقالاتٍ حول بعض الأَحاديث النَّبوية الشَّريفة، التي أشار فيها رسولُ الله ﷺ إلى أشياء لم يتوصَّلْ العلمُ البشري إلى إدراك حِكَمِها إلّا قريباً.

كما وأنه لم يستطِعْ أَحَدٌ أن يكتشف خطأً في حديث من أحاديث رسول الله ﷺ، التي صحَّح العلماءُ المتخصِّصون نسبتها إليه، وكيف يُخْطيءُ من ينطق في ضوء نور الإيمان والوحي!!



(١) إصْر، جمعه (آصار)، ومعناه الثِّقَل، وهنا يقصد به التكاليف الشاقة التي اقتضاها انحراف الناس، كعقوبة لهم. مختار الصحاح ص٢٩، لفظ: ا ص ر.



المطلب الثالث:

عبادتُه وزُهْدُه ﷺ: برهان نُبوَّته

قال الله تعالى مخاطباً نَبيَّه الخاتم ورسولَه الأعظم:

١. ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

٢. ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه].

٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾﴾ [المزمل].

٤. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب].

إنَّ المُتأَمِّل في هذه الآيات وأمثالها، يتبيَّن له مَدى انغماس رسول الله ﷺ في عبادة الله تبارك وتعالى وذكره وتقواه، وبالرغم من أشغاله الكثيرة وجهاده المُضْني الشاقِّ على شتّى الأصعدة والجبهات، ومن الواضح أن ذلك الإنغماس في الطاعة والإنقطاع إلى الذكر والعبادة الشخصية، وفي تلك الحالة التي كان عليها ﷺ، لا يمكن تفسيره إلّا بكونه موصول القلب بالله تعالى بصورة غير عادية، وذلك من خلال الوحي المبارك، إذْ إننا نرى الناس عموماً، إذا ما توجَّهوا نحو الحياة المعنوية والجانب الروحي، ابتعدوا عن الدنيا والجانب المادي من الحياة، أو إذا اشتغلوا بالدنيا ومتاعها وأَشغالها، تجافَوا عن الجانب المعنوي أو قلّلوا منه، وأمّا أن يكون الإنسان كاملاً في الجانبين وموفور النِّشاط في الميدانين!، فوالله صَعْبٌ جِدّاً، وأَمّا أن يبلغ في كلا الميدانين، المستوى الذي وصله النبيُّ الخاتم ﷺ بفضل ارتباطه الوثيق بالله تعالى، من خلال وحيه المبارك، وتسديده وتوفيقه، فهذا مِمّا انفردَ به رسولُ الله الخاتم ﷺ.

وكذلك ذلك الزُّهد والحياة البسيطة، بل المُتَقَشِّفَة التي اختارها رسولُ الله ﷺ، مع ما كان فيه وخصوصاً في سِني آخر حياته المباركة، من إمكانيات كثيرة، واقتناعُهُ بِما يَسُدُّ الرَّمَقَ من الطعام البسيط، وبما يَسْتُرُ الجَسَدَ من اللباس النظيف، ثم إلْزامُ أهل بيته، وفي مقدِّمتهم أزواجه الطاهرات رضي الله عنهنَّ به، ـ أي بذلك النَّمَط من العيش ـ إلى درجة أن يُخَيِّرهنَّ بأمر الله تعالى بين البقاء معه زاهدات، أو تسريحه لهنَّ! هذا أيضاً معجزة بِحَدِّ ذاته، ولا يتيسَّر بَعْضُه إلّا لمن اهتدى بهدي ذلك الهادي العظيم، ولكن مع مَشَقَّةٍ وبَذْلِ جُهْدٍ كبير!

وذلك لأن اعتزالَ الناس والحياة، والتَّرفُّعَ على المَلَذّات، في بيت أو كهفٍ أو صومعةٍ، سهلٌ إلى حدّ ما، ولكن هذا غيْر ما كان فيه نبيُّ الله الخاتم ﷺ من حياةٍ مملوءة بالعمل الجادِّ المتواصل، على مُستوى الأسرة والمجتمع والدّولة، من إقامة شعائر، وتطبيق شرائع، وتعليم وتزكية، ودعوة وقضاء وقتال، وحَلِّ مشكلاتٍ، ومواجهة صعاب شتَّى، وتحدِّياتٍ مختلفة، وإنّما تكمن الصّعوبة في الجمع بين هذه الأشياء كلِّها، بتوازن دقيق، وإعطاء

كل جانب حقّه من غير أن يطغى جانب على آخر، أو يتضخَّم على حساب ضموره وانكماشه!

ولكن النبيَّ الخاتم المؤيَّد من الله تعالى والمُسَدَّد بوحيه، وفّقه الله للجمع بين كل هذه الأشياء وغيرها، بأروع ما يكون الجمع، وبأفضل ما يكون التوازن، وسيرَتُهُ العَطِرَة تُجَلِّي هذه الحقيقة كالشمس المشرقةَ وقت الضُّحى.

ونختم هذا الموضوع بذكر قصة سبب نزول الآيتين (٢٨، ٢٩) من (الأحزاب) في مجموعة آيات أخرى:

قال السيوطي:

«أخرج مسلم وأحمد والنسائي من طريق أبي الزّبير عن جابر ﷺ قال: أقبل أبو بكر ﷺ يَسْتَأْذِنُ على رسول الله ﷺ فلم يُؤْذَنْ له، ثم أقبل عمر ﷺ فاستأذَنَ فلم يؤذَنْ له، ثم أذِن لهما فدخلا والنبيُّ ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلِّمنَّ النبيَّ ﷺ لَعَلَّه يَضْحَك، فقال: يا رسول الله لو رأيت بِنْتَ زيد (امرأة عمر) سألَتْني النفقة آنِفاً فَوَجأْتُ عُنُقَها، فضحك النَّبِيُّ ﷺ حتى بدا ناجِذهُ، وقال: هُنَّ حولي يسْأَلْنني النفقة، فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، وكلاهما يقولُ: تسألان النبيَّ ﷺ ما ليس عنده؟! وأنزل الله الخيارَ، فبدأ ﷺ بعائشة ﷺ، فقال: إني ذاكرٌ لكِ أمراً ما أُحِبُّ أن تَعْجَلِي فيه حتى تستأمري أبويك، قالت: ما هو؟ فتلا عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾، قالت عائشة: أَفيك أستأمِرُ أبويَّ؟! بلْ أَخْتارُ الله ورسولَهُ ﷺ»[1].

كما يبدو من هذه القصة التي هي ملخّص لأصل الحادثة ـ أي حادثة انزعاج النبيِّ ﷺ، من أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، بسبب مطالبتهنَّ إياه التوسّع في النفقة عليهنَّ ـ، فإنَّ اختيارَ رسول الله ﷺ عَيْشَه البسيط الزاهد، كان عزيمةً منه، وكذلك كان إلْزاماً ربّانياً له به!

---

(١) (لُباب النقول في أسباب النزول) ص٢٠٧، ٢٠٨، رقم: ٧٢٥. وانظر: صحيح مسلم: ١٤٧٨، ومسند أحمد: ١٤٥٥٥، وسنن النسائي: ٩٢٠٨.

وقد يظن ظانٌّ أَنَّ أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ، طالَبْن زوجَهُنَّ الكريم العظيم الحليم ﷺ، بحياةٍ مُرفَّهة وعيشةٍ رغيدةٍ كحياة عوائل الرؤساء والملوك في ذلك الزمان!!

ولكن ليس الأمرُ كذلك، بل كُنَّ طالَبْنَ بِحياة كحياة متوسطة كمعظم النّاس، بدليل أن أُمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصَفَتْ بَيْتَ رسول الله ﷺ، بأنه كان أحياناً يَمُرُّ هلالٌ ثم هِلالٌ ثم هِلالٌ، ولا توقد في بيت رسول الله نارٌ ـ أي لطبخ اللّحم ـ، ثم لما سألها الرّاوي وهو (عروة بن الزبير) رضي الله عنه، عن الذي كانوا يَتَعيَّشون به؟ قالت: الأسودان: الماء والتمر!! كما رواه عنها البخاري[1].

ولا شك أن في اختيار رسول الله ﷺ ذلك النوع من العيش حِكماً كثيرة، منها:

١ ـ أن يكون أسوة لمن بعده من خلفائه وأمراء المسلمين ومسؤوليهم الّذين يتطلّعون أَنْ يقودوا المسلمين، حسب منهاج الإسلام وهدي الرسول ﷺ.

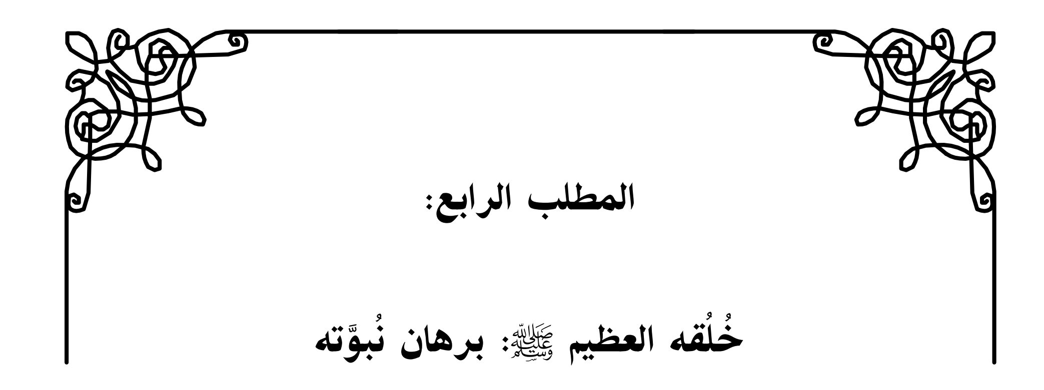
٢ ـ وأن يكون أسوة للفقراء والبُسطاء من الناس ويُعَزُّوا[2] بسيرته وحياته أَنْفُسَهُمْ.

٣ ـ وأن يُبْعِد أَيّما إبعادٍ، شُبْهَةَ كونه طالب دُنيا وملكٍ ومتاعٍ.

٤ ـ وأن يكون مِصْداقاً ومُجَسِّداً لما يُنادي به كتابُ الله الحكيم، من أن الحياة الدنيا ليست سوى متاعٍ قليل، فَيَجِبُ الإكتفاء منها بِبُلْغةٍ فقط.

(١) «عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: ابْنَ أُخْتِي! إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ، فَقُلْتُ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: ٦٤٥٩).

(٢) عَزِيَ يَعزى عَزاءً: صَبَرَ على ما نابَه فهو عَزٍ وعَزِيٌّ. وعَزّاه: صَبَّرَهُ. وتعزّى: تَصَبَّر. المعجم الوسيط، ص٥٩٩.



المطلب الرابع:

خُلُقه العظيم ﷺ: برهان نُبوّته

قال الله تبارك وتعالى:

١. ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾ [القلم].

٢. ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران].

٣. ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة].

وكيفية دلالة هذه الآيات التي ليست سوى أمثلة في بابها، على أن خُلُقَ رسول الله العظيم وأَدَبَه الرفيع، برهانٌ على نُبوَّته، هي كالآتي:

أولاً: الآيات (١) إلى (٦) من (القلم):

في هذه الآيات بعد أن يُقسم الله تعالى بالقلم، وبما يكتبه الناس، يخاطب الله تعالى نبيَّه ﷺ مبيِّناً له هذه الحقائق، فيما يتعلّق بشخصيّته عموماً، وبالنسبة لِخُلُقِهِ ومصيره الذي يؤول إليه أمره في نهاية المطاف، خصوصاً:

١) أنه لم يَصِرْ مجنوناً بسبب نعمة الله العُظْمى عليه، وهي النبوَّة والرِّسالة، كما يدَّعي المشركون: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ [القلم].

٢) وأنه له في الآخرة أجرٌ وثوابٌ متواصِلٌ ومُمتدٌّ لا ينقطع أبداً، والذي يتمثَّل فيما أعَدَّهُ الله الكريم له من النعيم المقيم في الجنة ودرجاتها العُلى، بل أعلى درجةٍ فيها: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣﴾ [القلم].

٣) وأنه مُتَخلِّقٌ بخلقٍ عظيم وأَدبٍ رفيع: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم].

٤) وأنه سيتبيَّن له وللكفّار، أَيُّ الطرفين به جنون ـ، والجنون فنون كما قيل ـ محمَّد ﷺ أم الكفّار والمشركون: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦﴾ [القلم].

نعم إنَّ خُلُقَ رسولِ الله العظيم وأَدَبَهُ الرَّفيع، برهانٌ على نبوَّته، ودليلٌ على صِدْقِهِ وشاهِدٌ على بُعْدِه عن كل ما يرميه به أعداؤه الذين أعماهُم الحقد والحسد، أو انحرف بهم الكبر والكفر.

ثانياً: الآية (١٥٩) من (آل عمران):

وفي هذه الآية يُبيِّن الله الحكيم سبحانه وتعالى أساس الخلق الحسن والفضائل الجمَّة لنبيه ﷺ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ...﴾ [آل عمران: ١٥٩]، نعم، رحمةُ الله المُتَجلِّية في وحيه وهدايته، هي التي جعلت محمَّداً ﷺ مُتَحلِّياً بِخُلُقِهِ العظيم، وفضائله الكثيرة، التي لم يُشَقّ ولا يُشَقُّ لها غُبارٌ.

والمقصود بالآداب والفضائل النَبويَّة هنا، هي التي تَتَوقَّفُ مَعْرفتها أو التَحلِّي بها على الوحي، لا ما تقتضيه فطرتُهُ السليمة ومَعْدِنُهُ الأصيل ﷺ.

ثالثاً: الآية (١٢٨) من (التوبة):

يُعَرِّف الله تعالى في هذه الآية بنبيِّه الكريم ﷺ من خلال مجموعة من

صفاته الجليلة التي حلاّه الله تعالى بها، من خلال إيحائِهِ إليه واصطفائِهِ له نبياً ورسولاً، وهي:

١) هو رسول أرسله الله تعالى إلينا نحن البشر: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ [التوبة: ١٢٨].

٢) وهو من أنفسنا نحن البشر، وليس من عالم غريب عنّا وغير مَأْنوسٍ لنا، كما كان الكفار المعاندون يقترحون جهلاً أو كيداً وخباثةً: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

٣) يشقّ عليه ويؤذيه مِنْ فَرْط محبَّته لنا، كُلُّ ما فيه ضَرَرُنا وشقاؤنا: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

٤) وهو مكترِثٌ بنا، وحريصٌ علينا، وعلى مصلحتنا وخيرنا وسعادتنا: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.

٥ و٦) وهو شديد الرأفة وموفور الرحمة وكثير الشفقة، تجاه أهل الإيمان خصوصاً: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

والفرق بين الرأفة والرحمة هو: أنَّ الرأفة تجعل الرؤوف يُبْعِدُ الأذى والضّرر عن المرؤوف، والرحمة تجعله يُشْفِقُ عليه لإيصال النفع والخير إليه، أو: الرأفة أَشدُّ الرَّحمة[1].

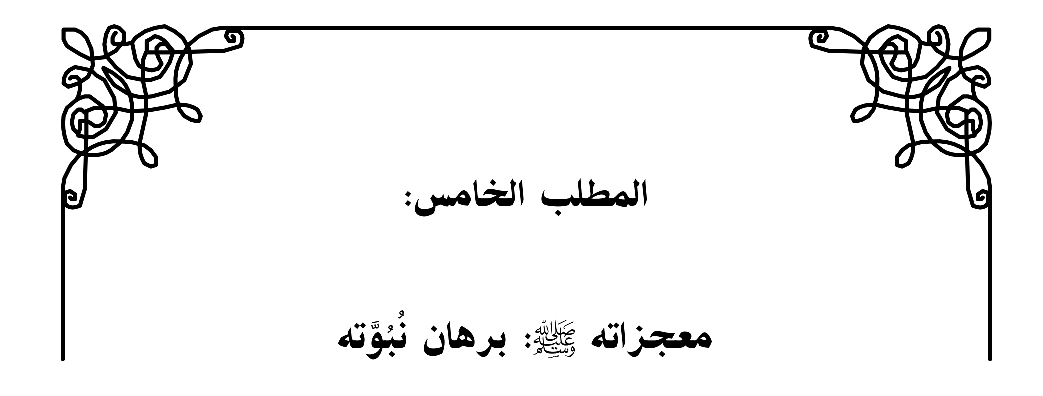
وبما أنَّ الفضائل والخصال الحميدة، لا يمكن اكتسابُها إلّا على أساس الإيمان والعبادة الصّحيحة لله تعالى، لأن الله تعالى هو وحده مصدر كل خيرٍ ونُورٍ وبركة، لِذا كلّما كان الإنسان أقرب إليه بِالكيفية التي أمر بها وبيَّنها في شَرْعِهِ، كلّما كان أكثر تمكُّناً من نيل الفضائل والتَحلِّي بها، ثم بما أن رسولَ الله ﷺ كان في القِمَّةِ التي لا يرتقي إليها أحدٌ، في كل

(١) أنظر كلاً من: مختار الصحاح، ص٢٢٦، والمعجم الوسيط، ص٣١٩، إذ كل منهما يقول: الرأفة: أشدُّ الرحمة.

الصفات الحميدة والأخلاق الحسنة، ومن دون تدخّل أحدٍ من البشر، إذاً:

فهذا دليلٌ على أنه إنَّما اكتسب فضائِلَه تلك، عن طريق وحي الله الحكيم ورحمته وفضله المُتَجَسِّدَيْنِ في النبوّة الخاتمة والرسالة الشاملة، التي أكرمه ربّه العليم الحكيم بهما، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله أجمعين.





المطلب الخامس:

معجزاته ﷺ: برهان نُبُوَّته

كما بيّناه بالتفصيل في الكتاب الخامس، إنَّ المعجزة الوحيدة التي تحدَّى بها رسولُ الله ﷺ واعتمد عليها كبرهانٍ على صِدْقِهِ في دعوى النبوَّة، هي القرآن العظيم، ولكن هذا لا يعني أن محمَّداً ﷺ لم يُجْرِ الله تعالى على يَدَيْهِ معجزاتٍ وخوارق عادات أخرى! بلى ومعجزاته التي أظهرها الله تعالى على يديه كثيرة جدّاً ومن الصَّعْبِ استقصاؤها، وكتب السنة والسيرة النّبوية طافحة بها، وسَأُشيرُ إلى أهمِّ ما تُسْعِفني الذاكرة بتذكُّره منها، ولكن بعد التذكير بالحقيقة الآتية:

إنَّ تلك المعجزات التي أجراها الله تعالى على يد نَبيِّه الخاتم ورسوله الأعظم ﷺ بَيْنَ صحابته رضوان الله عليهم، لم يكن المقصود منها إثبات نبوَّته ﷺ، لأنَّ إثبات نبوَّته، يكفيه القرآن العظيم وزيادةً، كما قال تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

وإنما حكمة تلك المعجزات الثانوية لرسول الله ﷺ ـ حسبما أرى ـ تَتَمَثَّل في أشياء، أهمّها:

أ ـ زيادة تكريمٍ من الله تعالى لنبيِّه الخاتم ﷺ.

ب - لكي يزداد الصحابة الكرام ﷺ إيماناً، وتَثْبُتَ قلوبُهم أكثر فأكثر خصوصاً، والأجيال المؤمنة الآتية من بعدهم عموماً.

ج - حَلُّ بعض الأزمات والمشاكل التي كانت تواجه المجتمع الإسلامي الأول والدَّولة الإسلامية الأولى، في أوقات عصيبة.

وهذه إشارة إلى بعضٍ من تلك المعجزات حسبما تُسْعِفُني بها الذاكرة كما قلت من قبل، وأشير إلى رواتها ومصادرها في الحاشية:

١) **تكثير الطعام القليل، وهذا حدث أكثر من مَرَّةٍ، إحداها في بيت أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه[١].**

٢) **نبع الماءِ من بين أصابعه الشريفة، كما حدث هذا في واقعة الحديبيَّة، بعد أن نَفَد ماءُ الجيش، ووقعوا في ضيق من شُحَّة الماء، وكذلك تكرَّر هذا في وقائع أخرى[٢].**

٣) **الدعاء بنزول المطر وهطوله حالاً، بعد أن شكى إليه الناسُ الجَدْبَ وقِلَّةَ الماء، واستمر المَطَرُ أسبوعاً إلى أن شكى إليه الناسُ كثرةَ الماءِ وتضرُّرَهم به، فدعا ثانيةً على المنبر وقال: (اللّهم حوالينا ولا علينا) فانقطع المطر[٣].**

٤) **حنين الجِذْعِ الذي كان يخطب عليه، لما صُنِعَ له مِنْبَرٌ فتحوّل عليه، فَحَنَّ الجِذْعُ حتى سمِعَه كل من كان في المسجد له صوت العِشار، أو الطِّفل المشتاق لِأُمِّه، إلى أن نزل عن المنبر ﷺ ومسَّه بيده المباركة، فسكت[٤].**

---

(١) كما في (صحيح البخاري): (١٠١٣ و٣٥٧٨)، و(صحيح مسلم): (٨٩٧ و٢٠٤٠).

(٢) كما في (صحيح البخاري): (٣٥٧٢ إلى ٣٥٧٩)، و(صحيح مسلم): (١٨٥٦ و٢٢٧٩ و٣٠١٣).

(٣) رواه البخاري: ١٠١٣، ومسلم: ٨٩٧.

(٤) رواه البخاري: ٣٥٨٣، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥، والعِشارُ جمع عُشَراء، وهي الناقة الحامل التي مَضَتْ على حَمْلها عشرة أشهرٍ.

٥) شكوى البعير لديه بسبب ظلم مالكه له ومحاسبته إِيّاه، وإقرار الرجل بِذَنْبه، وتوبته من فعلته تلك[١].

٦) الدعاء على (عُتَيْبة بن أبي لَهَب) لمّا آذاه فدعا عليه بقوله: (أَللّهم سَلِّطْ عليه كلْباً من كلابك) فأكَلَهُ الأَسَدُ وهو في وسط أصحابه في سفرهم التجاري إلى الشام[٢].

٧) دعاؤه لـ(زنيرة) رضي الله عنها وكانت جارية فَعَمِيَتْ فَشَمَّت بها المشركون وقالوا: أصابتك آلهتنا، فدعا لها النبيُّ ﷺ فردَّ الله بصرها[٣].

٨) دعاؤه لِقَتادة بن النعمان رضي الله عنه، لما خَرَجَتْ عيْنه اليمنى بسبب سَهْم أصابها، فوضعها على كفِّه، فدعى له ﷺ وردَّ العَين إلى مكانها، فَشُفِيَ وكانت أَحَدَّ عينيه![٤].

٩) تَفْلُهُ في عَيْنَي (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه وبرؤهما مِمّا بهما من المرض في الحال، وذلك في غزوة خيبر لما سلّمه الراية وفُتِحَ على يديه[٥].

١٠) انجبار الرِّجل المكسورة بعد مَسْحِهِ ﷺ إيّاها، كما حدث لـ(عبدالله بن عتيك) حيث انكَسَرَتْ رِجْلُهُ في حادثة اغتيال (أبي رافع عبدالله بن أبي الحقيق)[٦].

١١) موت (أبي بن خَلَفْ) بعد أن توجّه إلى رسول الله ﷺ في غزوة (أُحد) قائلاً: (لا نَجَوْتُ إنْ نَجَوْتَ يا محمَّد)، فقال رسول الله: «بل

---

(١) كما في (مسند أحمد) و(شرح السنَّة) للبغوي، وصَحَّحهُ الألباني في (المشكاة): ٥٩٢٢.

(٢) كما في (مجمع الزوائد) و(الدلائل) لأبي نعيم، ومستدرك الحاكم، وحَسَّنَهُ الحافظ ابن حجر.

(٣) كما في سيرة ابن هشام، ج١، ص٣٤٠.

(٤) كما في (المستدرك والإصابة وأُسْدُ الغابة) ترجمة: قتادة.

(٥) رواه البخاري: ٣٧٠١، ومسلم: ٢٤٠٤.

(٦) رواه البخاري: ٤٠٣٨، ٤٠٣٩.

أنا أقتلك إن شاء الله»، ثم لما قذف بحربته إلى رسول الله ﷺ، أخذ حربته ورماه بها، فأصابت تَرْقُوَتَهُ فَجُرِحَ، فكان يصيح مِلأَ الوادي مِمّا به من الأذى، ولما عاتبه أصحابُهُ وقالوا له: ما بك من بأس إنما هو خدشٌ، قال: والله لو أن ما بي من الألم كان بأهل ذي المجاز لماتوا جميعاً، وكان يقول: سأموت، أولم يقل (محمَّد): (بل أنا سأقتلك إنْ شاء الله) والله لو تَفَلَ فيَّ لقتلني![1].

١٢) حفظ الله تعالى له من محاولات اغتيال الكفار، وإحداها:

«أن رجلاً من (محارب) يقال له غورث بن الحارث، قال لقومه: أقتل لكم محمَّداً، فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالِسٌ وسيفه في حِجْره، فقال يا محمَّد! أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم، فأخذه فاستلَّه وجعل يهزّه ويَهِمُّ به فيكبته الله تعالى، فقال يا محمَّد! أما تخافني؟ قال: لا، قال: أما تخافني والسيف في يدي؟! قال: لا، يمنعني الله منك، ثم غَمَد السيف وردّه إلى رسول الله ﷺ»[2].

١٣) دعاؤه على رجلٍ مُتكبِّرٍ يأكلُ بشمالِهِ في حضرته، فقال له ﷺ: كُلْ بيمنك، فقال الرجلُ: لا أستطيع، قالها تكبّراً، فقال له: (لا استطعت) فَيَبُسَتْ يَدُهُ ولم يَرْفَعْها إلى فَمِهِ مرةً أخرى[3].

١٤) دعاؤه لـ(عبدالله بن عباس) رضي الله عنهما بقوله: (أَللَّهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّين) فصار من أعلم الصّحابة المعدودين ببركة دعائه ﷺ[4].

١٥) إنباؤه ﷺ بأنّ أمته سيفتحون من بعده قصور (الحيرة) و(مدائن

---

(١) رواه الحاكم عن سعيد بن المسيِّبْ عن أبيه، (لباب النقول) ص١٢٣، رقم: ٤٢٤. ورواه الطبري في (التفسير) (١٣٧/٩)، والواحدي في (أسباب النزول) ص١٣٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري: ٤١٣٩، وصحيح مسلم: ٤٢، و(دلائل النبوَّة)، (١٦٨/٣) و(سنن سعيد بن منصور): ٢٥٠٤، و(المصنف) لأبن أبي شيبة، (٨/١١)، ولباب النقول، ص١٠٠، رقم: ٣٤٨ و٣٤٩.

(٣) رواه مسلم: ٢٠٢١.

(٤) كما في صحيح البخاري: ١٤٣، ورواه مسلم برقم: ٢٤٧٧.

كسرى)، و(القصور الحُمر) من أرض الروم، وقصور (صنعاء)، وتحقق نبؤه بعد سنوات من وفاته، في زمن خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﵄.

وقد وردت بهذا الصّدد عدة روايات هذه إحداها:

عن عبدالله بن عمرو المزني عن أبيه عن جدّه قال: خطَّ رسولُ الله ﷺ الخندق عام الأحزاب، فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدوَّرة (استعصت على الصّحابة) فأخذ رسولُ الله المِعْول فضربها ضربةً صَدَعها وبَرِق منها بَرْقٌ أضاءَ ما بين لابَتَيْ المدينة، فكبَّر وكبَّر المسلمون، ثم ضرب الثانية فصدعها وبرق منها بَرْقٌ، أضاءَ ما بين لابَتَيْها، فكبّر وكبَّر المسلمون، ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرق منها برق أضاءَ ما بين لابَتَيْها، فكبَّر وكبَّر المسلمون، فسُئِل عن ذلك، فقال:

«ضَربْتُ الأولى، فأضاءت لي قصورَ الحيرة ومدائن كِسْرى، وأخبرني جبريلُ أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربتُ الثانية، فأضاءت لي قصورَ الحمر من أرض الروم، وأخبرني جبريلُ أن أمّتي ظاهرة عليها. ثم ضربتُ الثالثة، فأضاءت لي قصورَ صَنْعاءَ، وأخبرني جبريل أن أُمّتي ظاهرة عليها».

فقال المنافقون:

ألا تعجبون! يحدِّثكم ويُمَنِّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يُبْصِرُ من يَثْرِبَ قُصورَ الحيرة ومدائن كِسْرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تفتحون الخندق من الفَرَقِ، لا تستطيعون أن تبرَّزوا، فنزل القرآن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب][1].

١٦) تسبيح الطَّعام بين يَديْهِ[2].

(١) أخرجها ابن أبي حاتم والبيهقي في (دلائل النبوَّة)، أُنظر: (لباب النقول) ص٢٠٦، رقم: ٧٢١، وانظر: (صحيح مسلم): ٢٨٨٩.

(٢) رواه البخاري: ٣٥٧٩.

١٧) قوله لسبطه: (الحسن بن علي بن أبي طالب) رضي الله عنهما وهو طفلٌ يمشي في المسجد ويتعثر في ردائه: (إبني هذا سَيِّدٌ ولعلَّ الله أن يُصْلِحَ به بين فئتين من المسلمين)، وقد تحقق هذا النبأ عندما صالح (الحسنُ) رضي الله عنه ـ حِقْناً لدماءِ المسلمين أن يسفك المزيد منها في قتال داخلي ـ (معاوية بن أبي سفيان) عفا الله عنه، في سنة (٤١) من الهجرة، وسُمِّي ذلك العام (عام الجماعة)[١].

١٨) الحيلولة بينه وبين (سُراقة بن مالك) وكان يطارده هو وأبا بكر رضي الله عنه، في هجرتهما إلى المدينة، وبعد أنْ سقط (سراقة) عن فرسه ثلاث مرات، عَلِمَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ممنوع منه، فَطَلب منه الأَمان[٢].

١٩) قوله لـ(خبّاب بن الأرت) رضي الله عنه لما شكى إليه حالَهُ وحالَ المسلمين المضطهدين بيد المشركين في (مكة): بأن الله تعالى سَيُتِمُّ أمْرَ الدين، حتى يأتي زمانٌ يَسْتَتِبُّ فيه الأَمْنُ ويَعُمُّ فيه السِّلْم في ظل حكم الإسلام، بحيث يسير (الراكب) من صنعاء إلى حضرموت وحده لا يخاف سوى الله تعالى، وتحقق ذلك في زمن خلفائه الراشدين رضي الله عنهم[٣].

٢٠) دعاؤه لأنس بن مالك رضي الله عنه بتكثير مالِهِ وولده، وصيرورته أكثر الأنصار نَخْلاً وأكثرهم ولداً، حيث ولِد لَهُ مائة وعشرون ذكراً لِصُلْبِهِ، كما رواه البخاري ومسلم[٤].

٢١) إِنشقاق القمر له، عندما سأله كُفّارُ مكةَ، أن يريهم آيةً[٥]:

---

(١) (رواه البخاري): ٣٧٤٦.

(٢) كما في سيرة ابن هشام، ج٢، ص١٣٤، ١٣٥، ورواه البخاري: ٣٩٠٦، ومسلم: ٢٠٠٩.

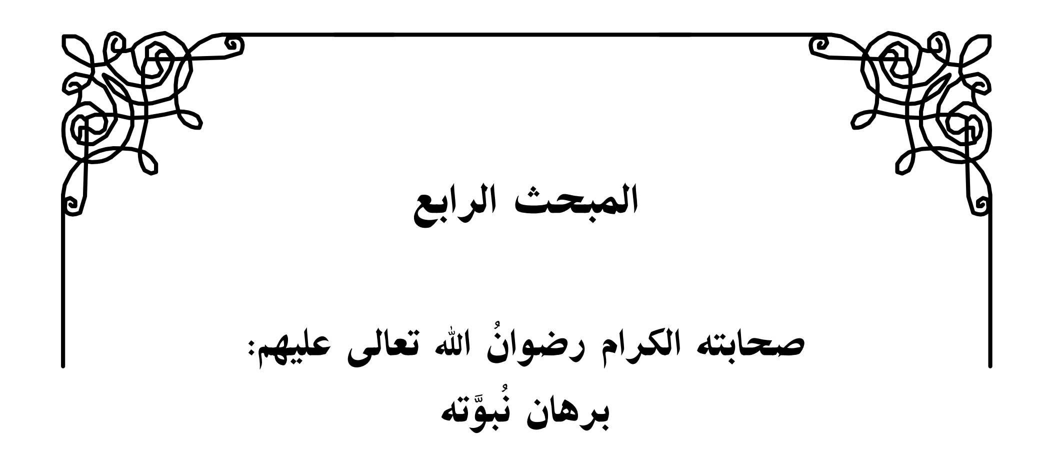
(٣) كما في (صحيح البخاري): ٦٩٤٣.

(٤) (صحيح البخاري): ١٩٨٢، وصحيح مسلم: ٢٤٨١.

(٥) رواه البخاري عن كل من (ابن مسعود وأنس بن مالك) رضي الله عنهما: ٣٣٦٥ و٣٥٧٩. كذلك رواه مسلم عن ابن مسعود: ٦٤٠، ورواه الترمذي عن أنسٍ، أنظر: (صحيح وضعيف سنن الترمذي) للألباني: ٣٢٨٩ وقال الألباني: صحيح.

وبهذا نختم الحديث عن كيفية دلالة شخصيّة خاتم النبيين وسيِّد المرسلين ﷺ، على نبوَّته الخاتمة ورسالته الشاملة اللَّتين أكرمَه الله تعالى بهما، وننتقل إلى برهانٍ آخر:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الرابع

صحابته الكرام رضوانُ الله تعالى عليهم: برهان نُبوَّته

الصّحابة الكرام ﷺ رجالاً ونساءً، هم برهانٌ آخر من براهين نبوَّة محمَّد ﷺ ورسالته، ولمعرفة كيفية دلالة الصّحابة رضوان الله عليهم على نبوَّة خاتم الأنبياء، لنتأمَّلْ أولاً هذه الآيات المباركات كأمثلة لما ورد في كتاب الله الحكيم في شأنهم، ثم نُتْبِعُ ذلك بتعليق مختصرٍ على الآيات، لبيان كيفية دلالتها على المطلوب:

١. ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

٢. ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح].

٣. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

٤. ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

٥. ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة].

كما نرى: وَصَفَ الله تبارك وتعالى صحابةَ رسولِ الله ﷺ عموماً، والمهاجرين والأنصار منهم خصوصاً، بأوصافٍ جليلةٍ، يمكننا استخلاصها في البنود الثلاثة والعشرين الآتية، وذلك حسب ترتيب ورودها في الآيات المدرجة أعلاه:

١) **الشدَّة على الكفّار: (أي في المواجهة والقتال):** ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

٢) **التراحم والتعاطف بينهم:** ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣) **كثرة الركوع والسجود (والمقصودُ بهما إقامة الصَّلاة):** ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

٤ و٥) **جَعْلُ فَضْلِ الله ورضوانِه الغايَةَ العُليا في الحياة (والمقصود بفضل الله هو ثوابُه المتمثِّل في جَنَّته):** ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

٦) **الإتِّسام بسيما العبادة والصّلاح:** ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٧) **تقويتهم لرسول الله ﷺ ونصرهم ومؤازرتهم له:** ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾، **حيث شُبِّه رسولُ الله ﷺ بالشجرة الطيِّبة، والصّحابة ﷺ بفروعها المتفرِّعةِ عنها أولاً، والمساندة لها والمقوِّية لها ثانياً.**

٨) **الإعتماد على الذات، والوقوف على القدمين، بعد التوكل على الله تعالى:** ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾.

٩) **رضا الله تعالى عنهم، وفَرَحِهِ بهم:** ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ إذْ لم يك مُنْبِتُ تلك الشجرة الطيِّبة وزارِعُها، سوى رب العالمين جلّ شأنه.

١٠) **إغاظتهم للكفّار:** ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾، وإنّما يبغضهم الكفرة لأنَّهم قاموا أَحسن قيام بِرَفْع راية دين الله الحق، وإخضادِ شوكة الكفر المتمثّلة في سلطة الطواغيت!

فهذه عشرة أوصاف جليلة في الآية (٢٩) من (الفتح)، لمن ساروا ويسيرون في ركاب رسول الله (محمَّد بن عبدالله) ﷺ وفي مقدِّمتهم صحابته الكرام ﵃، إذ هم المقصود الأول والأهم في الآية الكريمة، وان كان مفهوم: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ شامِلاً لكلِّ مَنْ يكون مع رسول الله ﷺ، وان تباعدت الأزمان والأمكنة، إذ المعيّة المقصودة في الآية هي: معيّة إيمانٍ واتِّباعٍ وولاء ونصرة.

١١) **كونهم مَرْضيين لله تعالى:** ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ والمقصود بهم هنا هم (١٤٠٠) صحابياً الذين بايعوه على القتال في سبيل الله، قُبَيْلَ إنجاز صلح الحديبية عام (٦) للهجرة بعد أن سمعوا بأن المشركين قد قتلوا (عثمان بن عفّان) ﵁، سفير رسول الله إلى قريش.

ولكن في الآية (١٠٠) من (التوبة) أعلن سبحانه أنّه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين يتَّبعونهم اتِّباعاً حسناً جيّداً: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ...﴾.

ولا شك أن مفهوم هذه الآية شامِلٌ لكل الصحابة الكرام الذين وصفوا بالمهاجرين والأنصار، الذين سبقوا غيرَهم في الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد، فكانوا الأسبق والأول بِالنِّسبة إلى سائر الصحابة رضي الله تعالى عن الجميع.

١٢) إستقرارُ ما يحبّه الله تعالى في قلوبهم، من الإيمان وثماره المباركة: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

١٣) نزول السكينة على قلوبهم: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

١٤) إثابة الله تعالى إيّاهم الفَتْحَ والنَّصْرَ: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا﴾.

١٥) إنالته إيّاهم المغانِمَ الكثيرة: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

وهذه خَمْسُ أوصافٍ أُخرى في الآيتين (١٨، ١٩) من (الفتح) والآية (١٠٠) من (التوبة).

١٦) الهجرة وترك الديار والأموال في سبيل الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾.

١٧) نَصْرُ دين الله تعالى وطريقَةِ رسوله الكريم ﷺ: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

١٨) الإتّصاف بالصدق قلْباً وقولاً وفِعْلاً: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

١٩ و٢٠) إيواءُ المهاجرين في سبيل الله، وبذل النُصْرة والحُبِّ لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

٢٠) عدَمُ الحَسَد تجاه إخوتهم المهاجرين، بسبب ما ينالونه من مساعدة القيادة، كتعويضٍ لبعض ما فاتهم بسبب الهجرة: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾.

٢١) الإيثارُ مع شدَّةِ الحاجة: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وهذه سبعةُ أوصافٍ أُخرى في الآيتين (٨، ٩) من (الحشر).

٢٢ و٢٣) الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

وهذان وصفان آخران لهم في الآية (٨٨) من (التوبة).

والمجموع ثلاثة وعشرون وصفاً.

والآن نتساءَل:

كيف ومن أين اكْتَسَبَ أصحابُ رسول الله ﷺ، كُلَّ هذه الأوصاف الحميدة والمزايا الفريدة الشاملة لجميع جوانب التديّن الفردي والجماعي؟!

أَوَليس من يد رسول الله المباركة، صاحبهم الوفي، وإمامهم الشفيق، وأستاذهم النّاصح، وقائدهم القدير، الذي تلا عليهم آياتِ الله فزكّاهم وعلَّمهم الكتاب والحكمة! بلى، إذاً:

أَوَليس هذا الجيل المبارك الفريد، في معرفته وإيمانه وعبادته وتقواه وخُلُقه الحسن، وهجرته ونصرته لدين الله، وجهاده في سبيله بالنفس والنفيس...الخ، بُرهاناً عظيماً على نبوَّة خاتم الأنبياء ﷺ؟! بلى والله الذي لا ربَّ سواه.

ومَنْ يقرأ بإمْعانٍ تاريخ المفكِّرين والفلاسفة والمصلحين الكبار ـ سوى الأنبياء عليهم السلام ـ على امتداد تأريخ البشرية، ثم يقارن ما أنجزوه من تأثير وإصلاح في مجتمعاتهم، بما أنجزَه (محمَّد بن عبدالله) رسولُ الله العظيم ﷺ، من تغيير جذري هائل وشامل، في عقول الجيل المؤمن الأول وقلوبهم، والنقلة الشاسعة التي نقلهم، والإصلاح العميق الكامل الذي أحدثه في كافة جوانب حياتهم الشخصية والأسرية والجماعية، حيث حوَّلهم من الحالة البائسة والتعيسة التي كانوا فيها[1]، حيث لم يَكن العالم آنذاك يَحْسِبُ

(١) ولكي نطَّلع على شيء من ذلك الواقع المرير الذي كان العرب ـ وكذلك سائر شعوب العالم ـ يعيشونه، قبل اهتدائهم بهدى الله على يد رسول الله ﷺ! لنستمع إلى طرفٍ من الحوار الذي جرى بين (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه مُمَثِّل المسلمين المهاجرين إلى (الحبشة) وبين (النجاشي) ملك الحبشة، كما جاء في (سيرة ابن هشام):

«...**فقال لهم النجاشيُ: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحدٍ من الملل؟!**

قال جعفر بن أبي طالب:

أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهليةٍ، نَعْبُد الأصنامَ، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، =

لهم أي حساب ولا يُعيرهم أيَّ اهتمام، إلى أمة فريدة تأخذ بزمام التأريخ وتوجِّهه الوجهة التي حدَّدها لها دينُها الذي ارتضاه الله لها: ﴿... وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ...﴾ [المائدة: ٣]، وفي أقل من نصف قرنٍ من الزمان، تُطبِّع أكثر من ثلث البشرية بِطابِعها وتُصبِّغُها بصبغتها، من:

المعرفة الصَّحيحة بالخالق والخلق، والإيمان بالله تعالى وبما أمر الله تعالى أن يؤمَنَ به، والتعبّد لله تعالى بالمفهوم الشامل للعبادة، والأخوّة، والعدل، والعِزّة والحرية، والصّدق والأمانة، والكَرَم، والشجاعة، والعِفّة، والنّزاهة، والرزانة، والرفق، والرّحمة... إلخ، نعم مَنْ يُجري مقارنة بين ما فَعَلَهُ (محمَّدٌ) ﷺ من تغيير وانقلابٍ وإصلاحٍ مبارك في مجتمعه، وبين ما قام به غيره من إصلاح أو محاولة للإصلاح، لا يتردَّدُ لحظةً أن يَعْزو ذلك التغيير الجذري، والإصلاح المبارك العظيم العميق الشامل والإنقلاب المدهِش، إلى نور الوحي وتأثيره الخارق المُعْجِز، من تحويل الإنسان فرداً ومجتمعاً من أَبْأَسِ حالَةٍ إلى أفضلها، ومن أَتْعَسِها إلى أَسْعَدِها.

ثم إن أصحابَ رسول الله ﷺ، وخاصة الذين طالت صُحْبَتُهُم مع رسول الله ﷺ، من المهاجرين والأنصار السابقين، كان الواحد منهم أمة وحده وكأنّه ـ كما قيل فيهم ـ قرآن حيّ يمشي على الأرض، وكان الواحد منهم يَسْتَقِرُّ في مدينة أو بلدة، فَما يَلْبَثُ أن يُحيي مَن حوله ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فهذا ـ مثلاً ـ (مُعاذ بن جبل) ﷺ وجَّهه رسولُ الله ﷺ إلى اليمن، وإذ يُحْدِث فيهم في مدة قصيرة تحوّلاً عميقاً شاملاً، وجعل المجتمع اليمني:

= **ونقطع الأرحام، ونُسِيءُ الجِوارَ، ويأكل القوي مِنّا الضّعيف، فكنّا على ذلك حتّى بعث الله إلينا رسولاً مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ وأَمانته وعَفافَهُ، فدعانا إلى الله لِنُوَحِّده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداءِ الأمانة وصلة الرّحم وحسن الجوار والكفِّ عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزّور، وأكل مال اليتيم وقذفِ المُحْصَنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نُشْرك به شيئاً...»**، (سيرة ابن هشام)، ج١، ص٣٥٩، ٣٦٠.

ينبذ الجَهْلَ والخُرافة، ويتحلَّى بالعلم والمعرفة.

ويَرفُضُ الشرك، ويحقق التوحيد.

ويُبدِّل الظلم بالعدل

والتناحر بالتآلف

والفساد بالصَّلاح. . . إلخ.

وكذلك الصّحابة الآخرون الذين استقرّوا فيما بعد بالشام ومصر والبصرة والكوفة وخراسان. . .، إذ أحدث كلٌّ منهم فيما حولَه ذلك التغيير والإصلاح المبارك الشامل، الذي نَعِمَتْ به البشريَّةُ وبظلاله وآثاره وتأثيراته المُمْتدَّة قروناً وأجيالاً، وما يزال صَداهُ يَرِنُّ في الآذان.

ثم إن أروعَ ما في تديُّن الصّحابة الكرام ﵃، وكيفية التزامهم بدين الله الحق، هو ذلك الإتِّزان الدقيق، الذي تعلَّموه ككل شيء حسن آخر من نبيِّهم ﷺ، حيث تراهم مستمسكين بكتاب الله ومُتَّبِعين لرسول الله ﷺ في كل المجالات وجميع الجوانب، من دون إفراطٍ أو تفريط، فيوازنون بين مطالب الروح والجسد، ومقتضيات الحياة الدنيا ومتطلّبات الحياة الأخروية، ويراعون النِّسب الدقيقة بين الواجبات العينية الشخصية، والكفائية الجماعية، ولا يَشْغُلُهم طَلَبُ المعاش في الدنيا، عن الإستعداد للحياة الأخرى.

وخلاصة القول:

أن الصَّحابة الكرام ﵃ عموماً، والخواص منهم خصوصاً، كالخلفاء الراشدين الأربعة ونُظرائهم، بما أنهم:

بكل ما تجلَّى فيهم من نور المعرفة والإيمان والعبادة والتقوى والعدل والعلم وسائر الفضائل، لم يكونوا سوى جداول استمدَّتْ ماءَها من بحر النبوَّة الأعظم، بدليل أنَّهم لم يكونوا قبل اهتدائهم واتِّصالهم بنور النبوّة، سوى أشخاصٍ عاديّين، لا تعرفهم سوى مجتمعاتهم القَبَلية الصغيرة، ولكن ما أن اتَّصلوا بنور الوحي، وتنوَّرَتْ عقولُهم وقلُوبُهم به إلّا وأصبحوا:

أساتذة في العلم والمعرفة والحكمة.

وأئمة في الإيمان والعبادة والتقوى.

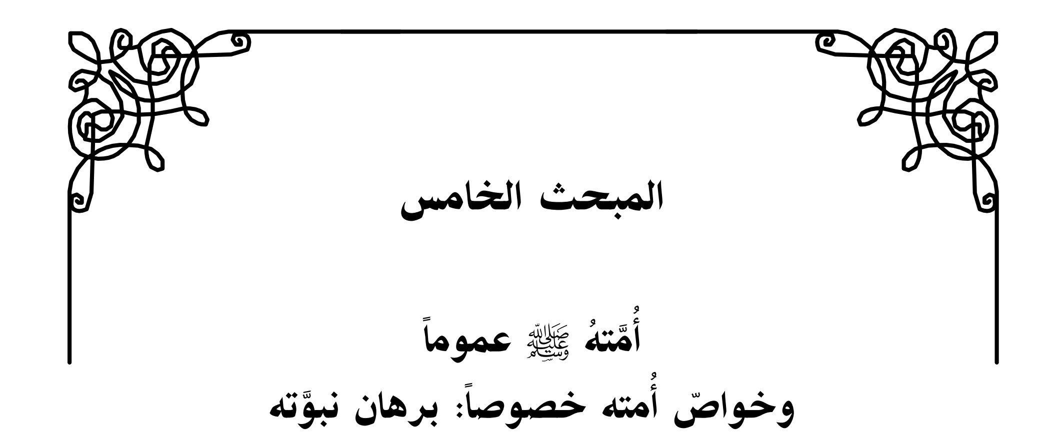
وقادة في السياسة والحكم.

وأبطالاً في الجهاد والحرب.

وصاروا ذووا شأنٍ يُحْسَب لهم ألف حساب، على مستوى دول العالم الكبرى آنذاك، لِذا: يُعْتبرون أفراداً ومجموعاً برهاناً على نبوَّة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسَّلام، إذْ كانوا غِرْسَهُ المبارك الذي آتى ثِمارَه الطيِّبة بأفضل ما يكون.

وننتقل إلى البرهان الخامس والأخير وليس الآخر، على نبوَّة خاتم النبيِّن وسيِّد المرسلين ﷺ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الخامس

أُمَّتهُ ﷺ عموماً
وخواصّ أُمته خصوصاً: برهان نبوَّته

قال الله تبارك وتعالى مُخاطِباً أُمَّة النبيِّ الخاتم والرسول الأكرم ﷺ:

١. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [البقرة: ١٤٣].

٢. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

وصف الله تعالى أمة النَّبيِّ الخاتم ﷺ، في هذه الآيات بأوصافٍ أَهمُّها: هذه الأوصاف الإثني عشر المدرجة أدناه:

أولاً: إنّها معتدلة تتجنَّب الإفراط والتفريط: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

ثانياً: إنّها شاهِدة على البشرية: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وقد

فسَّر كثير من المفسّرين أو أكثرهم هذه الجملة، على أن المقصود بها هو شهادة الأمة الإسلامية على الناس يوم القيامة، بأنَّهم قد بلَّغوهم دين الله الحق، ولكن يبدو أن المقصود بالشهادة هنا هو شهادة الأمة الإسلامية على البشرية في هذه الدنيا، من خلال التزامها بدين الله وتحقيق الحياة الطيِّبة اللائقة بالإنسان فرداً ومجتمعاً لنفسها، بحيث تكون حُجَّةً على البشرية، بأن الإسلام هو وحده الدين الحق والمنهاج المستقيم.

والدليل على هذا هو أن الله تعالى قَرَن شهادَةَ الأمة الإسلامية على البشرية، في كلّ من الآية (١٤٣) من (البقرة) والآية (٧٨) من (الحج) بشهادة رسول الله ﷺ على أمته، وقد ثبت في (صحيح مسلم) أن رسول الله ﷺ قال في (حجة الوداع) في السنة العاشرة للهجرة، وذلك في خطبته الجامعة بعرفات، بعد أن بلّغهم أموراً كثيرة من أساسيات دينهم:

«وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟! قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا، إِلَى النَّاسِ، وقال ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٢١٨)).

هذا ولا مُنافاة بين أن تُؤَدّى كُلٌّ من شهادة الرسول على أمته، وشهادة أمته على البشرية في كلتا الدارين، ولكن الشهادة الدنيوية هي الأهم، إذ الشهادة الأخروية مترتبة عليها، ومن لم يؤدِّ شهادته الدنيوية كما يَنبغي، فهو يُحاسب عليه يوم القيامة، ولهذا أَشْهَدَ رسولُ الله الحكيم ﷺ أصحابَهُ ﷺ، ومِنْ خلالهم المسلمين كُلَّهُمْ على أنفسهم، بأنه ﷺ قد أدّى واجبه كاملاً تجاههم.

ثالثاً: إنّها خير أمة وأفضلها على مستوى البشرية كلها، وعلى مدار تاريخها كلِّه، أخرجها الله تعالى للناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

والمقصود بـ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وإن كان بالدرجة الأولى والأساس هو

جيلَ الصَّحابة المخاطَبَ الأول بالقرآن العظيم، ولكن لا شك أن مفهوم ال(أمة) شامِلٌ للأمة الإسلامية كُلِّها بجميع أجيالها، وفي جميع أدوارها التاريخية، كل جيل بقدره، وفي كل دورة بحسبها.

رابعاً: والأوصاف المشترطة لخيرية الأمة الإسلامية هي: الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾.

إذاً:

كون الأمة الإسلامية خير الأمم وأفضلها في تاريخ البشرية مُتَأسِّسٌ على اتِّصافها بكل من: الإيمان بالله تعالى، والأمر بالمعروف بالمفهوم الواسع لكلمة (المعروف)، والذي يشمل على ما هو نافع وصالح في جميع مجالات الحياة الفردية والجماعية، والنهي عن المنكر، بالمفهوم الواسع لكلمة (المنكر) الشامل لكل ما هو ضارٌّ وسيء في جميع مجالات الحياة.

وقد فصَّلنا القول في الفصل الأول والثاني من هذا الباب ـ أي الكتابين الثاني والثالث ـ في توضيح معنى الإيمان بالله تعالى، كما وسنتحدَّث عن موضوع الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، في المبحث الثالث من الفصل الثاني من الباب الثالث ـ أي الكتاب الحادي عشر ـ بإذن الله تعالى.

وإنما أُخّر الإيمان بالله في الآية، عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ حسبما أرى ـ، للتنبيه على أن الإيمان الحق يُثْمِرُ في صاحبه الوقوفَ مع المعروف، عامِلاً به وآمراً به، وكذلك يُثْمِرْ فيه الوقوفَ ضدّ المنكر، رافضاً له وناهياً عنه، وأَنّ مَنْ لم يُثْمِرْ إيمانُهُ فيه هذه الثمارَ، فإيمانُهُ بِمَعْزِلٍ عن أن يكون الإيمان المطلوب شرعاً، والمرضيَّ لله تعالى.

خامساً: ومن الأوصاف الأساسية للأمة الإسلامية: الركوع والسّجود وعبادة الله وفعل الخير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج].

والركوع والسجود هما أهم ركنين من أركان الصلاة، وتتجلّى فيهما عبودية الإنسان لله بأتم صورها.

وعبادة الله تعالى مفهومُها شامِلٌ لكل ما يقوم به الإنسان من نشاطات وأعمال قلبية وقولية وبدنية، وفردية وأسرية وجماعية، كما بيّنّاهُ تفصيلاً في الفصل الثاني من هذا الباب ـ أي الكتاب الثالث ـ.

وبناءً عليه:

فمفهوم ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ شامِلٌ لـ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾، لكن ذكره بعده، من باب (ذكر الخاص بعد العام) تنويهاً بشأنه.

سادساً: وكذلك من أوصاف الأمة الإسلامية، الجهادُ في الله تعالى حق الجهاد: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ والجهاد: هو بذل الوُسْع[1]، والجهاد في الله تعالى حق جهاده، هو استفراغ الوسع وبذل كل الجهود في سبيل الله ونيل مرضاته، وذلك من خلال الإيمان بالله تعالى وبما أمر أن يُؤمَنَ به، وعبادته وتقواه، ثم الدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد بالمال والنفس... إلخ.

سابعاً: والأمة الإسلامية هي أمة مختارة من قبل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، ومن الواضح أن صفة المختارية، تَنْسَحِبُ على كل مجتمع وجيل من مجتمعات وأجيال الأمة، بَلْ وكل فردٍ منها على حِدَةٍ، بقدر الإتّصاف بالأوصاف المشترطة لحصول الخيرية.

ثامناً: ودين الأمة الإسلامية والذي هو دين الله الحق الذي ارتضاه للبشرية (الإسلام)، لا يَجدُ أَتباعُهُ فيه أي حَرَج، ولا يشعرون بأيِّ ضيقٍ في تديّنهم به: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾.

وسبب هذا هو أن الإسلام (دين الله الحق) مُتطابقٌ مع الفطرة السَّليمة التي فطر الله تعالى عليها البشر، تمام المطابقة، كما بينّا ذلك في عدة مناسبات.

---

(١) مختار الصحاح، ص١١٤.

تاسعاً: والطريقة التي تسير عليها الأمة المحمَّدية في التديّن والتعبد لله تعالى، هي نفس الطريقة التي سار عليها أبوهم الكريم (إبراهيم) خليلُ الله ﷺ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ومعنى كلمة ﴿مِّلَّةِ﴾ قريب أو متطابق مع معنى كلمة (سنة) بمفهومها الدّارج والوارد في بعض الأحاديث الشريفة، كما في قوله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أجْرُهَا، وَأجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٤٦)).

عاشراً: والإسم الوحيد الذي أَطْلَقَهُ الله تعالى على عباده المؤمنين الصالحين على مدار التاريخ، سواء في القرآن العظيم أو قبله في الكتب السابقة، هو: (المسلمون): ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾.

أجلْ، إن اسم أتباع (محمَّد) ﷺ واسم أمته هو: (المُسْلمون) وكذلك كان هو الإسم الذي تسمَّى به كل الأنبياء عليهم السلام وأممهم في السابِق، كما بينّاه في نهاية الفصل الأول من هذا الباب ـ أي الكتاب الثاني ـ، كما أن الدين الوحيد الذي ارتضاه الله تعالى وحدّده لهذه الأمة المحمدية الخاتمة للأمم، وكذلك لكل الأُمم السابقة، هو الإسلام: ﴿... وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴾ [المائدة: ٣].

وبناءً عليه:

فأمة (محمَّد) ﷺ وأَتْباعُهُ (مُسْلمون)، من حيث الإسم الشَّخْصيِّ، و(إسلاميّون) من حيث الإنتساب المنهاجيِّ، وهذان العنوانان هما العنوانان الأساسيان البارزان، اللّذان يجب على كل المُنْضَوين تحت لِواء «**العبودية لله تعالى والتَّبعيَّة للنبي الخاتم**» ﷺ أن يستمسكوا[1] بهما للتعريف بأنفسهم،

---

(١) من الواضح أنه لَيْس المقصود باسم (الإسلاميّ)، هنا: الإنتماء إلى تنظيم إسلامي مُعيَّن، بَلْ المقصود به أنه لا يجوز لِمَنْ يريد أن يكون أو يظلَّ مُسْلِماً، أن يُطْلِقَ على نفسه اسماً يفهم منه انْتماؤه لغير الإسلام، من الأديان والمناهج الباطلة، فلا يجوز مثلاً أن يقول: أنا علمانيّ الإتجاه، أو ليبرالي، أو إشتراكي... بل يجب أن يُعْلِنَ بوضوح بأنه إسلامي المنهاج وإسلامي الإتجاه، إذ كلّ مسلم ارتضى الإسلام ديناً، فهو إسلامي الإتجاه، وان لم ينتم إلى تنظيمٍ إسلاميٍّ معيَّن.

ولا يرضوا بهما بدلاً أبداً، إذا ما أرادوا أنْ يظلّوا باقين في دائرة الأمة المحمَّدية.

حادي عشر: إن إقامة الصلاة وإيتاء الزَّكاة، هما شعيرتا الأمة الكبريان الروحية والمادّية: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

والأمة الإسلامية عندما تقيم الصلاة حق الإقامة، وتؤتي الزَّكاة حق الإيتاءِ، تكون عابدة لربِّها ومتعاونة فيما بينها، وبسط القول في هاتين الشعيرتين العظيمتين اللتين أكثر سبحانه من ذكرهما في كتابه مقترنتين دَوْماً، يحتاج إلى مَجالٍ آخر.

ثاني عشر: والإعتصام بالله تعالى في كل الأمور وفي جميع الأحوال هو السِّمة الأساسية والعامة للأمة الإسلامية، وهو يضمن لها موالاة الله تعالى لها: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

والإعتصام بالله تعالى يُرادُ به ـ حَسْبَما يبدو ـ التوكّل عليه وتفويض الأمر إليه والثقة به والإطمئنان إليه، وكذلك يُراد به التمسّك بكتابه ودينه والإقتداءُ بنبيِّه ﷺ الهادي إليه عزّ وجلّ، والإعتصام هو: التمسُّكُ والإستمساكُ بما يحفظ الإنسانَ من السقوط والزّلل.

إذاً: هذه اثنا عشر وَصْفاً مِمّا وصف الله تعالى به أمة خاتم الأنبياءِ (محمَّد) ﷺ في هذه الآيات، والآن لنُلْقي شيئاً من الضَّوء على كيفية دلالة (الأمة المحمَّدية) على نبوّة نَبيِّها الخاتم ﷺ:

إنّ أمة (خاتم الأنبياء) (محمَّدٍ) ﷺ عامة وأتباعه الصّادقين فيها خاصةً، والذين لم ولَنْ يخلو منهم جيلٌ من أجيالها المتعاقبة إلى أَنْ يَرِثَ الأرض ومن عليها، كما أخبر به رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة منها:

١ ـ «**لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ الله وَهُمْ ظَاهِرُونَ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٦٤٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٩٢١)).

٢ ـ «**لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ الله لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا**

مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ الله وَهُمْ عَلَى ذلِكَ» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٦٤١)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٠٣٧)).

أجل انّ الأمة الإسلامية عموماً وخواصّها خصوصاً ـ وهم المعروفون بالطائفة المنصورة ـ ستظلّ هي النّبْراس الوحيد للبشرية والحجّة القائمة والشاهد عليها، في مجال الإهتداء بهداية الله ومعرفة التديّن الصَّحيح الوحيد المقبول عند الله تعالى، وقد يختلف مقدارُ حُجِّيَّة الأمة الإسلامية وشهادتها على البشرية قوةً وضُعْفاً، تَبَعاً لدرجة صِحّة الأمة أو مَرَضِها بِسبب تَمَسُّكِها الجادّ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو الإنحراف عنهما، ولكن على أيّ حالٍ ستظلُّ الأُمَّةُ الإسلامية هي المُجسِّدَ الحقيقيَّ لدين الله الحق والعبادَةِ الصَّحيحة لله تعالى، وذلك لأنَّه:

١ ـ لا يوجد غير القرآن العظيم كتابٌ ربّاني آخر، بقي صحيحاً لم يُحرَّفْ، ولم تُخالِطْهُ وتُشَوِّهْهُ أهواءُ البشر، وإنما بقي القرآن محفوظاً صحيحاً، لأن الله تعالى تولّى حِفْظَهُ بنفسه، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

٢ ـ وكذلك لم تُحْفَظْ سنة وسيرة نبي من الأنبياء عليهم السلام، كما صينَتْ وحُفظتْ سنة وسيرة خاتم النبيين ﷺ، ومعلوم أنه لا يمكن القيام بالتديّن الصَّحيح والعبادة الصَّحيحة لله تعالى، من دون كتابٍ ربّاني سليم وسنة نبويّة صحيحة، توضِّح كيفية تطبيق كتاب الله في مختلف مجالات الحياة، وهذا بالطّبع بالإضافة إلى أن الله تعالى أرسل الأنبياء والرسلِ السّابقين إلى شعوبٍ ومجتمعات معيَّنة، وفترات تاريخية محدّدة، لِذا أُنْزِلَتْ عليهم الكتب والشرائع التي تتطلَّبها الظروفُ والملابساتُ الخاصة لتلك الشعوب والمجتمعات، بخلافِ خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين ﷺ الذي أرسله الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وأنزل عليه كتاباً كريماً عظيماً حكيماً، تبياناً وتفصيلاً لكل شيء، وتعهَّد بِحِفْظِهِ بنفسه كي يظلَّ النَّبِيُّ الخاتم (محمَّدٌ) ﷺ بسبب القرآن العظيم الذي هو شريعة ومنهاجٌ، ومعجزة وبرهان على نبوّته، في آنٍ واحدٍ، حُجَّةً قائمةً على البشرية جمعاء إلى نهاية الزمان.

وعندما نُقارنُ في عصرنا الحالي بين واقع الأمة الإسلامية من جانب، وواقع كلّ من الأمَّتين اليهودية والنصرانية من جانب آخر، يبدو لنا مِصْداقُ ما قلناه جلياً كالنّهار، إذ نرى اليهود والنصارى لم يُبْقُوا على شيء ـ إلّا نادراً ـ لَمْ يحرِّفوه، وقلّما وجد محرَّمٌ لم يرتكبوه، ليس على مستوى الأفراد فَحَسْبُ، لأنَّ هذا واقع في كل أمة، بل على مستوى الأمة كلِّها!

ولكن ما زال للأمة الإسلامية التزامُها بدينها، إنْ لم يكن على مستوى المجتمع، فَعلى مستوى الأفراد، وإن لم يكن في مجال تطبيق الشرائع كلها، أو بعضها في إدارة أمور المجتمع والدولة، ففي مجال الأسرة والشعائر التعبّدية، وكثير من الأمور الشخصية، وذلك بالرغم من كل المحاولات والمَكايد[1] الشيطانية التي يقوم بها أهل الكفر بأصنافهم المختلفة، وأذنابهم من الكفرة والمنافقين المحليين، للحيلولة بين الأمة الإسلامية وبين دينها الحق.

ولهذا:

ستظلّ الأمة الإسلامية وبمقدار تَمسُّكها بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ـ والذي يجعلها مُتَّصِفةً ومُتَحلِّيةً بالأوصاف والخصال الجليلة التي جُعِلَتْ مِلاك خيريَّتها ـ، بُرْهاناً على نبوَّة (محمَّد) خاتم النبيين وسيِّد المرسلين ﷺ، وحُجَّةً على البشرية، وشاهداً عليها، في كيفية التديُّن والتعبّد الصّحيح لله تعالى.

ويوجد في الأمة الإسلامية ـ والحمد لله ـ في كل عَصْرٍ ومِصْرٍ، عَدَدٌ يقلّون أو يكثرون من العلماء والصّلحاء والأولياء، والمجاهدين الأوفياء من الرجال والنِّساء، يُجَسِّدون دينَ الله القيِّم في حياتهم تجسيداً صحيحاً، مهما كانت الظروف والأحوال، وعادة يتوزّع أولئك الأخيار على مختلف شرائح

(١) المكايد: جمع مَكيدة: الخديعة. المعجم الوسيط، ص٨٠٧.

المجتمعات، وليسوا منحصرين في دائرة شريحة معيَّنة، وذلك كي يكونوا بمجموعهم، حُجَّةً على كلِّ شرائح المجتمع.

بهذا نختم هذا المبحث الخامس من الفصل الثاني، وبه نُنْهي الكلام عن الفصل الثاني المخصّص لبحث براهين نبوة النبي الخاتم رسول الله الأعظم ﷺ، وننتقل بإذن الله إلى الفصل الثالث.

❋ ❋ ❋



الفصل الثالث

مقامُ خاتم النبيين ﷺ الرَّفيع وخصائِصه[1]

(١) خصائص جمعُ خصيصة: الصِّفة التي تُميِّزُ الشيءَ وتُحَدِّدُهُ. المعجم الوسيط، ص٢٣٨.

لقد تحدّثنا سابقاً عن موضوع التفاضل بين الأنبياء والرسل الكرام صلى الله عليهم وسلم في ضوء قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ...﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وآيات أُخرى، وقلنا بأن للرسول الأعظم والنبي الخاتم، مقاماً رفيعاً لم يَبْلُغه غيره، ورجَّحنا بأنه هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ إذْ هو ﷺ وحده الذي فُضِّل على سائر الأنبياء والرسل عليهم السلام، درجات.

وهناك آيات كثيرة مُصَرَّحٌ فيها، أَو يُفْهَمُ منها، بِما لخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسَّلام من مقام رفيع، وخصائص ومزايا تدلّ على فضله على سائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسَّلام، وهذه أمثلة من تلك الآيات:

١. ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب].

٢. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

٣. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ].

٤. ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

٥. ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

٦. ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى].

٧. ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر].

٨. ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

٩. ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح].

١٠. ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب].

وسَنُعلِّقُ باختصار على هذه الآيات، لإيضاح كيفية دلالتها على ما للنبي الخاتم ﷺ من مقامٍ رفيعٍ وخصائص فريدة، يمتاز بها على سائر الأنبياء عليهم السلام:

أولاً: إن محمَّداً ﷺ هو خاتم النبيين، وختم به الوحي وانتهت إليه النبوّة والرسالة:

كما صَرَّحَتْ به الآية (٤٠) من (الأحزاب):

وبما أن البشرية ـ كما بيناه سابقاً، وهو واضح لكل من يدرس تأريخ

البشرية ويتأمَّلُهُ ـ مرَّتْ بأدوار وأطوار من حيث النضوجُ والرُّشد الفكري والإجتماعي، في سَيرِ تَطَوُّره عموماً، فَبِعْثَةُ الرسول الخاتم بعد كل الأنبياء وختم باب النبوَّة به، دليلٌ واضِحٌ على علوِّ مقامِهِ، حيث بعثه الله الحكيم للمرحلة الممتدة التي ستبلغ فيها البشريَّةُ أَوْجَ نضوجها الفكري والإجتماعي، ثم هو أكمل عَمَلَ كلِّ الأنبياء السابقين الذين تقدّموا عليه، كما أشار إلى هذا في حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، حيث يقول[1]:

«**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بَنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لَبِنَةٍ من زاوية من زواياهُ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون: هلاّ وضِعَتْ هذه اللَّبِنَة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**» متفق عليه، عن أبي هريرة ﷺ.

ثانياً: وهو ﷺ السبب الذي يَنالُ به العالَمون كلُّهم من جِنٍّ وإنسٍ، رحمةَ الله وفَضْلَهُ:

كما في الآية (١٠٧) من (الأنبياء)، إذْ يَحْصِرُ الله تعالى سبب إرساله إيّاه ﷺ في إرادته به إنالة رحمته للعالمين، إذاً: فهو وحده السّبب والطريق الذي تُنالُ به رحمة الله وفضله في الآخرة، وذلك بالإيمان به وبما جاءَ به واتِّباعِهِ.

ثالثاً: وهو مُرسَلٌ من الله تعالى لجَمِيعِ النّاس، كي يُبَشِّرهم بما يَسُّرهُمْ في الدنيا والآخرة، إنْ هم أطاعوه، ويُنذِرَهم بما يسؤهم في الدنيا والآخرة، إنْ هم عَصَوْه:

كما في الآية (٢٨) من (سبأ).

رابعاً: وهو موعودٌ من الله تعالى بِالمقام المحمود الذي يَحْمَدُهُ فيه الأولون والآخرون:

كما في الآيتين (٧٨، ٧٩ من سورة الإسراء).

---

(١) (صحيح البخاري): ٣٣٤٢ و٣٥٣٥، و(جامع الأصول من أحاديث الرسول) لابن الأثير، رقم: ٦٣٤٠.

وإنما قلْنا هو ﷺ موعودٌ بِالمقام المحمود جَزْماً، لأنَّ الكريم إذا أَطْمَعَ أعطى، والله تعالى هو الكريم المطلق: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق]، ثم إن محمداً ﷺ هو أحبُّ عباده إليه وأكرمهم لديه، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ...﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد قال ﷺ: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِالله أَنَا**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٢٠) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

وبناءً عليه: فقوله تعالى: ﴿...وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء]، وإنْ كانت (عسى) في اللغة للترجّي والتطميع[1]، ولكن تطميع الله تعالى يعقبه الإعطاء، لأنه هو الكريم المطلق والكريم اذا أَطْمَعَ أعطى، ثم التطميع هو لأكرم عَبْدٍ لَدَيْهِ، ثم الشرط الذي عُلِّق به التطميع، قد نفَّذه رسولُ الله ﷺ بأتمِّ ما يَتمكَّنُ منه البشر، وهو قيامه باللّيل، كما هو معلوم في سيرته وسنته.

وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، مَفْهومَ: (المقام المحمود) والذي يعرف في كتب السنّة بـ(مقام الشفاعة العُظْمى)[2].

خامساً: وهو ﷺ وحده الذي أسرى الله تعالى به في ليلة واحدة وعَرَج به إلى السماء، بَلْ إلى ما فوق السموات السبع، وإلى سدرة المنتهى، وأراه الله تعالى من آياته الكُبْرى:

كما في الآية (١) من (الإسراء) بالنسبة لأصل سَفَره اللّيلي المبارك، وأما بالنِّسبة لِعرُوجِه إلى السماء وفوقها، فتدلّ عليه إجمالاً: الآياتُ (١٣ إلى ١٨) من (النجم)، وتفصيلاً: الحديثُ الذي رواه البخاري ومسلم، وقد أوردناه في الفصل الأول من هذا الكتاب ـ أي الكتاب السادس ـ.

---

(١) مختار الصحاح، ص٣٨١، لفظ: ع س ا.

(٢) كما جاء في (صحيح البخاري) مفصلاً، عن أنس رضي الله عنه، ٧٥١٠، وسنبحث هذا الموضوع بإذن الله في الفصل السادس من هذا الباب ـ أي الكتاب الثامن ـ.

وإنما قلنا إنه هو وحده الذي خصَّهُ الله وأكرمه بهذا السفر، لأن الله تعالى لم يقصّ علينا فيما قَصَّهُ علينا من قصص الأنبياء والرسل عليهم السلام، أنه سافر بأحد منهم مثل هذا السفر العجيب العظيم، وقد قصَّ علينا ما هو أقلُّ شأناً من هذا من أحوالهم!

سادساً: وهو ﷺ مع أنَّه كان في الدنيا خاتم الأنبياء وسيِّد المرسلين، لكن الله تعالى أخبره، أنَّ أُخْراه خيرٌ له من الأولى، وأنه سيعطيه ويَهَبُ له من رحمته وفَضْله حتى يرضى:

كما في الآيات (١ إلى ٥) من (الضُّحى).

وهذا دليلٌ واضِحٌ على أنَّ علوَّ مقامِهِ ورفعة مكانته في الآخرة وعطاءَ الله تعالى وهِباتِهِ له فيها، ستكون أولى وأفْضَلُ مِمّا له هنا بالنسبة لما لغيره!

سابعاً: وهو ﷺ الذي أعطاه الله الخير الكثير الذي لم يُعْطَ أحدٌ مثله، ومنه نهره العظيم في الجنَّة:

كما في الآية (١) من (الكوثر)، وقد تحدَّث ﷺ في أحاديث له عن نهره أو حوضه الذي يُعطاه في الجنة[١]، واشتهر باسم (كوثر)، ولكن الظاهر المتبادِرَ من مفهوم السورة المباركة وسبب نزولها، هو: أن (الكوثر) يشمل كل المزايا التي اختصَّ بها، ومنها نهر الكوثر.

---

(١) ومنها هذا الحديث: (عن أنس قال: بَينا رسولُ الله ﷺ ذات اليوم بين أظهرنا في المسجد، اذْ أَغْفى إِغْفاءةً، ثم رفع رأْسَهُ متبسِّماً، فقلنا ما أضحككَ يا رسول الله؟ قال: **نَزَلَتْ عليَّ آنِفاً سورةٌ، فقرأ:** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر].

ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» فقلنا: الله ورسولُه أعلم، فقال: «**فإنّه نهر وعدنيه ربِّي** (عز وجل) **عليه خير كثير، هو حوضٌ تَرِدُ عليه أُمتي يوم القيامة**» رواه البخاري: ٤٩٦٤، ومسلم: ٥٣.

ثامناً: وهو ﷺ متَخَلِّقٌ بالخُلُق العظيم، أي: أَحسنه وأَفضله على الإطلاق:

كما في الآية (٤) من (القلم)، وإنّما قلنا: إنّ الخلق العظيم يعني أحسنه وأفضله على الإطلاق، لأن الله الحكيم العليم تبارك وتعالى، لا يصف بالعظمة إلّا ما بلغ أقصى مداه وأعلى درجته في مجاله، فهو سبحانه وصف نفسه بالعظمة وكذلك عَرْشَه، حيث قال:

﴿. . . وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٤].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل].

وذلك لأنه هو سبحانه هو العظيم المطلق، وهو الأكبر والأجلّ والأعلى من كلِّ ما سواه، وليس ثمة سواه إلّا مخلوقاته.

وأما عرشه فلأنه أعظم المخلوقات جميعاً.

تاسعاً وعاشراً: وهو ﷺ مغفورٌ ذَنْبه كلُّه السابق منه واللاّحق، وأتمَّ الله نعمته عليه:

كما في الآيتين (١، ٢) من (الفتح)

وقد بينّا سابقاً ـ عند حديثنا عن الأخطاء التي نُسِبَتْ إلى الأنبياء عليهم السلام في القرآن ـ أن مفهوم كلّ من الخطأ والمعصية والذنب والظلم، عند استعماله للأنبياء والرّسل، يختلف عن مفهومه، عندما يستعمل لسائر النّاس.

وذلك لأن الأنبياء عامة والرسل منهم خاصة عليهم الصلاة والسَّلام، بما لهم من الإيمان الشهودي المطلق، والإتِّصال الوثيق بالله تعالى من خلال الوحي، وبما لهم من الفطرة السليمة والمعدن الصافي، يستحيل أن يصدر عنهم العصيانُ المُتَعمَّدُ لربهم العظيم، ولكن قد يُخْطِؤون بسبب عدم الإصابة في الإجتهاد، أو بسبب النّسيان، أو العجلة، أو شدّة الغضب لله تعالى، وهذه الأشياء لا تعتبر معاصي وذنوباً بالمفهوم المستعمل عندنا، ولكن وُصِفَتْ هذه الأشياء في حق أولئك الصفوة المختارة عليهم الصلاة والسَّلام، بكونها ذنباً ومعصية وظلماً، لما لهم من علوِّ المقام، ورفعةِ المكانة، والقدر

والكرامة عند الله تعالى، وكما قيل: (حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين).

وقد فصَّلنا القول في كل هذا، في السابق، وإنَّما ذكَّرنا به هنا بمناسبة الحديث عن مغفرة الله تعالى لذنوب رسول الله ﷺ المتقدِّمة والمتأخرة، مع أنّنا لا نَجِدُ لرسول الله ﷺ في كتاب الله الذي علَّق على كلٍّ أو أكثر مواقفه المهمة، ما يمكننا تسميته (ذَنْباً) حتى بالمفهوم الخاص بالأنبياء عليهم السلام، إلّا بعض أخطاءٍ اجتهادية، والتي أَشرْنا إلى معظمها في السابق:

وعليه:

فليس المقصودُ بذنوب رسول الله المتقدِّمة والمتأخِّرة المغفورة له، إلّا تلك الأخطاء الإجتهادية، وحالات الغفلة الطارئة على قلبه الذاكر، كما أشار إليه بقوله:

«**إِنَّهُ لَيُغَانُ**[1] **عَلَى قَلْبِي، وإِنِّي لأَسْتَغفِرُ الله في اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٧٠٢)).

حيث اعتبر نبيُّ الله الخاتم ورسولُهُ الأعظم ﷺ أَدنى غَفْلةِ قَلْبه الشريف المبارك عن ذكر الله تعالى، ذنباً يستحق عليه الإِستغفارَ والإِنابَةَ إلى الله تعالى!

وإنّما اعتبرنا مغفرة الله تعالى لذنب نبيه الخاتم كله، وإتمام نعمته عليه، مِمّا خصّه الله تعالى به من بين صفوته المختارة، لأن الله تعالى لم يذكر ـ حسبما أعلم ـ هاتين الفضيلتين وبهذه الصيغة لأحد سواه من أنبيائِهِ ورسله الكرام عليهم الصلاة والسَّلام.

<u>حادي عشر:</u> وقد قدَّم سبحانه ذكر اسمه على ذكر أسماء رسله الأربعة الأعظم: (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى)، عليه وعليهم الصلاة والسَّلام، عند ذكره أخذ الميثاق منهم مع أنه متأخِّر عنهم زمناً، تنبيهاً على تقدُّمِهِ عليهم في الرتبة والدرجة:

---

(١) غِينَ على كذا: غُطِّيَ عليه. مختار الصحاح، ص٤٢٦، لفظ: غ ي ن.

كما في الآية (٧) من (الأحزاب):

وقد ذكرنا في السابق أن من العلماء مَنْ يرى بأَنَّ المقصود بـ(أولي العَزْم من الرُّسل) هم الرُّسل الخمسة المذكورون في هذه الآية، وفي الآية (١٣) من (الشورى) أيضاً: (محمَّد، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى) عليهم الصلاة والسَّلام، ولكنِّي رجَّحْتُ بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام، كلَّهم أولو عَزْم، وكلمة (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾ [الأحقاف: ٣٥]. بيانية وليست تبعيضية.

ولكن مِمّا لا شك فيه ـ حسبما يَبْدو لنا من كتاب الله تعالى ـ أَنَّ لهؤلاء الخمسة المذكورين في آيتي (الأحزاب) و(الأحقاف) شأناً ليس لغيرهم، من الرسل والأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسَّلام من الله تعالى أجمعين، لِذا فتقديمُ ذكر (محمَّد) عليه الصلاة والسَّلام، على ذكرهم مع تقدُّمهم الزَّمني عليه، يفهم منه أنه متقدِّمٌ عليهم رتبةً ودرجةً، وتقدُّمه على هؤلاء الذين لهم من الشأن والمقام ما ليس لغيرهم، دليلٌ على أنه بالأولى والأَحْرى متقدِّم على سائر الرسل والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسَّلام.

وهكذا تبيَّن لنا في ضوء أنوار هذه الآيات المباركات، أنَّ خاتم الأنبياء (محمَّداً) ﷺ له من المقام الرَّفيع، والخصوصيات والمزايا الفريدة، ما يجعله مُتَميِّزاً عن جميع الأنبياءَ، وما يجعله يستحق بكل جدارةٍ لَقَب (سَيِّد المرسلين)، ولقب (سيِّد وَلَدِ آدم) كما أطلقه على نفسه، حيث قال: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٧٠٢)، عَنْ أَبُو هُرَيْرَة رضي الله عنه).

ونختم هذا الموضوع بِهذا الحديث:

«**أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي:**

١) **نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ.**

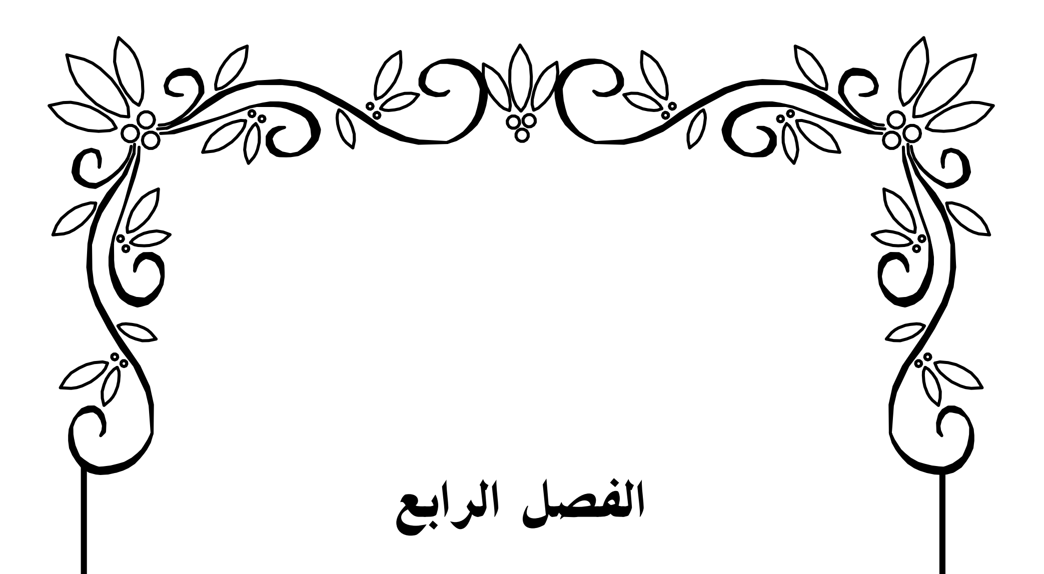
٢) وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ، فَلْيُصَلِّ.

٣) وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ.

٤) وَكَانَ النَبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاس كَافَّةً،

٥) **وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٣٨) عَنْ جَابِر بْنِ عَبْدِالله ﭭ).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الرابع

واجِبُنا علينا تِجاهَ خاتم النبيين وسيِّد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله أجمعين

نُلَخِّصُ ما يَجبُ علينا فِعْلُهُ والقيام به، تِجاهَ رسول الله الأعظم، ونبيِّه الخاتم (محمَّد) ﷺ، في المباحث الأربعة الآتية:

١. **الإيمان به والصلاة والسّلام عليه.**

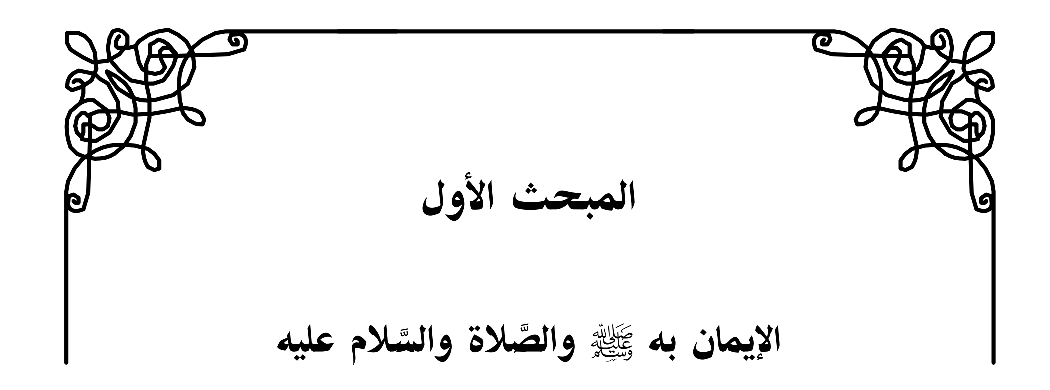
٢. **مَحَبَّتُهُ وتعزيره وتوقيرهُ واتِّباعُهُ.**

٣. **السِّعيُ لإِحياء سُنَّتِه، ونَشْرها بالقول والفِعْلِ.**

٤. **محبَّة وتكريم أصحابه وأهل بيته رضي الله عنهم، وآله، وأمَّته عامة، وورّاثه العلماء خاصة.**

ونبدأ بتوفيق الله الكريم بالمبحث الأول:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الأول

الإيمان به ﷺ والصَّلاة والسَّلام عليه

قال الله تعالى:

١. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء].

٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد].

٤. ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد].

٥. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

كما نرى في هذه الآيات، أمر الله تعالى نبيَّه الخاتم أن يدعو الناس

إلى الإيمان بالله والإيمان به هو ﷺ، وقد عرَّف نفسه بـ﴿...إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

وأمّا في الآيات (١٣٦) من (النّساء)، و(٢٨) من (الحديد) وكذلك (٧) من (الحديد) فيأمر الله تعالى أهلَ الإيمان، أنْ يؤمنوا به هو سبحانه ويؤمنوا برسوله! وذلك لأن الإيمان ـ كما بينّاه في الفصل الأول من هذا الباب ـ أي الكتاب الثاني ـ ليس درجة واحدةً، بل هو درجات كثيرة، لِذا يحتاج أهلُ الإيمانِ إلى أن ينمو فيهم الإيمان باستمرار، وأَنْ يصعدوا فيه ويَعرجوا في سُلَّمِهِ دَوْماً، ولا يتوقَّفوا لَحْظةً.

والإيمان برسول الله ﷺ بإيجازٍ يعني:

تصديقُهُ في كونه خاتَمَ النبيين ورسولَ ربّ العالمين، والتصديقُ بكل ما جاء به من عند الله تعالى، تصديقاً مُقْتَرِناً بالإذعان والقبول والحبِّ والرِّضى والإستسلام والإتِّباع، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

وكلُّ ما نتحدَّث عنه في المباحث الآتية من محبّة رسول الله ﷺ وتعزيره وتوقيره واتِّباعه، ثم السّعي لإِحياء طريقَتِهِ وسُنَّته ونشرها قولاً وفِعْلاً، وكذلك محبّة وتكريم أصحابه وأهل بيته ﷺ وآله وأمته... إنّما هو ثمرة الإيمان به، أو من مكوِّنات وشروط الإيمان به ﷺ، لِذا فتوضيح ما يأتي ذكره في تلك المباحث يعتبر تفصيلاً وبياناً لمعنى الإيمان به، ولِذلك أوجَزْنا الكلام عنه هنا. هذا بالنسبة للإيمان به ﷺ.

وأما بالنّسبة لِلصَّلاة والسّلام عليه، فهذا ما أمرنا الله تعالى به، وذلك بعد أنْ أخبرنا بأنّه هو تبارك وتعالى وملائكته يصلّون عليه، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

ومعنى صلاة الله تعالى على نبيه، هو: رحمته إيّاه وثَناؤه عليه وتكريمه له[1]، كما أن معنى صلاة الملائكة عليه:

طَلَبُ رحمة الله وإكرامه له ﷺ.

ومعنى صلاتنا وسلامنا عليه:

طَلَبُنا من الله تعالى، أن يرحمه رحمةً خاصةً ويُكْرِمَهُ، وأَنْ يسلِّمه ويعافيه من كل ما يكره.

وأمرُ الله تعالى أهْلَ الإيمان: أن يصلّوا ويسلِّموا على نبيِّه واضح الدلالة على أنّه يجِبُ عليهم فعلُ ذلك، والعلماءُ مُجْمِعون على هذا، وقد جعل رسول الله ﷺ كلاً من الصلاة والتسليم عليه في تحيات الصلاة (أي التشهُّد)، وهذه هي صيغتهما الواردة:

١ ـ السَّلَام: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ البُخَارِيُّ برقم: (٦٢٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٤٠٢)، عَنْ عَبْدِالله بْنِ مَسْعُودٍ).

٢ ـ الصَّلَاة: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥٩٩٦)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٩٣٥) عَنْ كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ ﷺ).

وهناك صيغ أخرى للصلاة عليه في (تشهُّدِ الصلاة) وإنَّما أتينا بهذه الصِّيغة كمثال فقط. ويمكن جمع كل من الصلاة والسلام عليه ـ في غير الصلاة ـ بصيغ مختلفة، وربّما هذه هي أخصرها:

(أللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على محمَّدٍ وآله).

---

(١) الصّلاة في اللغة مُشْتَرِكة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة. المصباح المنير، ص١٨٠.

وقد قال رسول الله ﷺ في ثواب الصَّلاة عليه:

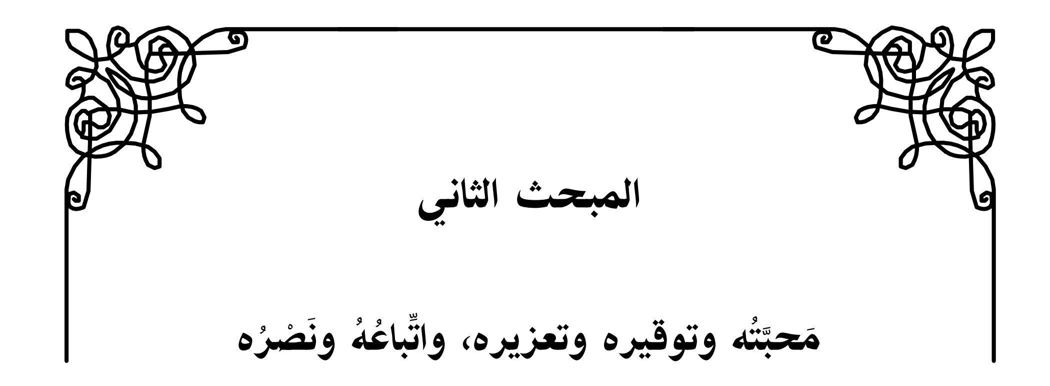
«**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ عَشْراً**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٩٣٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه).

ومَنْ صلّى عليه الله تعالى، خَرَج ببركة صلاته من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب].

وبناءً عليه: فالصّلاة والسّلام على رسول الله ﷺ يكون سبباً للخروج من الظلمات بمفهومها الشامل والدخول في النور، وقد تحدثنا في السابق عن مفهوم الخروج من الظلمات والدخول في النور، وذلك في المطلب الثاني من المبحث السابع من الفصل الثاني من هذا الباب (أي في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة)، عند حديثنا عن ولاية الله سبحانه وتعالى لعباده.





المبحث الثاني

مَحبَّتُه وتوقيره وتعزيره، واتِّباعُهُ ونَصْرُه

قال الله تعالى:

١. ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ...﴾ [الأحزاب: ٦].

٢. ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ...﴾ [التوبة: ١٢٠].

٣. ﴿... ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

٤. ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح].

٥. ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ

رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

٦. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات].

٧. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات].

قد ذكرنا من قبل أَنَّ كلاً من محبة النبيِّ الخاتم ﷺ، وتوقيره وتعزيره ونَصْره واتّباعِهِ، من مكوّنات الإيمان وثماره ولوازمه التي لا يمكن انفكاكُها عنه أبداً، ولكن أَفْرَدْناها بالذكر تنبيهاً على مكانة وأهمية كل منها.

والآن لِنُلْقي الضوءَ على مفهوم كلٍ من تلك المفردات:

١) أما (المحبَّة) فمفهومها واضحٌ، وينبغي أن يكون حُبُّ المسلم لرسول الله ﷺ، بعد حُبِّه لله تعالى، أكثر من حُبِّه لأيِّ شيء آخر حتى نفسه! كما يدلّ عليه قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ إذاً: يجبُ على أهل الإيمان أن يجعلوا الأَولويَّةَ لرسول الله ﷺ ويُؤْثِروه ويُقَدِّموه ويُفَضّلوه على أنفسهم، وكذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ...﴾ [التوبة: ١٢٠]، إذ معناه:

لا يجوز لأهل المدينة والأعراب الذين حولَها، التخلُّف عن رسول الله ﷺ في الجهاد ومواجهة الأخطار وإيثار أنفسهم عليه! بل يَجِبُ أن يفدوه بأنفسهم ويفضِّلوا سلامته على سلامتهم!

وقد قال رسولُ الله ﷺ بهذا الصَّدد:

«**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٣٣) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه).

٢) و(التوقير)[1] هو الإجلال والإكرام والتبجيل، كما يليق به ﷺ من غير إفراطٍ يجرّ إلى الشرك، وتفريطٍ يؤدّي إلى الجفاءِ والتقصير تجاهه، وإساءة الأدب معه ﷺ.

٣) و(التعزير)[2] هو التقوية والمساندة والنصرة والتَّعْضيد.

وقد وردت كلمة ﴿وَتُعَـزِّرُوهُ﴾ في الآية (٩) من (الفتح) و﴿وَعَـزَّرُوهُ﴾ في الآية (١٥٧) من (الأعراف)، وأما كلمة ﴿وَتُوَقِّـرُوهُ﴾ ففي الآية (٩) من (الفتح) فقط، وقد فَسَّر بعضُ المفسرين أو أكثرهم كلمتي: ﴿وَتُعَـزِّرُوهُ وَتُوَقِّـرُوهُ﴾ في الآية (٩) من (الفتح) على أن الضّمير فيهما راجع إلى الله تعالى، مثلهما في ذلك مثل: ﴿وَتُسَـبِّحُوهُ﴾، ولكنّي أرى أن الضمير فيهما راجع إلى الرسول ﷺ وذلك بدليل:

أولاً: أن كلمة (رسوله) أقرب إليهما وعودة الضّمير إلى القريب أولى، ما لم يكن هناك مانعٌ.

ثانياً: إنّ التعزير والتوقير قريبا المعنى، وقد استعمل ﴿وَعَـزَّرُوهُ﴾ في الآية (١٥٧) مِنَ (الأعراف) للرسول ﷺ كما هو واضح.

وإنما استثنينا ﴿وَتُسَـبِّحُوهُ﴾ من الإرجاع إلى (رسوله)، لأن التَّسبيح مختصٌّ بالله تعالى ولا يجوز استعماله لغيره، مثله مثل التقديس والتكبير والتعظيم.

٤) و(الإتِّباع) يعني جَعْلُ الرسول ﷺ هو المتبوعَ والقدوة في كل شيء، من أمور التديُّن والتعبّد لله تعالى، كما قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

---

(١) التوقير: التعظيم والترزين. مختار الصحاح، ص٦٢٨، لفظ: و ق ر.

(٢) التعزيز: التوقير والتعظيم والتأديب. مختار الصحاح، ص٣٧٨ لفظ: ع ز ر. والتعزير: الإعانة والتقوية والنَّصْر. المعجم الوسيط. ص٥٩٨.

٥) و(النَّصْرُ) لرسول الله ﷺ هو الدّفاع عنه والإنتصار له، وذلك بالسَّعي لِرفع راية دينه، وتحكيم شريعته، ونشر سُنَّتِهِ.

وجَليٌّ أن مَحبَّة رسول الله ﷺ وتوقيره وتعزيره واتِّباعَه ونَصْرَه، تكون حقيقةً مترسِّخةً في القلب والشعور، قبل أن تكون تعبيراً لسانياً، أو تصرُّفاً وعملاً ظاهرياً، ثم هي ليست منحصرة في أشخاص مُعيَّنين كالصحابة الكرام، أو زمن محدَّدٍ كعصر السعادة، بل شامِلةٌ لكل أجيال المسلمين الصادقين، في إيمانهم برسول الله ﷺ في كل العصور.

وكذلك مفهوم كلّ من: ﴿...لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [الحجرات: ١]، و﴿...لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ...﴾ [الحجرات: ٢]، واللَّذَيْن يصوِّران كيفية توقيرِ رسولِ الله ﷺ وإكرامِهِ واتّباعِهِ، أيضاً شاملٌ لكل المسلمين في كل العصور، إذْ مَنْ يُقِرُّ بأنَّ محمَّداً ﷺ هو النبيُّ الخاتم ورسول الله الأكرم، وحامل هدايته ومبلِّغ رسالته، والذي فرض الله تعالى طاعته على الخلق، وقَرَنَ طاعته بطاعته في آيات كثيرة، مثل:

١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ...﴾ [النساء: ٥٩].

٢) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

٣) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ...﴾ [النور: ٥٤].

٤) ﴿...وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

نعم مَنْ يُقِرُّ بنبوّة سيِّد الخلق ﷺ ويُريد أن يُعَدَّ في عداد المؤمنين، يَجِبُ عليه أن يتأدَّب معه الأدب اللائق به بالمفهوم الشامل للأدب، والذي يَتضمَّنُ التوقيرَ والإكرامَ والنَّصْرَ والإتّباعَ.

ولا يكون المَرْءُ متأدِّباً مع النبيِّ الخاتم ﷺ، حقَّ التأدّب اللائق به حتى يكون تابعاً له في كل شيء، بحيث لا يَفْتَئِتُ عليه في أمرٍ من الأمور ولا يُبْرِمُ أمراً من دون إذْنِهِ، ولا يُقَدِّم أمراً على ما جاء به من عند الله

تعالى، سواء كان في مجال العقيدة والإيمان، أو العبادة ـ بمعناها الخاص ـ، أو الأخلاق والآداب، أو المعاملات بمفهومها الشامل لشؤون الأسرة والمجتمع والدولة.

ولذلك، فكل مَنْ يُفَضِّل[1] فِكْراً أو ذَوْقاً أو سياسة أو رأياً، على شيء مِمّا جاء به رسولُ الله ﷺ من خلال كتاب الله الكريم وسنَّته المباركة ـ قولاً وفِعْلاً وتقريراً ـ، بَلْ كل مَن يُسَوِّي بين ما لغيره من أفكار وأذواق وسياسات وآراءٍ، وبين ما جاء به هو ﷺ، فهو قد أساءَ الأدَبَ معه أيَّما إساءة، بَلْ قد يكفر بموقفه ذلك وينقضُ به إقرارَهُ السابق بِنُبوَّته، وذلك لأنَّ الله تعالى أخبرنا أن التقدُّمَ على رسول الله ﷺ ورفعَ الصَّوت فوق صوته، يؤدِّي إلى حبوط الأعمال وبطلانها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات].

ولا شك أن كلّ من يُقدِّم شيئاً على ما جاء به رسولُ الله ﷺ ويُفَضِّلُهُ عليه أو يسوِّيه به، فهذا لا يعني أنه رفع صوته فوق صوت نبي الله الخاتم ورسوله الأعظم ﷺ، وجَهَر له بالقول فَحَسْبُ، بلْ وشاقَّهُ وخالَفَهُ، ولهذا فيشمله الوعيدُ المُتَرتِّبُ على رفع الصوت فوق صوته، والجهر بالقول له، وعلاوةً على ذلك يشمُلُهُ وعيد وعقابُ مَشَاقَّتِهِ ومخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء]. وقال: ﴿...لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور].

ومعلومٌ أن مَن يُصدِّق بالرسول ويؤمن به حق الإيمان، لا يرفع صوته

(١) وأقصد بهذا: (فكر) الفلاسفة والمفكِّرين، و(ذوق) أهل العرفان والمتصوفين، (سياسة) الحكام والسياسيين، و(رأي) الفقهاء والمجتهدين.

فوق صوته، صوته الذي عصمه الله تعالى من الزَّيْغ والضلال، ولا ينطق إلاّ بالحق والصّواب، طالما يرفَعُهُ باسم إبلاغ دين الله الحق ورسالته، وليس كرأي شخصيّ في أمر فَنِّيٍّ دنيوي، وذلك كحادثة تأبير النَّخْل، والذي قال فيها: «. . . أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمرِ دنيَاكُم» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٣٦٣) عَنْ أَنَسٍ ﷺ).

ثم إن اتّباع المسلم لرسول الله ﷺ لا يجوز أن يكون (انتقائياً) بأنْ يتَّبِعَهُ فقط فيما يَحْلو لَهُ، أو ينسجِمُ مع منافعه، أو لا يصطدم مع أفكاره وعاداته وأذواقه وآراءه وسياساته هو أو غيره! بَلْ ينبغي أن يكون الإِتِّباعُ، اتّباعاً تامّاً وشاملاً ومتواصلاً.

ومن نافلة القول ـ كما ذكرنا سابقاً ـ أن محبة وتوقير الإنسان لرسول الله ﷺ وتعزيره ونصره واتِّباعه وانقياده له، كل هذه الأشياء إنّما هي ثمار وآثار الإيمان به، ولهذا تتفاضل هذه الآثار والثمار كَمّاً وكَيْفاً، في أهل الإيمان، حسب درجات وأنواع الإيمانِ عندهم وتفاضلهم فيها: فكلما كان إيمان المرءِ برسول الله ﷺ أرسَخَ وأَكْمَلَ، كان حبُّه وتوقيرُه وتعزيرُه ونصرُه واتّباعُه له، أكْمَلَ وأفْضَلَ.

هذا وسَنُخَصِّصُ أحد فصول الكتاب التاسع من هذه الموسوعة، لِتَجْلية مفهوم (إتّباع رسول الله ﷺ) بإذن الله تعالى، لِذا نختم هذا الموضوع الآن بتوضيحات مختصرة على الآيتين (٣١، ٣٢) من (آل عمران)، حيث يقول الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

١ ـ مَنْ أحبَّ الله تعالى صادقاً، لا بُدَّ أن يكون لرسوله ﷺ تابعاً:

وذلك لأن الله تعالى خاطب نبيَّه الكريم ﷺ أن يُعْلِنَ لكل الَّذين يدَّعون محبّة الله تعالى، بأن تلك الدَّعْوى لا تقبل ما لم تُرْفَقْ بـ(بيِّنة) إتِّباع الرسول ﷺ.

لِذا فمن اتَّبع الرسول الأعظم ﷺ، فهو بقدر اتِّباعه له، يُسَلَّمُ لَهُ بأنه يحب الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى . . .﴾.

٢ ـ ومَنْ كان لرسول الله ﷺ متَّبِعاً كان الله تعالى لَه مُحِبّاً ولذنوبه غافِراً:

جعل الله تعالى اتِّباعَ الناس لرسوله ﷺ شَرْطاً لِحُبِّه إِيَّاهم، فَمَنْ لم يتَّبعْ رسولَه الكريم، يكون محروماً من حُبِّه، حتى ولو كان ـ على سبيل الفرض ـ مُحِبّاً لله تعالى: ﴿. . .قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

ومن الواضح أن العبرة بِحُبِّ الله للعبد، وليس حب العبد لله، وذلك لأَنَّ الله تعالى لا يحبُّ عبده، إلّا إذا كان مَرْضيّاً له، لكن قد يُحِبُّ الله إنسانٌ من غير أن يكون مَرْضياً لله تعالى، ويستحيلُ أن يحبَّ الله تعالى إنسانٌ صادِقاً، ثم لا يَتَّبعُ نبيَّه المصطفى وحبيبه المُجْتَبى، الذي فَرَضَ حُبَّهُ واتِّباعَه عليه وجَعَلَهُ شرْطاً لِحبّه سبحانه إيّاه، إذ كيف يُسَلَّمُ لِمَنْ يعصي الله تعالى بمخالفة رسوله، إدِّعاءَه محبّة الله؟! وقال شاعرٌ بهذا الصدد:

تعصي الإلٰهُ وأَنت تزْعُمُ حُبَّهُ ... لعمرك هذا في المقال بديع
لو كان حُبُّك صادِقاً لأطعته ... فإِنَّ المحِبَّ لمن يحِبّ مطيعُ

٣ ـ حبُّ العبد لله يُثْمِرُ فيه اتِّباعَ الرسول، واتّباعُ الرسول يُثْمِرُ حبَّ الله إيّاه، وهذه الثلاثة تُثْمِرُ فيه إطاعته لله ورسوله، والتي تتمثَّلُ في الإلتزام بالكتاب والسنة:

أجل:

كما أنّ الحُبَّ الصّادق من العبد لله تعالى، يُثْمِرُ فيه الإتِّباعَ لرسول الله ﷺ والإهتداءَ بهَدْيِهِ، وكذلك كما يُثْمِرُ الإتباعُ لرسول الله ﷺ حُبَّ الله تعالى له ومغفرته لذنوبه، كذلك تُثْمِرُ فيه هذه الثلاثة: (حُبُّه لله، واتّباعُهُ لرسوله، وحُبُّ الله إيّاه) إطاعَةَ الله تعالى ورسوله، والّتي تَتَمثَّلُ في الإلتزام بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والتمسُّك بهما، في الكليات والجزئيات، وفي جميع مجالات الحياة الفردية والأسرية والجماعية.

وذلك لأن الله تعالى قال بعد الآية السابقة مباشرة: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ﴾ أي: ما دُمْتُمْ مُحِبِّين لله، ومُتَّبعين لرسوله، ومحبوبين لله تعالى، فأطيعوا الله والرسول، بالإلتزام بكتاب الله الحكيم، والسَّيْر وفق سنة وسيرة رسوله الكريم ﷺ.

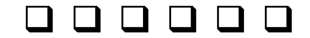
٤ ـ لكنَّ التولِّيَ والإعراضَ عن رسول الله ﷺ، يؤدِّي بصاحبه إلى الكفر والإنخراط في سلك الكفار الذين لا يحبّهم الله تعالى:

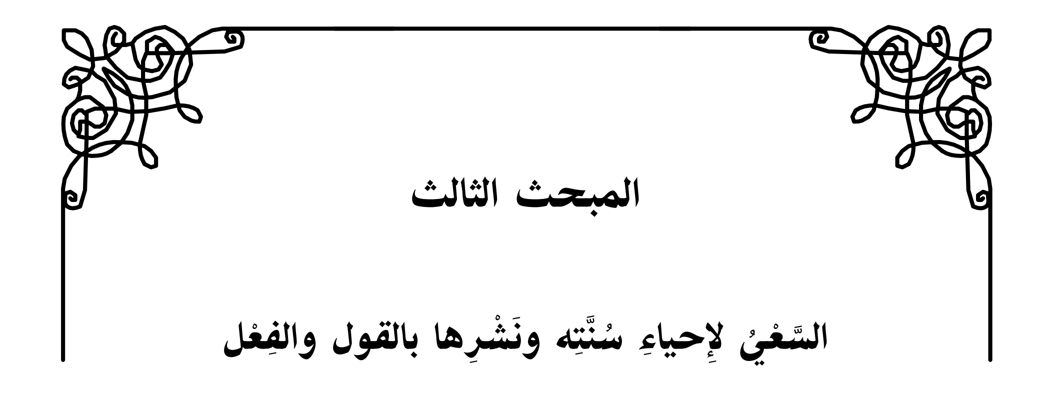
وذلك أن الله تعالى قال في ختام الآيتين المباركتين: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وهذه الجملة واضِحة الدلالة على أن المُعْرِضَ عن رسول الله ﷺ والنّاكِبَ عن طريقته، يَخْرُجُ من دائرة الإسلام، ويُصْبِحُ في عداد الكافرين المبغوضين من الله تعالى.

أَجَلْ إِتّباعُ رسول الله ﷺ الناشيء عن الإيمان به، ومَحبَّتِهِ وتوقيرِه وتعزيرِه، هو واسطة عِقْدٍ بين حُبَّيْن: حبِّ الإنسان المتبّع للرسول، ولربِّه، وحُبِّ الله إِيّاهُ.

وكذلك اتِّباعُ رسول الله ﷺ علامَةٌ وبرهانٌ على حُبِّ العبد لله تعالى، وسَبَبٌ وداعية لحب الله تعالى للعبد، وبالنتيجة مغفرته له ورضاه عنه.





المبحث الثالث

السَّعْيُ لإِحياءِ سُنَّتِه ونَشْرِها بالقول والفِعْل

ذكرنا في المبحث السابق أنَّ حُبَّ المسلم لرسول الله ﷺ أكثر من حُبِّه لأيِّ شيءٍ ولكلِّ الناس، بعد حُبِّ الله تعالى وتوقيره إيّاه، واتِّباعه له ونصره إيّاه، كُلُّها من ثمار الإيمان به ولوازمه التي لا تنفك عنه أبداً، ما دام الإيمان إيماناً حقاً، وههنا نقول:

إن كلَّ من أحبَّ رسولَ الله ﷺ حُباً صادِقاً، ووقَّرَهُ وَعَزَّرَهُ، واتَّبَعَه بحق، فهو لا بُدَّ من أن يسْعى حَسْبَ طاقته لاحياءِ سُنَّته، ونَصْرِ طريقته ورفع رايته، ونشرها والترويج لها، بكل الوسائل المباحة المتاحة له.

وإلّا فأيُّ معنًى يبقى لِحُبِّ الإنسان لرسول الله ﷺ، إنْ لم يَحْرِصْ على إحياءِ سنَّته وطريقته؟! أم أيُّ معنًى يَبْقى لتوقيره له، إنْ لم يَسْعَ لِجَعلِ طريقته موقَّرةً ومُعَظَّمَةً في المحيط الذي يعيش فيه؟ وأيُّ مَعْنًى يَبْقى لِتعزيره إيّاه، إنْ لَمْ يُقَوِّ بكل ما أوتي من إمكانيات، سُنَّةَ رسول الله ﷺ لِتكون مَوفورة العِزّة، مرفوعة الراية، منيعة الجانب؟!

ولكن يجب الحذر في هذا المجال من الوقوع في خطأين:

أولهما: حصر مفهوم السنة النَّبويّة على صاحبها الصلاة والسَّلام والبركات والتحيَّة، في جوانب فرعية ومسائل جزئية منها، أو الإنشغال الزائد بها على حساب الجوانب الأساسية والقضايا الكلية في السّنة، من:

١ ـ توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، بالمَعْنى الحقيقي الشامل للعبادة.

٢ ـ والإلتزام بشريعة الله في كلا مجالي: الفرد والمجتمع.

٣ ـ والدعوة إلى الله تعالى وإلى صراطه المستقيم.

٤ ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ ـ والجهاد والقتال في سبيل الله بالمال والنّفس، في وقت وبشروطه.

٦ ـ والتَحلِّي بالفضائل النفسية والخُلُقية، والتَخلِّي عن الرذائل.

٧ ـ والتعامل وفق الآداب الشرعية.

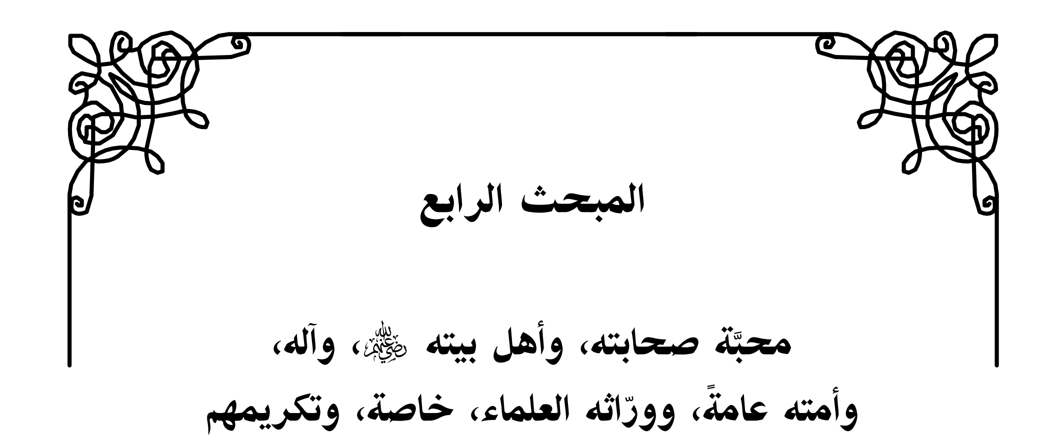
وذلك لأنَّ مفهوم (سنة رسول الله) ﷺ شامِلٌ لكل هذه الجوانب، بل شاملٌ لكل الإسلام بجميع نواحيه، كما سنفصِّل القول في ذلك، في الفصل الأول من الباب الثالث ـ أي الكتاب التاسع ـ بإذن الله تعالى.

ثانيهما: نسيان أو إغفال الإلتزام بالسنَّة في عملية (إحياء السنَّة)، وذلك بأن يُقَدَّم المهمُّ على الأهم، أو أن يُضَحَّى بالفرض من أجل عمَلٍ مندوبٍ، أو أن يُهْمَل التَحلِّي بالخُلُق والأدَبِ النبويّ الرفيع، في التعامل مع المجتمع الذي يُرادُ إصلاحُهُ وإرجاعُهُ إلى جادة السنة، وتَشْذيبُهُ مِمّا عُلِّقَ بأذْهانِ وقلوب أفراده، وما شاب معتقداتهم وعباداتِهم ومعاملاتِهم، ومِمّا يخالف السّنَّة، من شِرْكٍ وبِدْعَةٍ وانحرافٍ، وذلك لأنَّ إحياءَ السنَّة لا يتمُّ ما لم يُراع فيه هَدْيُ السنة نفسها، وأَما ادِّعاءُ اتِّباع السنة، بل إحياءِها ونَشْرِها، ثم مخالفتها في الهَدْي والمسلك الذي حَدَّدته، فلا يُنْتِجُ شيئاً.

وخلاصة القول!

أَنَّ الإنسان ـ فرداً أو جماعة ـ يَنْجَحُ في خدمته لطريقة الرسول ﷺ وإحيائِها، بقدر استيعابه للسنة عقلاً وقَلْباً، وتَمَثُّلِهِ لها خُلُقاً وسلوكاً، وإلّا فإن فاقد الشيء لا يُعطيه!

والآن إلى المبحث الأخير:



المبحث الرابع

محبّة صحابته، وأهل بيته ﷺ، وآله، وأمته عامةً، وورّاثه العلماء، خاصة، وتكريمهم

قال الله تبارك وتعالى:

١. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

٢. ﴿. . .وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد].

٣. ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

٤. ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا

تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب].

٥. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران].

٦. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة].

٧. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

٨. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ . . .﴾ [آل عمران].

٩. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

١٠. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ . . .﴾ [آل عمران: ١١٠].

أجَلْ إنَّ من الواجبات التي يُلْزِمُنا بها إيمانُنا، تجاهَ رسول الله ﷺ هو: محبَّة وتكريم كلٍّ من:

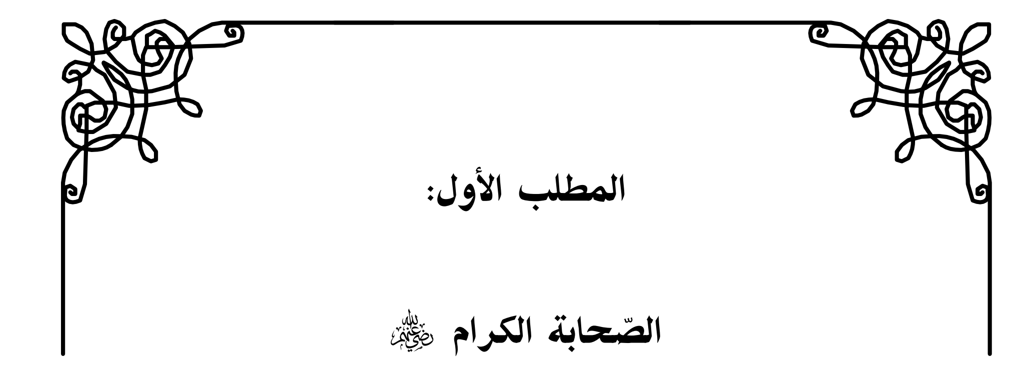
١) صَحابته (رجالاً ونساءً).

٢) وأهل بيته (أزواجه وقرابته).

٣) وآله (خاصَّتِهِ وأتباعِهِ الصادقين).

٤) وأمته جميعاً (أمواتاً وأحياءً)، وخاصة علمائِها.

ولْنتحدّث الآن عن كُلّ منهم على حِدَةٍ في مطلبٍ باختصار، بل بإيجاز:



المطلب الأول:

الصّحابة الكرام رضي الله عنهم

(الصّحابة) واحدها: (صحابي) و(صحابية): وهم الّذين آمنوا بالله تعالى ورسوله وصَحِبوه[1] ﷺ ورافقوه وعاونوه وساندوه في دعوته الربّانية، وتكوين الجماعة الإسلامية الأولى، وتنشئة المجتمع الإسلامي الأول، وتشكيل الدولة الإسلامية الأولى.

وبعد هذا التعريف العام المنتزع من الواقع التأريخي للصحابة الكرام، نُسجِّل الموقف الشرعي الذي نراه صواباً تجاه الصّحابة كأداء جزءٍ من حق رسول الله ﷺ علينا، في البنود السَّبعة الآتية:

١ ـ الأدلَّة على وجوب محبَّة صحابة رسول الله وتكريمهم رضي الله عنهم كثيرة جداً، ولكن نكتفي بهذين الدليلين:

أ ـ أعلن سبحانه وتعالى، رضاه عن صحابة رسول الله ﷺ في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ...﴾ [التوبة: ١٠٠]،

---

(١) قال البخاري: (ومن صَحِبَ النبي ﷺ أو رآه من المسلمين، فهو من أصحابه)، (صحيح البخاري)، ص٦٦٥، (باب فَضائل أصحاب النبي ﷺ). وقال المعجم الوسيط: (الصَّحابي: مَنْ لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام، ج: صحابة)، ص٥٠٧.

ومن الجَليِّ أن من كان مَرْضِيّاً لله تعالى، يجب أن يكون مرضياً لنا وأن نُحِبَّهُ ونُكْرِمَهُ ونجلّه، وإلّا بخلافِهِ نكون قد أسأنا الأدب مع ربّنا العليم الخبير جلّ وعلا، بعدم حُبِّنا لِمَنْ يُحِبُّهم، وعدم تكريمنا، لِمَنْ رضي عنهم وأَثْنى عليهم.

وإذا كانت الآية (١٠٠) من (التوبة) والآيات الأُخَرُ التي أعلن فيها سبحانه رضاهُ عن الصّحابة، مختصّةً بأهل (بَدْرٍ) أو مَنْ أسلموا قبل الفتح ـ أي فتح مكة ـ، فإن الآية (١٠) من (الحديد) أعلن فيها ربُّ العالمين جلّ شأنه، بأنه قد وعد كلَّ الصحابة الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح أو بعده، المَثُوبَة الحُسْنى، حيث قال تعالى: ﴿...وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

ب ـ في الآية (١٠) من الحشر بعد أن يُثْني الله تعالى على كل من المهاجرين والأنصار، بذكر أَهَمِّ صفاتهم، يُثْني سبحانه على الأجيال المسلمة الآتية من بعدهم، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

إذاً:

أَخَصُّ وأَهَمُّ صفات الأجيال المسلمة التي تأتي بعد ذلك الجيل الفريد المتميِّز، الذي استحقّ ثناءَ ربِّ العالمين، تتمثّل في دعائهم لهم بالمغفرة، وثنائهم عليهم بأنهم سبقوهم بالإيمان، ثم الطَّلَبِ من الله تعالى أَلّا يجعل في قلوبهم حِقْداً وبُغضاً مُستكِنّاً لأهل الإيمان عامةً، ولأولئك السابقين بالإيمان والهجرة والجهاد والنصرة خاصة، أي: فمن أراد أن يشمله ثَناءُ الله العظيم، يجب عليه أن يتحلّى من ضمن ما يَتَحلّى به من صفات: بحبِّ المهاجرين والأنصار، والدعاء لهم بالخير، وسلامة الصّدر تجاههم.

وإنه لمن أعجب الأمور أن يَدَّعي الإنسانُ الإيمانَ والإسلامَ وحُبَّ الله ورسولهِ ودينهِ، ثم لا يُحِبَّ ولا يُكْرِمَ مَنْ أَحَبَّهُم الله وأَثْنى عليهم، ورضي

عنهم، ووعدهم الحُسنى، ومَنْ أحبّوا الله ورسولَهُ وصاحبوه وساندوه وهاجروا معه ونصروه، وبذلوا النَّفْس والنفيس لِنُصْرَته ونُصْرَةِ دينه!!

٢ ـ ومن مظاهر حُبِّنا للصّحابة الكرام وإكرامنا لهم هو: أن نذكرهم بإجْلالٍ واحترام، وأن نترضَّى عنهم عند ذكر أسمائِهم أو اسم أحدهم، فنقول: (ﭫ) أو (ﭬ) أو (ﭭ)، والقصد منه الدّعاء لهم بذلك، وذلك اتّباعاً لكتاب الله الحكيم.

٣ ـ وكذلك يقتضي حُبُّنا وتكريمُنا لهم، أَلّا نذكر الأخطاء والمساوئ التي لا يَسْلَمُ ولم يَسْلَمْ منها بَشَرٌ سوى الأنبياء الكرام (ﯨ)، الذين عصمهم الله تعالى، إذ من الواضح أَنَّ الكفَّ عن ذكر مساويء الموتى عامةً، لازمٌ وأدبٌ إسلَامِي كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا**» (رَوَاهُ الْبُخَارِيّ برقم: (١٣٩٣) عَنْ عَائِشَةَ ﭭ)، ثم إن هذا في حق الصحابة ﭫ آكدُ وأَلْزَمُ، وإذا ما اضطررنا إلى ذكر أخطاء بعضهم، إنصافاً للحق وبياناً لحقيقة تَأريخية، يجِبُ أن نكون حذرين ولا نُسْرِفَ في القول، وأَلّا نُغْفِلَ محاسِنَ من نذكر أخطاءَه، إذْ هذا هو الذي يقتضيه مِنّا العدلُ والإنصاف.

٤ ـ ولكن هذا لا يعني أن نجعل الصّحابة ﭫ معصومين من الأخطاء، أو أن نبرِّر ونؤّول أخطاءَ بعضهم بتبريرات ساذجة وتأويلات بعيدة، كما فعل (ابن العربي) في كتابه: (العواصم من القواصم) حيث حاول أن يؤوِّل خطَأَ (معاوية بن أبي سفيان) ﭬ وغفر لَهُ، الذي جعل الحكمَ الإسلاميَّ المَبْنِيَّ على الشورى، حُكْماً بل مُلْكاً وراثياً، وَوَلّى ابنَه (يزيد) الذي كان مشهوراً بالفسق، جَبْراً وظُلْماً على رقاب المسلمين، وكان فيهم آنذاك من هو خيرٌ منه ومن أبيه، علماً وعبادة وصلاحاً وكفاءة![(١)].

---

(١) والظاهر أن المقصود في حديث رسول الله ﷺ (أوَّل مَنْ يُغَيِّر سُنَّتي رجلٌ من بني أُميّة)، هو (معاوية)، وهذا الحديث صحَّحهُ الألباني في: (سلسلة الأحاديث الصحيحة): ١٧٤٩.

كلاّ هذا ليس صحيحاً وذلك لأن (تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج) كما قال أحد العلماء، ونحن إذا برَّزْنا كلَّ ما قام به (معاوية) ـ مثلاً ـ من أخطاء، من:

أ ـ قِتالِهِ لخليفة المسلمين الراشد (علي بن أبي طالب) ﷺ، وبَغْيِه عليه.

ب ـ وجَعْلِه الحكمَ الإسلامي الشوريَّ، حكماً قَبَلِيّاً وراثياً، وسَنِّهِ تلك السُّنَّة السيئة في الحكم الإسلامي، والتي استمرت بعده إلى سقوط الدولة العثمانية سنة (١٩٢٤م).

ج ـ وسَنِّه شَتْمَ (علي بن أبي طالب) ﷺ حتى بعد استشهاده، على المنابر، والذي استمَرَّ إلى أن أَبْطَلَهُ (عمر بن عبدالعزيز) الخليفة الراشد ﷺ، وجعل مكانَ الشَّتْم الآيَةَ الكريمة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل][1].

نعم، إذا أوَّلْنا وبَرَّرْنا مثل هذه الأخطاء، فإنَّنا نُسيءُ بِعَملنا هذا إلى دين الله الحق، إساءةً بالغةً ونَظْلِمُه ظُلْماً كبيراً، حيث نظهره للناس وكأنه يُجيزُ كلَّ هذه الأشياء التي أُحْدِثَتْ فيه، والأخطاء التي ارتُكِبَتْ باسمه!

ولكن من جانب آخر يجب علينا أيضاً الحَذَرُ من الإفراط والغلّو في هذا المجال، وذلك:

أ ـ بأن نُضَخِّم الأخطاءَ أكثر من حَجْمها الحقيقيِّ، انْجراراً وراءَ العاطفة.

ب ـ أو بأنْ نَنْسِبَ أشياءَ إلى الصّحابة، اعتماداً على روايات مكذوبة مُلَفَّقة والتي أَفْرَزَتْها النزاعات السياسية، أو روايات لم تَثْبُتْ لنا صِحَّتُها.

ج ـ أو بأن نُهْمِلَ الجوانب الإيجابية والمشرقة فيمن ننتقدهم، ونَسْلُبَهُمْ ـ وهم أموات أَفْضَوْا إلى ربّهم ـ ما كان لهم من فضائل وحسنات!

---

(١) أنظر: (الكامل في التأريخ) لابن الأثير، ج٥ ص٤٢، ٤٣، ط دار صادر: ١٩٦٥. وأنظر: تأريخ الأمم الإسلامية: الدولة الأموية، للشيخ محمد الخضري بك، ج٢ ص١٢١، ١٨٣ و١٨٤، ط ١٩٦٩.

٥ ـ وجديرٌ بالذكر أن الصّحابة ﷺ، ليسوا كلُّهم على درجةٍ واحدة بل لهم درجاتٌ شتّى، وبين بعضهم وبعضٍ تفاوت عظيم، وذلك حسب تفاضلهم في مقدار قربهم من رسول الله ﷺ في الإيمان والعمل والخُلُق، وقد صرَّح كتابُ الله تعالى بهذه الحقيقة بوضوح في الآية (١٠) من (الحديد) حيث قال تعالى: ﴿...لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ...﴾.

وقد تحدّث العلماءُ كثيراً في طبقات الصَّحابة ودرجاتهم، وذلك في ضوء آيات كتاب الله وفي ضوء أحاديث نبوية شريفة، فمثلاً جعلوا للمشاركين في غزوة (بدر الكبرى) مِزْيَةً خاصة، وكذلك للمشاركين في حادثة (الحديبية) والتي تَمَخَّضَتْ عن (الفتح المبين)، وكانوا: (١٤٠٠) أو (١٥٠٠) صحابياً، إذْ بايعوا رسول الله ﷺ تحت ظل شجرة هناك على القتال، لو كان خبر مقتل (عثمان بن عفان) ﷺ، بيد مشركي (مكة) صحيحاً، وكان سَفيرَ رسول الله إليهم، فَأَثْنى عليهم الله تعالى ثناءً عَطِراً، بقوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

ولكن الصّحابة عامة ﷺ موعودون بالحُسْنى من الله تعالى، كما في الآية (١٠) من (الحديد): ﴿...وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ...﴾.

٦ ـ وهناك أحاديث مَرويَّة عن رسول الله ﷺ، يُفْهَمُ منها أَنَّ عَدداً من أصحابه سَيَنْحَرِفُون عن جادته بعد وفاته، وهذا أحد تلك الأحاديث:

«**يَرِدُ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي، فَيُحَلَّئُونَ عَنِ الْحَوْضِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٢١٣) عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ).

وما قاله رسول الله ﷺ حق لا مرية فيه، إذْ ارتدَّ بعضُ المسلمين

الجُدد في إيمانهم بعد رسول الله ﷺ، حتى قاتلهم خليفةُ رسول الله الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ولكن لا يجوز أن نَتَّخِذَ تلك الأحاديث ذريعةً للوقوع في الصَّحابة رضي الله عنهم وذَمِّهِمْ، بل يَجبُ أن تُنْزَلَ تلك الأحاديث منزلها الصَّحيح، ولا تُعَمَّمَ على الصّحابة المَرْضيين لله تعالى كُلِّهم أو أكثرهم، بل ولا حتى بعضهم، سوى من ثبتت عنه بِسَنَدٍ صحيح أخطاءٌ، يُدان بها بِقَدَرِها، ثم لا يجوز حتى مع هؤلاء المُدانين بِأخطاء معيَّنة ثابتة، إغفالُ محاسنهم التي تُحْسَبُ لهم.

ولأمرٍ مّا حذَّر رسولُ الله ﷺ أُمَّتَه من ذَمِّ أصحابِه رضي الله عنهم من بعده، كما قال في أحد أحاديثه بهذا الصَّدد:

١) «**الله الله فِي أَصْحَابِي، الله الله فِي أَصْحَابِي لاَ تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمَنْ آذَى الله فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١٦٨٤٩)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٨٦٢) وَقَالَ: غَرِيبٌ وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٧٢٥٦) وَضَعَّفَهُ كُل من الشيخين الألباني وشعيب الأرنؤوط).

٢) وَقَالَ: ««**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْل أُحُدٍ ذَهَباً، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَه**»» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٦٧٣)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه).

٣) «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٦٥٠)، عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما).

٤) «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٦٥١)، عَنْ عَبْدِالله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه).

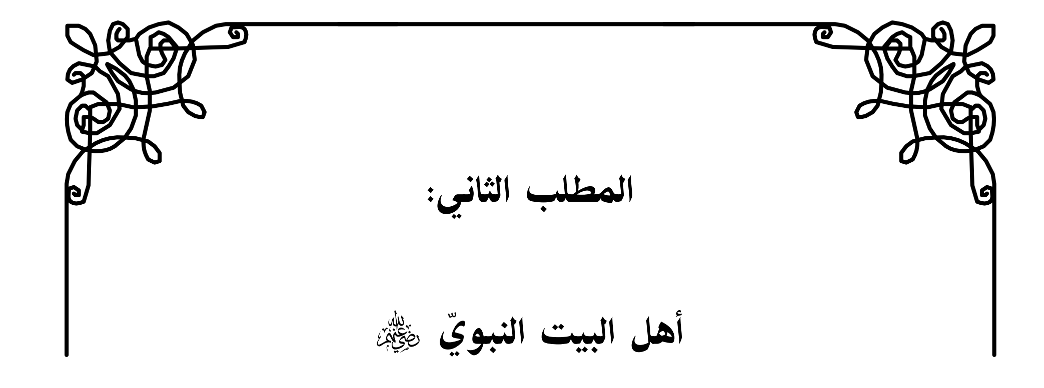
٧ ـ والأمة الإسلامية باستثناء الشيعة الإمامية، كُلُّها مُجْمِعَةٌ على أنَّ الصّحابة رضي الله عنهم كلُّهم عُدولٌ من حيث قبولُ شهادتهم وروايتهم، وإنما

شَذَّت الشيعة الإِمامية تَبَعاً لتفريطهم بِحقّ الصَّحابة، خلافاً لما أَمَر به كتابُ الله الحكيم، ووَصَّى به نَبيُّهُ الكريم، ولَسْنا هنا بصدد مناقشة الشيعة في هذا الموضوع، وإلّا فما يعتبرونه حُججاً لهم في هذا المجال، لَهُو أوهن من بيت العنكبوت، إذ تَرْجِع مُحَصِّلة حُججهم أو ذرائعهم إلى ثالوث:

(سوء الظن + تضخيم الأخطاء وإخفاء المحاسن + أقوالٌ ومَرْويّات مكذوبة).

هذا:

وقد حَرَم الشيعةُ الإِماميةُ الإثنا عشرية نتيجة لذلك، أَنْفُسَهُمْ من أكثرية أحاديث رسول الله ﷺ وسننه، بسبب تجريحهم للأكثرية الساحقة من الصَّحابة، ومن ثَمَّ عدم قبول رواياتهم، ثم ارتكبوا خطأً آخر، عندما جعلوا عدداً من علماء أهل البيت معصومين، كالأنبياء، واعتبروا أقوالهم وأفعالهم ديناً يتعبَّدون به، واعتبروها مثل أقوال رسول الله ﷺ وسننه، وذلك تعويضاً عمّا فاتهم من سنة رسول الله المروية عن طريق الصّحابة ﷺ، وقد نسبوا أشياء إلى بعض علماء أهل البيت، مِمّا يتصادم مع الكتاب والسنة وبداهة العقل، وهم منها براء.



المطلب الثاني:

أهل البيت النبويّ ﵃

وأهل بيت رسول الله ﷺ هم بالدرجة الأولى: أَزواجه الطّاهرات أُمَّهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ، إذْ لم تَرِدْ كلمة (أهل البيت) في القرآن إلّا مرَّتين:

١) الآية (٣٣) من (الأحزاب).

٢) الآية (٧٣) من (هود).

وكلتا المرتين قُصِدَ بـ(أهل البيت) ما ذكرناه، وهذان هما السياقان اللَّذان وردت فيهما هذه الكلمة:

١. ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب].

٢. ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ

﴿...وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ [هود].

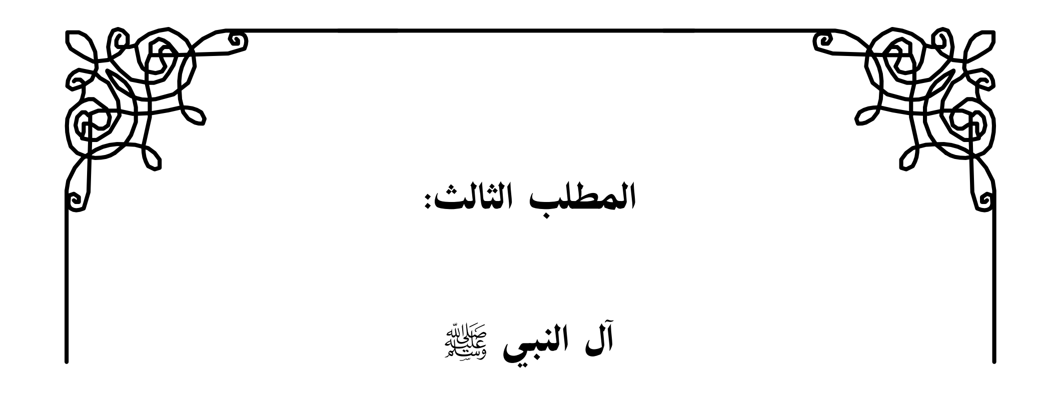
وجَليٌّ في السياقين أَنَّ المقصود بـ(أهل البيت) في الآية (٣٣) من (الأحزاب)، هو أزواج النبيِّ ﷺ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، والمقصود به في الآية (٧٣) من (هود)، هو زوجة إبراهيم (سارة) رضي الله عنها.

ولكن يشمل مفهومُ أهل البيت بالإضافة إلى زوجة الرجل، أَولادَه وأَحفاده أيضاً، ولهذا أدخل العلماءُ كلاًّ من: (علي وفاطمة والحسن والحسين) رضي الله عنهم، في مسمّى (أهل البيت النَّبوي)، بل أَدْخَل فيه بعضهم أقارِبَه ﷺ أيضاً، من أعمام وعماتٍ وأولادهم، وذلك بناءً على المفهوم اللغوي للكلمة، إضافة إلى بَعض الأَحاديث والآثار الواردة في هذا المجال.

وبما أنّنا وضَّحنا مفهوم المحبّة والتكريم والإجلال سابقاً، فلا داعي لتكراره هنا، ونقول بإيجاز:

إِنَّ محبَّةَ وتكريمَ أهل بيت رسول الله ﷺ وإجلالَهم، حقٌّ آخر لرسول الله ﷺ على كل فردٍ منْ أُمته ذكوراً وإناثاً.





المطلب الثالث:

آل النبي ﷺ

و(آلُ النبي الخاتم) ﷺ هم أتباعُهُ الصّادقون من ذكور وإِناث أُمَّتِهِ، أي مَنْ لهم ارتباطٌ خاصٌ وصلة وثيقة برسول الله ﷺ من حيث الإيمان والإِتّباع.

وليسَتْ كلمة (آل) مرادفةً لكلمة (أهل) كما يزعم البعض، بدليل أَنّ كلمة (أهل) لا يردُ إلّا مضافة إلى (البيت) فيقال: (أهل البيت)، ولكن كلمة (آل) تأتي دَوْماً مُضافَةً إلى الإنسان، كما نرى في هذه الآيات:

١. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران].

٢. ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء].

٣. ﴿...فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر].

٤. ﴿...ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

وقد يتَّحد مفهوما (الأهل) و(الآل)، وذلك بِأن يتَّبع أهلُ بيت الرّجل إيّاه في الطريقة والمنهج، كما في حالتي (آل إبراهيم) و(آل عمران)، ولذلك

قال تعالى في الآية التي بعد الآية (٣٣) من (آل عمران) والتي أَعْلن الله تعالى فيها اصطفاءَهُ لكل من (آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران) ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وقد يفترقان، وذلك بأن لا يتَّبع أهلُ الرجل طريقَتَه ودينَهُ، كما في حالة (آل فرعون) الذين استحقُّوا عذاب الله الدنيوي والأخروي، كما في الآيتين (٤٥ و٤٦) من (غافر)، ولكن زوجته التي كانت أهلَهُ، أَثْنى عليها ربُّ العالمين، وقَرَن ذِكْرَها بذكر (مريم) ﵄ وجعلها مثلاً لأهل الإيمان، حيث قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم].

إذ المقصود بـ(آل فرعون) هو أَتْباعُهُ وحاشيته الذين شايعوه وأيَّدوه، وبما أَنَّ امرأَته كانت مؤمنة، ولم تَتَّبِعْهُ ولم تُشايِعْهُ، فهي كانت مستثناة من (آل فرعون) بالرغم من كونها من أهله.

وخلاصة القول في معنى (آل النبي الخاتم والرسول الأعظم) ﷺ هي:

أن آله هم خاصَّته وأتباعه الصَّادقون المخلصون من الرجال والنساء، سواء كانوا مرتبطين به من جهة النسب أم لا، إذْ مدار الآلِيَّةِ هو الإرتباط المعنوي والإنتساب الإيماني، وكلمة (آل) مأخوذة من (آل يَؤُلُ) أي: رَجَعَ يَرْجِعُ[١].

وعليه: فكل مُسْلم يَدْخل في مفهوم (آل النبي الخاتم) بقدر قُرْبِهِ منه وارتباطه به، من حيث الإيمانُ والإِتِّباعُ والطاعةُ[٢].

(١) مختار الصحاح، ص٤٢، لفظ: أ و ل.

(٢) قال عبدالله بن عباس ﵄ مبيِّناً مفهوم كلمة (آل): [آل إبراهيم وآل عمران: المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران، وآل ياسين وآل محمَّد ﷺ! يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...﴾ [آل عمران]، وهم المؤمنون ويقال: آل يعقوب، فإذا صغّروا (آل) ثم ردّوه إلى الأصل، قالوا (أُهَيل)] (صحيح البخاري)، ص٦٣١.

وبناءً على ما مَرَّ ذكره، نقول:

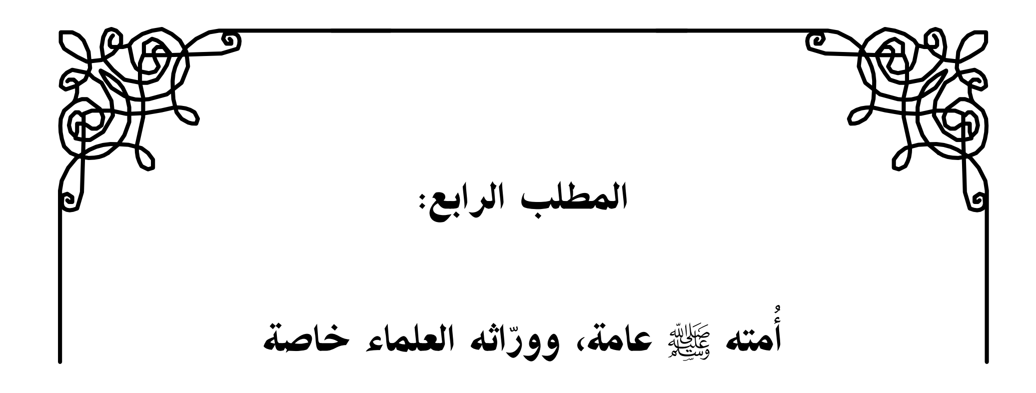
إِنَّ صَحابَةَ رسول الله ﷺ رجالاً ونِساءً، هم أوَّلُ الناس دخولاً في مفهوم (آل محمَّد) ﷺ، وكذلك زوجاته الطاهرات، وأولاده وأحفاده، لأنهم كانوا أقرب الناس منه إيماناً واتباعاً، رضي الله تعالى عنهم أَجمعين.

وأمّا قرابَتُه ـ أي المُنْتَسِبون إليه من حيث النَّسب ـ فشأنهم في هذا شأن غيرهم من الناس، أي يقتربون منه ﷺ بقدر إيمانهم واتِّباعهم له، ويبتعدون منه بمقدار بعدهم عن الإيمان والإِتِّباع والطاعة، ولهذا قال ﷺ: «...**ومَنْ بطَّأَ به عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٧٠٢٨)).

وقد بينّا في السابق مفهوم المحبَّة والتكريم، فلا نعيدُهُ، ونختم هذا الموضوع بقول الشاعر:

آلُ محمَّدٍ هم أتباع مِلَّتِهِ
مِن السّودان والعُجْمِ والعَرَبِ
ولو لم يكن آله إلّا قرابَتُهُ
لَصَلَّى المُصَلِّي على الطّاغي أبي لَهَبِ





المطلب الرابع:

أُمته ﷺ عامة، وورّاثه العلماء خاصة

أجل إن حُبَّ أمة (محمَّد) ﷺ وتكريمَها والإهتمامَ بها والحرصَ عليها عامة، والعلماءِ الذين هم بحق ورّاث رسول الله ونوّابه في أمته خاصة، حق مهم آخر من حقوق النبي المصطفى ﷺ، على كل فردٍ من أفراد أمته.

ولا شك أن حُبَّ المسلم وتكريمَهُ لأمة رسول الله ﷺ وحِرْصَهُ عليها واهتمامَهُ بها، يقتضي منه التفاعل مع أَتْراحها وأَفراحها، والمشاركة في ضرّائَها وسَرّائَها، حسب الإمكان، ولو كان بِدُعاءٍ عن ظهر الغيب.

وكذلك يقتضي منه الإهتمامَ بها كلِّها، بكافة شعوبها ومجتمعاتها التي تتكوَّن منها، في جميع بقاع العالم الإسلامي، وتجنّب كل ما يؤدّي إلى التفرّق والتشرذم، كالتعصّب للقوم أو العشيرة، أو البلدة، أو الطائفة، أو المذهب، أو الحزب..ألخ، بل يجب على كل مسلمٍ أن يجعل قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، نِبْراساً له في التعامل مع المسلمين، من جميع الشعوب والأقوام، وفي جميع المجتمعات، وميزاناً له يَزِنُ به الناسَ جميعاً، بعَدْلٍ وإنْصاف.

ومعلومٌ أنه عندما يتعامل المسلمون فيما بينهم على أساس الآية الآنِفةِ الذكر وعلى أساس قوله تعالى:

١. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

وقوله الكريم:

٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ . . .﴾ [آل عمران].

وقوله المبارك:

٣. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

٤. وكذلك عندما يأتمرون بهذه الأوامر الخمسة التي وجَّهها إليهم نبيُّهم الكريم، حيث قال:

٥. «**أَنا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ الله أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَيِّ جَهَنَّمَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ الله وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**، . . .» (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٨٦٣) وقَالَ الشيخ الألباني: حَديثٌ صَحِيح، عَنْ الْحَارِثَ بن الْحَارِثَ الْأَشْعَرِيَّ).

وعندما يكونون كما وصفهم رسولُ الله ـ أي وصف أُمَّته كي يعلموا أنَّه ينبغي لهم أن يكونوا هكذا ـ:

٦. «**وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٢٧٥١)، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٢٦٨٥))[1].

---

(١) وهذا هو نص الحديث: (المسلمون تتكافأ دِماؤهم، يَسْعى بِذِمَّتهم أدناهم ويُجيرُ عليهم أقْصاهم، وهم يدٌ على سواهُمْ) رواه أبو داود: ٢٧٥١، وابن ماجه: ٢٦٨٥، وأحمد: ٢٢١٤.

فإنَّهم حينئذٍ بلا شك، يُصْبِحون أعظم قوةٍ على وجه الأرض من حيث العدد والثروات والأرض، إضافة إلى الإيمان والإسلام الذي يُثْمِرُ فيهم كلَّ خير، ويُبْعِدهُمْ عن كل شرّ.

إذْ لم يفرِّق الأُمَّةَ الإسلاميةَ إلى دويلات صغيرة وكياناتٍ هَشَّةٍ هزيلةٍ، مغلوبة على أمرها في أغلب الأحيان، إلّا ابتعادُها عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم فُشُوُّ أنواع الإنحرافات فيها من الجهل بدين الله والشرك والبدع، إلى النَّعْرات الجاهلية، كالتعصُّب للعشيرة والقوم والبلد، وإحْلاله محلَّ التمسُّك بدين الله، والموالاة مع أهل الإيمان أينما كانوا، والتبرّؤ من أهل الكفر أيّاً كانوا.

ومن الجليِّ أن محبة أمة (محمَّد) ﷺ والحرص عليها والإهتمام بها في هذا العصر، يوجِبُ على أهل الإسلام أن يسعوا بكل إمكانياتهم إلى إحياءِ الأُخوَّة الإسلامية، والتمكين لها في ميدان الواقع، إذْ هذا هو ما يأمرنا به كتابُ ربِّنا وسنة نبيِّنا ﷺ، ثم إن هذا العصر عصر التكتلات والتجمّعات الكبيرة، التي بوسعها الوقوف على قَدَمَيْها والصّمود أمام التحدّيات والمخاطر المهدِّدة لوجودها، ولا يَخْفى أن الأمة الإسلامية تتربَّصُ بها دَوْماً أعداءٌ كثيرون، من أهل الإلحاد والكفر والشرك، بالإضافة إلى المرتدّين والمنافقين الذين يشكِّلون الطابورَ الخامس لأعدائها!

هذا بالنسبة للأمة الإسلامية، وأمّا العلماء والأمة الذين يَنُوبون بحق عن رسول الله ﷺ في أمته ويحفظونه في ميراثه الذي تركه لهم (أي العلم الشرعي بمفهومه الواسع)، فهؤلاء محبَّتهم وتكريمهم وتوقيرهم وتعزيرهم أوجَبُ وأَلْزَمُ، حيث بيَّن سبحانه أن أهل العلم لهم درجات في الفضل والإمتياز، على بقية أهل الإيمان: ﴿...يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ...﴾ [المجادلة: ١١].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنْ إجْلالِ الله تَعالَى: إكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِم، وَحَامِلِ القُرآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ، وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِط**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٨٤٥) عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ وَحَسَّنَهُ كل من النّوَوي والألباني).

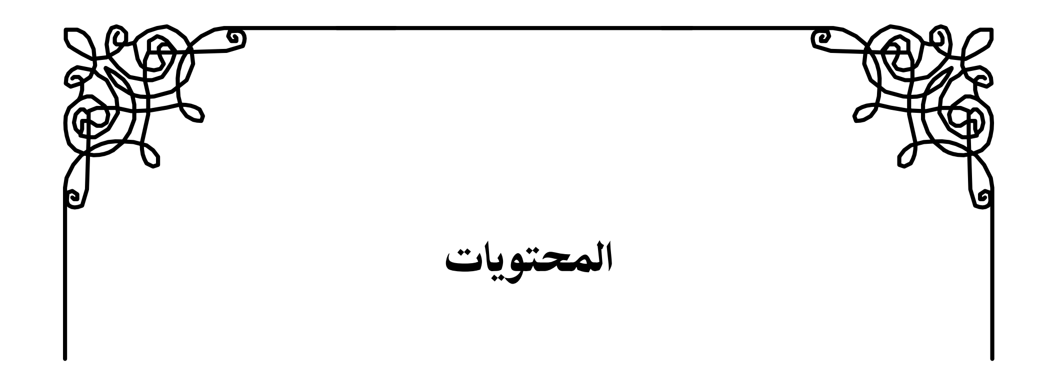
ولكن يَجِب أَنْ لا نَنْسى أنَّ العلماء الذين يُعْتَبرون حقاً ورّاث رسول الله ﷺ ونُوّابه في أمته، هم الذين وَرِثُوا عنه العلمَ بالكتاب والسنة والعملَ بهما، قَدْرَ المستطاع، ودعوةَ الناس إليهما، بكل ما يحتويان عليه من حقائق معرفية وإيمانية، وشعائر تعبّدية، وشرائع سياسية واقتصادية، وآدابٍ اجتماعية، وفضائل خُلُقية، ثم الدّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، والذين يسعون إلى جعل دين الله الحق ظاهراً ومهيمناً: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]، [الصّف: ٩].

ومن البديهي أن حَمْلَ هذا الحِمْل الثقيل والْعِبْءِ العظيم، لا يتيسّر للأمة والعلماء، إلّا إذا هَبَّ المسلمون رجالاً ونِساءً، وشمَّروا عن ساعِد الجِدِّ، وعاونوهم وساندوهم وساروا وراءَهم، وتكاتفوا وتعاضدوا معهم، كما فعل الصّحابة الكرام مع سيِّد الأنام رسول الله ﷺ، وإذا كان الأئمة والعلماء هم نوّاب رسول الله وورثته، فالمسلمون عامة أيضاً هم خَلَفُ الصَّحابة ﷺ أجمعين، لِذا يجب أن يكون المسلمون الآن لعلمائهم وأئمتهم الشرعيين، كما كان الصحابة الكرام ﷺ لرسول الله ﷺ.

وبهذا نختم الفصل الرابع والأخير، من هذا الكتاب.

٢٧ محرم ١٤٢٦
٢٠٠٥/٣/٨

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المحتويات

الموضوع	الصفحة

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑